صفحات من تاريخ مصر الفرعونية

مصر في العصور القديمة

تأليف

إبراهيم نمير سيف الدين
المفتش بالتعليم الثانوي

زكي علي
المدرس بكلية الآداب

أحمد نجيب هاشم
المفتش بالتعليم الثانوي



راجعه

الأستاذ محمد شفيق غربال
عميد كلية الآداب



الناشر
مكتبة مدبولي
القاهرة

مصر في العصور القديمة

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الناشـــر
مكتبة مدبولى
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٥٧٥٦٤٢١

مصر في العصور القديمة

تأليف

إبراهيم نمير سيف الدين
المفتش بالتعليم الثانوي

زكي علي
المدرس بكلية الآداب

أحمد نجيب هاشم
المفتش بالتعليم الثانوي

راجعه

الأستاذ محمد شفيق غربال
عميد كلية الآداب

مكتبة مدبولي
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

كتاب مصر فى العصور القديمة

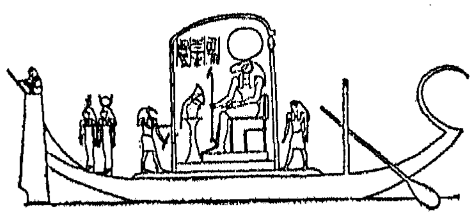
صفحة

الباب الخامس ، العصر الصاوى :

الباب السادس ، الحضارة المصرية القديمة :

الصور الملونة

الخرائط



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نعرض عليك فى هذا الكتاب تاريخ الحضارة المصرية منذ أقدم أزمانها ، منذ أيام الإنسان الأول ، الذى أوى إلى الكهوف واتخذ من الحجارة أدوات . وقد ارتقى هذا الإنسان فعرف كيف يوقد النار ، ويسخر الأنعام ، ويستنبت البذور ، وانتظم فى جماعات تخضع لرؤساء منها ، ثم اتحدت هذه الجماعات فى ممالك ، واندمجت هذه الممالك فى الوحدة المصرية ، وظهرت بذلك مصر التاريخية .

وقد بيّنا لك معالم ذلك التاريخ المصرى الطويل ، ووصفنا لك حياة المصريين السياسية والاجتماعية والفنية والدينية ، وتتبعنا هذه الحياة الى وقت انتهائها ، إلى اندثار الحضارة المصرية القديمة ، لمّا وقعت مصر فى حكم الملوك الغرباء : البطالمة المقدونيين ، والقياصرة الرومان .

وسترى أن هذا المجتمع المصرى القديم كان فريدا ، وأن إدراك حقيقته وتَفَهُّم أمره لا يخلوان من عناء . فقد باعد الزمن بيننا وبين ذلك المجتمع ، وخلقت منا الأحداث التى توالت على بلادنا خَلْقاً جديدا ، يكاد لا يفهم شيئاً من أمر ذلك المجتمع القديم ، ولكن علينا أن نحاول :

فى مصر القديمة تألف من الأفراد كبيرهم وصغيرهم ، غنيُّهم وفقيرهم ، أمة متماسكة ، ومجتمع مرتبط بعضه بالبعض الآخر ، يسوده النظام ، وتغلب فيه مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، ويؤدّى كل إنسان واجبه الذى قسم له . وهو مجتمع ، النزعة فيه دائما نحو التنسيق والتوحيد والانسجام ، فكان بذلك أبعد ما يكون عن العالم اليونانى والرومانى ، الذى حاولنا أن نكشف لك فى إيجاز عن أهم مميزاته ، حيث الاضطراب السياسى والفكرى والاجتماعى ، وحيث تطغى مصلحة الفرد على نفع المجموع . وينبغى ألا نقول إن هذا النظام أفضل من ذاك ، أو إن الإنسانية بحاجة إلى الواحد دون الآخر ، فهى فى الواقع بحاجة إلى النظامين والفكرتين .

ونحن نقص عليك هذا التاريخ لما فيه من المتعة فى ذاته ، ولأن كل مصرى يجب أن يعرف ولو قدرا يسيرا مما جرى على بلاده،لأن هذه المعرفة تكوّن عنصراً هامًّا من عناصر ملكة الحكم على المسائل التى يجب أن توجد فى كل مصرى .

وهذه المعرفة تغذى العواطف أيضاً بما تبعث فى المصرى من الإعجاب أحياناً والاستنكار أحياناً ، وهى توسع المجال للتفكر والتأمل فيما اتخذه المصرى القديم من طرائق العيش وأساليب الحياة المختلفة ، وتؤدى الدراسة التاريخية على هذا النحو ما تؤدّيه السياحة فى أنحاء الأرض أو الاطلاع على أحوال الأمم الحاضرة .

وإنَّا عند ما ننتقل بك فى هذا الكتاب ، ندعوك ألا تتخذ من الدراسة التاريخية مجرد أداة للتباهى بما خلّفه المصريون القدماء ، فالمهذب لا يباهى حتى بما صنعت يداه . كما أنا ندعوك ألا تزج بنفسك فى الجدل العقيم الدائر : أينتسب مصريو اليوم إلى مصريى الأمس ، أم يتنصلون منهم ؟ فلا داعى لهذا ، فإن الحضارة المصرية قد ماتت بعد أن ألقت بذورها ، وبعد أن علّمت الناس طرائق الفنون ، وأصول العلوم ، وقواعد الكتابة ، وعقيدة البعث والحساب فى اليوم الآخر ، وفكرة الملوك المؤلهين والإدارة الحكومية الرشيدة ، وليس هذا بالقليل .

وما الكتاب الذى نضعه بين يديك إلا عصارة أبحاث طويلة تملأ المئين من المجلدات ، فقد وصف مصر القديمة وآثارها عدد كبير من الزوار الغرباء ، القدماء والمحدثين : من اليونان ، والرومان ، والعرب ، والفرنجة. وكتب عن مصر القديمة عدد كبير من العلماء، بعد أن استطاع شامپوليون فك رموز الكتابة القديمة ، وكشف عن آثارها كشفاً علمياً الأثريون ، وفى طليعتهم ماريت ، واتسع بذلك نطاق البحث وتشعبت المسائل ، حتى دخل التخصص فى الدراسات المصرية ، ففرغ بعض العلماء للمباحث اللغوية ، وآخرون للفنية أو الدينية ، وما إلى ذلك .

ولعل هذا الكتاب الصغير يشوقك إلى التاريخ المصرى القديم ، ويحبب إليك البحث فى كتب أكبر منه ما

الباب الأول

مصر فى العصور الأولى

الفصل الأول

جغرافية مصر القديمة وأثرها فى تاريخها

تمهيـد :

مصر من البلاد التى توفرت الدلائل على أن الحضارة قامت فيها قبل العصور التاريخية بزمن بعيد ، واستمرت مزدهرة بعد ذلك أربعة آلاف من السنين . ويرجع ذلك إلى عوامل جغرافية خاصة كان لها أثر عظيم فى تكييف العناصر الضرورية لقيام المدنية ؛ لهذا كان لزاماً على المؤرخ ، قبل أن يعرض تاريخ مصر القديمة ، أن يمهد لبحثه بإلمامة عامة عن جغرافيتها ، ليبين مدى ما لها من أثر فى وجودها .

١ — نهر النيل

لا ريب أن العامل الأساسى فى وجود مصر هو النيل ، الذى لولاه لكانت صحراء جرداء ، كبقية الأراضى التى تحيط بها من الشرق والغرب ، ولما وجدت فيها حياة أو قامت بها حضارة .

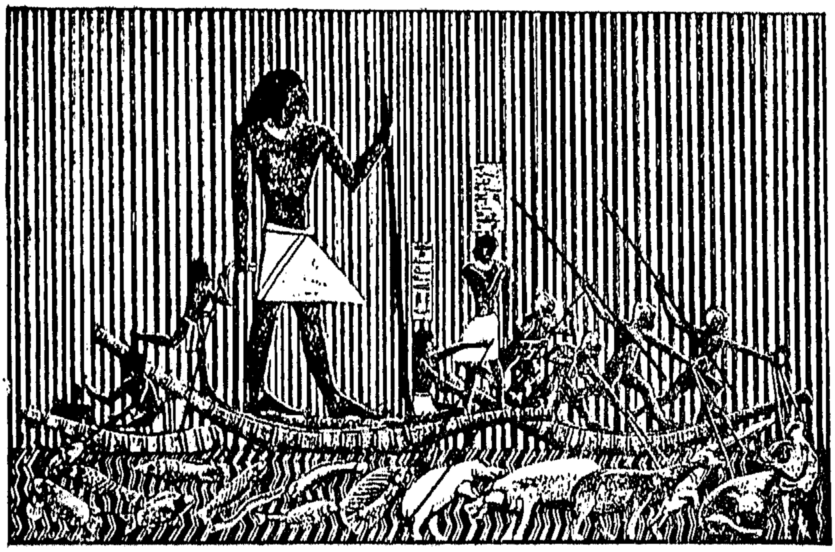
مصر هبة النيل :

شق النيل مجراه فى الهضبة الصحراوية ، التى تشمل جميع الجزء الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا ، أيام كانت تلك الهضبة غزيرة الأمطار ، وذلك منذ آلاف السنين ، واخترق أرضها الرملية أو الجيرية ، حاملاً معه الغرين الذى كان يقذف به عاماً

بعد عام فى الجزء الأسفل من واديه فكوّن بذلك بقعة من أخصب بقاع العالم ، هى مصر . وهـــذا ما أوحى إلى "هكاتَه" الجغرافى اليونانى كلمته المشهورة "مصر هبة النيل" ، فنقلهـا عنه هيرودوت المؤرخ اليونانى ، الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ورددتها الألسن إلى يومنا هذا .

أثر النيل فى الحياة المصرية :

وكان النيل فى العصور الأولى يغمر الأراضى فيصيرها رطبة ويجعلها مرعى لعدد وفير من أسراب المـاشية ، أما فروعه الراكدة الميـاه ومستنقعاته الكثيرة النائيــة المترامية الأطراف بالوجهين البحرى والقبلى فكانت تكتنفها الأعشاب الكثيفة من البردى ، ويؤمها أفراس البحر والتماسيح وطيور المـاء. وكان المصرى يصل إلى تلك البقاع فى زورق من البردى ليصطاد بخطافه ويرشق بنباله حيوان هذه المستنقعات ، كما كان يصعد إلى قمم التلال الصحراوية ، التى تكتنف حافتى الوادى ، فيقتنص فيها السباع أو الضباع أو بنات آوى .

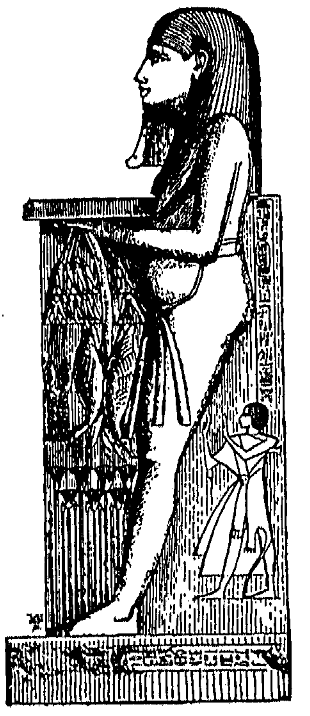


صيـــد أفراس البحر

وكانت الحاجة إلى طلب القوت سبباً فى تعلم القوم تدريجياً والنهوض بهم إلى الحضارة ونور العلم، فدعتهم وفرة الماء للعمل على الإفادة منه، ففكّروا فى شق الترع و بناء الخزانات لتنظيم الرى، وفى تجفيف المستنقعات لتحويلها إلى أراض زراعية .

ولكن هذه الجهود يتعذر على الفرد القيام بها وحده ، لذلك كان لزاماً على السكان أن ينضم بعضهم إلى بعض و يؤلفوا من أنفسهم وحدات كبيرة تلقى كل منها مقاليد أمرها فى يد رئيس يرأسها . ومن ذلك تكونت إمارات صغيرة يحكمها رؤساء صغار .

وفى فجر التاريخ تكونت من إمارات مصر المختلفة مملكتان عظيمتان ، إحداهما فى الشمال والثانية فى الجنوب ، بقيت كل منهما مستقلة عن الأخرى، إلى أن اندمجتا وتكوّنت منهما دولة واحدة .



آله النيل

ونظراً لأهمية الرى عُنى المصريون بدراسة أحوال النهر وقياس ارتفاعه وانخفاضه ، كما عدُّوا الأيام التى تسبق كل فيضان ، و بعبارة أخرى فإن الحاجة هى التى دفعتهم إلى اختراع علمى الهندسة والحساب .

عبادة النيل :

لهذه الأسباب كان للنيل فى نفوس المصريين القدماء احترام صادر عن عقيده ، إذ أنه صاحب الفضل الأول فى حفظ حياتهم ، والحصن الذى به يتقون غوائل الجدب والضيق ، ولقد بلغ من تقديسهم للنيل أن عبدوه وسمّوه "حعبى" أى الإله المقدس ، وكانوا يؤدون له فرائض العبادة ، وخاصة فى أيام الفيضان ؛ ولا يزال المصريون يحتفلون بفيضانه إلى اليوم ، وفاء له لما أنعم به عليهم من خصوبة ونماء .

٢ — سطح مصر

ليس سطح مصر وحدة متشابهة من الشمال إلى الجنوب ، بل ينقسم إلى قسمين مختلفين تمام الاختلاف هما : مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) .

مصر العليا :

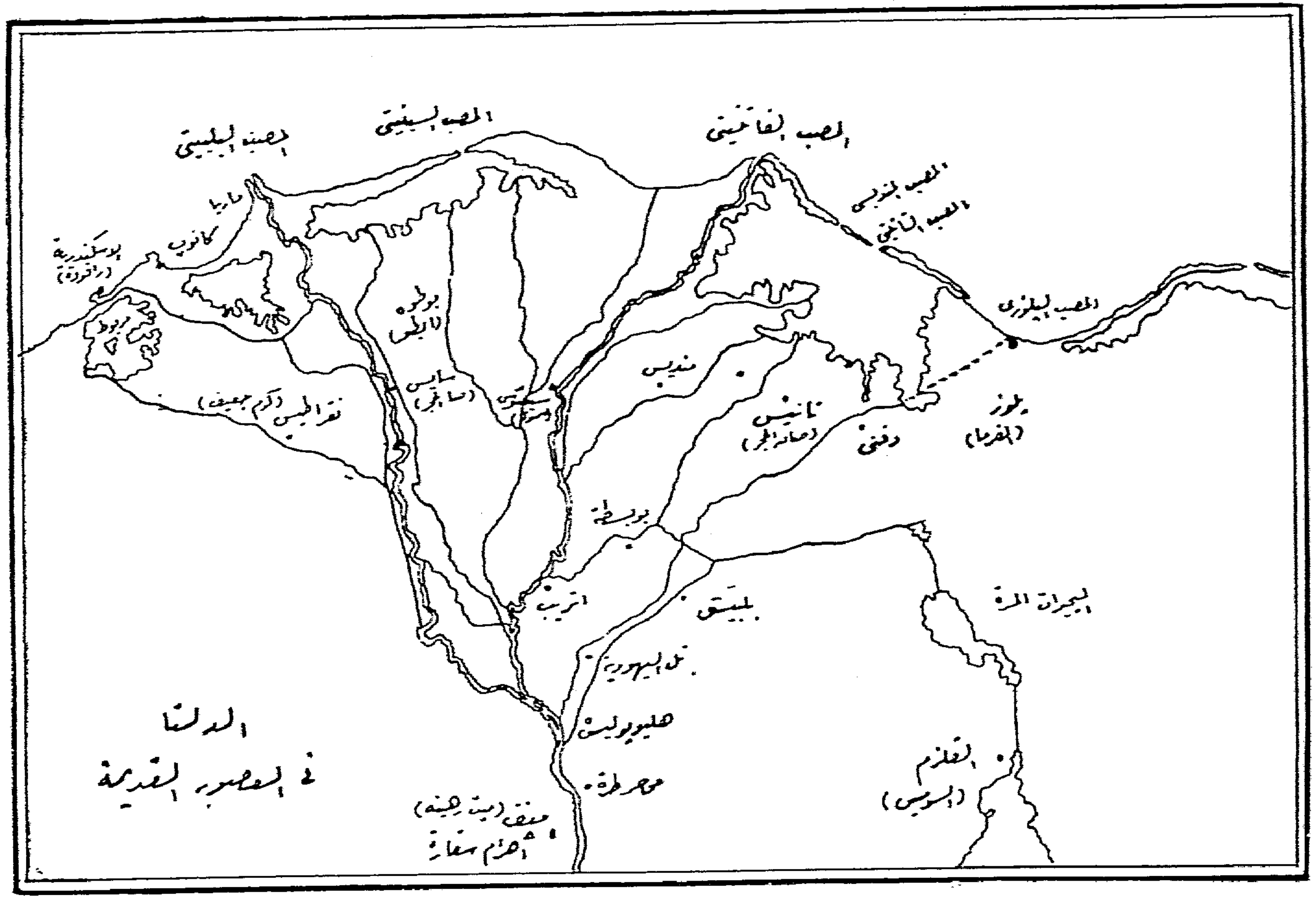
وتتكوّن مصر العليا من واد ضيق يمتد من الشلال الأول عند أسوان إلى رأس الدلتا بالقرب من القاهرة ، ويبلغ طوله حوالى ثمانمائة وثمانين كيلو متراً ، أما عرضه فلا يزيد على عشرين كيلو متراً ، وقد يصل فى بعض الجهات إلى بضعة أمتار .

فى هذا الوادى الضيق الذى تحف به الصحراء من جانبيه ، عاش سكان مصر القدماء ، وكان لضيق الوادى أثر كبير فى مستوى تفكيرهم وطبيعه حياتهم ، فأصبحت الأرض فى نظرهم قسمين : الأرض السوداء ، وهو الاسم الذى أطلقوه على وادى النيل بسبب سواد تربته ، والأرض الحمراء ، وهو الاسم الذى عرفوا به الصحراء الرملية ، وما كانوا يعرفون عن البلاد الأجنبية إلا أنها بلاد لا بد أن تكون جبلية ، لأن إقليم مصر سهل لا وعورة فيه ، كما أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا بلداً لا نيل فيه ، وهذا يبين مدى أثر العزلة التى أحاطت بساكن مصر العليا فى أفكاره وآرائه .

مصر السفلى :

وتختلف مصر السفلى كل الاختلاف عن مصر العليا ، إذ أن الدلتا كانت فى أول الأمر خليجاً بحرياً ، ملأه النيل بطميه ، حتى أصبح أرضاً منبسطة تتخللها عدة فروع للنيل ، ولا توجد بها مرتفعات ، ولا بد أنها ظهرت لسكانها سهلاً فسيحاً يمتد إلى الأفق فى جميع نواحيه .

وكان اتساع الأفق أمام سكان الدلتا قوىّ الأثر فى شعورهم بالحرية وتوجيه حياتهم ومعيشتهم ، وتقدم مدنيتهم .


الدلتا
في العصور القديمة
المصب البلبيتي
المصب السبنيتي
المصب الفاتنيتي
المصب التنيسي
المصب البيلوزي
الإسكندرية
(راقودة)
كانوب
ماريا
بوتو
سايس
(صا الحجر)
منديس
تانيس
(صان الحجر)
دفنى
بلوز
(الفرما)
بوبسطة
أتريب
بلبيس
تل اليهودية
هليوبوليس
موحرطة
منف (ميت رهينة)
أهرام سقارة
البحيرات المرة
القلزم
(السويس)

٣ — أرض مصر

خصوبة التربة :

ومن المؤكد أنه كان لتربة مصر ، كما كان لسطحها ، أثر فعّالٌ فى حضارتها فى العصور القديمة ، فالطمى الذى يجلبه النيل سنوياً فى ، زمن الفيضان ، جعل أرض مصر موفورة الخصوبة .

ولقد ساعد هذا الخصب على نمو محاصيل كثيرة : كالقمح والذرة ، والعدس والكتان ، والثوم والبصل ، والخضر والفاكهة ، وخاصة الكروم والنخيل ، وغير ذلك من المحصولات التى تعتبر ركناً أساسيا فى طعام السكان ، والتى متى توافرت سهّلت الحياة وشجّعت تقدم المدنية .

المعـادن :

وأرض مصر، التى تخرج هذه المحصولات الكثيرة ، لم تحرمها الطبيعة نصيبها من المعادن : كالذهب ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، وبعض الأحجار الكريمة ، التى كانت ينبوعا من ينابيع ثروتها .

ولقد اهتم المصريون بمناطق هذه المعادن ، وأنشأوا طرقا كثيرة توصلها بالوادى ، وكان الطريق الرئيسى حينئذ هو طريق وادى الحمامات الذى يصل النيل بالبحر الأحمر بين قفْط والقصير .

ومن المعادن والحجارة ، التى وجدت فى مصر ، استطاع المصريون القدماء أن يصنعوا تماثيلهم البديعة وآنيتهم الجميلة وحُليّهم الثمينة ، التى ورثها الأحفاد عن الأجداد فبقيت إلى يومنا هذا ناطقة بما كان عليه قدماء المصريين من رقى وحضارة .

٤ — موقع مصر

تقع مصر عند ملتقى ثلاث قارات من الدنيا القديمة ، ويحدها بحران أحدهما فى الشمال ، هو البحر المتوسط ، والثانى فى الشرق هو البحر الأحمر .

نشاط التجارة :

وكانت هناك طرق تجارية تستخدم لتصريف المنتجات المصرية واستيراد الحاصلات الخارجية ، فتسافر السفن من الموانى النيلية لتتاجر مع البلاد المجاورة ، مستبدلة بقمحها ونبيذها وزجاجها وأثاثها ومصنوعاتها وأوانيها الخزفية ، والتماثيلَ من بلاد الإغريق ، والصفيحَ والملابسَ من جزيرة صقلية . ولا ريب أن محصولات الشرق الأقصى كانت ترد إلى مصر فى تلك العصور ، لأن بقايا منها وجدت فى مقابر الفراعنة .

ومما لاشك فيه أن هذه التجارة كانت عاملا هاما فى تبادل الأفكار بين مصر وجيرانها .

تعرُّض الدلتا للغزو :

هكذا كان لموقع مصر أثر بليغ فى أحوالها الاقتصادية والفكرية ، بيد أنه عاق أحياناً تقدمها الاجتماعى ، إذ أن مصر تحمى مدخل أفريقيا من اعتداء سكان غربى آسيا ، الذين طالما كانت بلادهم مركز اضطرابات كلما اشتدت أرغمت بعضهم على النزوح إلى دلتا مصر الخصيبة ، وقد تكررت تلك الغزوات ، وكان صدها فى كل مرة يكلِّف سكان الدلتا مجهوداً كبيراً ، كان من المستطاع أن يُستغل فى العمل على ترقية البلاد .

ولم يكن غرب الدلتا أكثر سلامة من شرقها ، ففى الغرب عاشت قبائل ليبية كانت دائماً مستعدة ، فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى القديم ، أن تنتهز فرصة ضعف الحكومة أو قيام نزاع داخلى فى البلاد لتَنْقَضّ على الأراضى الخصيبة .

مناعة الوجه القبلى :

أما الوجه القبلى فكان بعيداً عن هذه العواصف التى طالما هبّت على الدلتا إذ لم تجاوره أمم فى الشرق أو فى الغرب ، كما كان من الميسور الدفاع عنه من الشمال والجنوب : ففى الشمال كانت الدلتا نفسها سدا قوياً ضد غزوات الأسيويين

والليبيين ، أما فى الجنوب ، فإن القبائل الهمجية فى النوبة العليا والسودان لم تحدث لمصر متاعب تذكر ، اللهم إلا فى القرن الثامن قبل الميلاد .

وهكذا كانت مصر العليا تنعم باستقرار تام ، استطاعت معه أن تواصل سيرها فى سبيل التقدم السياسى والاجتماعى .

٥ — مناخ مصر

اعتدال المناخ وأثره :

ولا يقل أثر المناخ عن أثر غيره من العوامل الجغرافية فى تقدم الحضارة المصرية ، فلقد حبا الله مصر مناخاً جميلاً معتدل الحرارة والرطوبة بوجه عام . حقيقة أن الصيف حار ، وخاصة كلما اتجهنا جنوباً ، ولكن الرياح التى تهب من الشمال تخفف من وطأة أشعة الشمس ، أما فى المدة من أكتوبر إلى أبريل فمناخ مصر لطيف منعش ، وفوق ذلك فإن سماءها صافية ، وشمسها ساطعة، طول أيام السنة تقريبا .

ولقد كان لجمال مناخ مصر أحسن الأثر فى تفكير سكان البلاد ونشاطهم وسيرهم فى طريق الحضارة بخطى واسعة .

حفظ الآثار :

كذلك كان لمناخ مصر أثر آخر لا يقل خطورة عما سبق ، ذلك أنه ساعد على بقاء ماخلّفه القدماء من آثار قيّمة ، لولاها لضاعت معالم تاريخهم ، الذى هو تاريخ الإنسانية الأولى، بوجه عام، وتاريخ مدنية البحر المتوسط إبان عزها، بوجه خاص .

تلك هى العوامل الجغرافية التى ساعدت على الحضارة فى مصر، وسيرها فى طريق الرقى ، إلى أن بلغ المصريون درجة عظيمة من القوّة والسلطان .

الفصل الثانى

حضارة مصر فى عصور ما قبل التاريخ (١)

تمهيد :

الحضارة فى نموها وتطورها أشبه ما تكون بالإنسان ، لا يمكن أن تولد ناضجة كاملة النمو ، بل لا بد لها من زمن طويل تنمو فيه وتتطور . وعسير على الباحث أن يتعرف أصل الحضارة وخُطاها فى التقدم والحقائق المرتبطة بها ، قبل أن يدرس الأدوار التى كافح الإنسان فيها ، حتى استطاع أن ينتقل من الهمجيّة إلى المدنية ومن هنا كان اهتمام العلماء بعصور ما قبل التاريخ فى مصر ، وهى العصور التى سبقت الحوادث التاريخية المدونة ، فتسابقوا فى التنقيب عن آثارها وعثروا على الكثير منها فى جهات مختلفة ، وخاصة فى الأماكن الواقعة بين الأراضى الزراعية والصحارى ، ووصلوا بذلك إلى حقائق عن تلك العصور وأهلها ، كانوا يجهلونها إلى زمن قريب .

١ — العصر الحجرى القديم

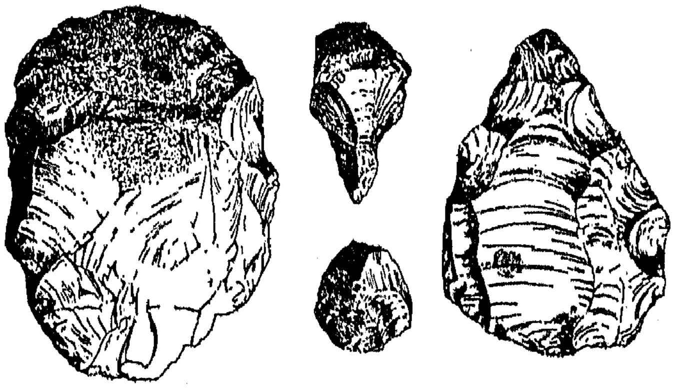
موطن سكان مصر الأُوَل :

ولقد دلّت الآلات الحجرية ، التى وجدت على سطح الهضبة الصحراوية ، أو على عمق كبير من السطح ، على أن سكان مصر الأُوَل عاشوا فوق الهضبة وعلى حافة الوادى ، وكان مناخ تلك الجهات حينئذ أكثر رطوبة منه الآن فتوفرت المياه التى ساعدت على نمو الحشائش والأعشاب وبعض الأشجار المتفرقة ، ولا تزال الوديان الصحراوية الجافة التى كانت تجرى فيها المياه فى ذلك العصر موجودة فى بعض نواحى الهضبة حتى وقتنا الحاضر .

(١) يرجع الفضل فى معرفة جل هذه المعلومات الحديثة إلى رأى حضرة الأستاذ مصطفى عامر بك الذى وفق إلى كشف كثير من آثار هذه العصور فى منطقة المعادى .

معيشتهم :

ومما لا شك فيه أن الإنسان، الذى كان يقطن تلك الصحارى، عاش فى أوّ الأمر على الفطرة : يسكن الكهوف ، ويلتمس الرزق فى الصيد والقنص ويستعمل آلات يصنعها من الحجارة صنعاً بسيطاً . ومما ساعده على الصيد أ الصحراء كان يأوى إليها كثير من الوحوش المفترسة : كالأسود والفهود والثيران



آلات من العصر الحجرى القديم

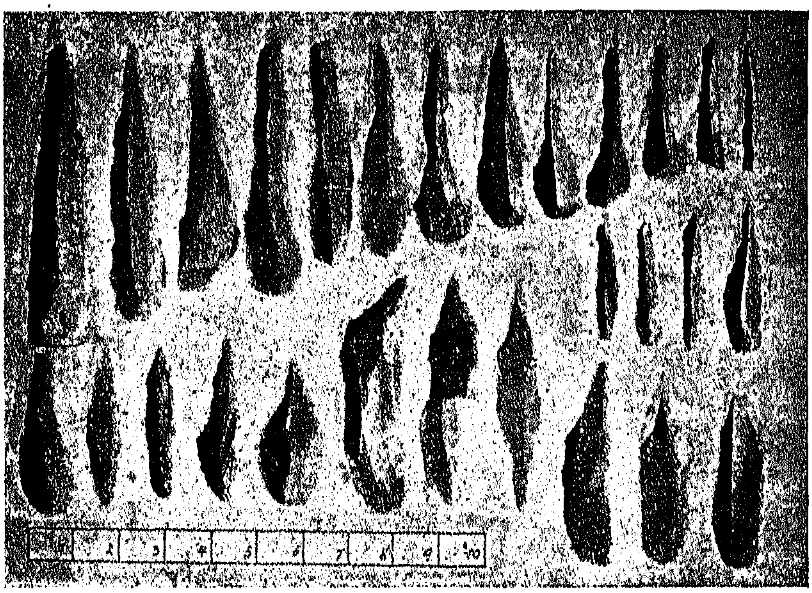
أو الحيوانات الصغيرة كالوعول والغزلان ، ولكن الإنسان الأول لم يوفّق إل استئناس هذه الحيوانات ، كما أنه لم يعرف الزراعة ، وكان يجمع ثمار الأشجا ويصيد الطيور والأسماك من المستنقعات ليتغذى بها ؛ وهكذا كانت حياته حيا كفاح وشدّة ؛ ولقد سمى ذلك العصر الأوّل بالعصر الحجرى القديم .

٢ — العصر الحجرى الحديث

هجرة السكان واستقرارهم :

قضى سكان مصر الأول ردحاً من الزمن على هذه الحال الفطرية ، فلما بد مناخ الصحراء يجف تدريجاً وقلت الأمطار ، أخذ هؤلاء السكان يهجرون الصحراء ليعيشوا بالقرب من موارد الماء ؛ وفى هذه الجهات استأنس المصريون الحيوان وعنوا بتربيته ، وعرفوا الزراعة واهتموا بها ،

ولما كانت الزراعة ومستلزماتها تحتاج الى التعاون ، فقد انتظم الأفراد فى قبائل تخضع لنظام خاص ، وعاشوا عيشة استقرار ، فشيّدوا المساكن ، وصنعوا الأوانى من الفخار ، لحفظ طعامهم وشرابهم ، ونسجوا المنسوجات ليصنعوا منها ملابسهم ، كما صنعوا آلاتهم من الصوان ، فكانت أجمل من سابقتها شكلا وأحسن صقلا . وكان لكل قبيلة شعار أو رمز اختارته مما يحيط بها من حيوان أو نبات أو غيرهما : كالنحلة والصقر والبردى ، يلتف حوله أفرادها وينتسبون إليه ، ويعبدونه . ثم اجتمع عدد من القبائل فى منطقة واحدة وأحاطوها بسور ، فتكوّنت بذلك القرى والمدن ، التى انتشرت فى الدلتا



آلات من العصر الحجرى الحديث

وإقليم الفيوم وعلى حافتى الوادى بمصر الوسطى والعليا : كمنطقة المعادى وحلوان ، والبدارى بمديرية أسيوط ، ونقاده بمديرية قنا ؛ وكانت كل قرية من هذه القرى تعيش فى عزلة عن غيرها . ومن بقايا تلك القرى والقبور تمكن الباحثون من كشف كثير من أسرار هذا العصر ، الذى أطلق عليه العصر الحجرى الحديث .

المساكن :

وكانت مساكن المصريين فى هذا العصر بسيطة للغاية ، تبنى من جذوع الأشجار وأغصانها ، ويطلى سطحها الخارجى بالطين ، وكان شكلها بيضياً فى الغالب أو مستطيلا ، ويتجه بابها جهة الجنوب ، ليكون سكانها فى مأمن من ريح الشمال ، وخاصة فى فصل الشتاء البارد . وكان يقام عند مدخل كل بيت من هذه البيوت موقد محفور فى الأرض أو مبنى بالحجارة والصلصال ، وبجوار الموقد كانت توضع قدور مختلفة الأحجام، يحفظ الماء فى بعضها، وتخزن الغلال وأنواع الطعام فى البعض الآخر .



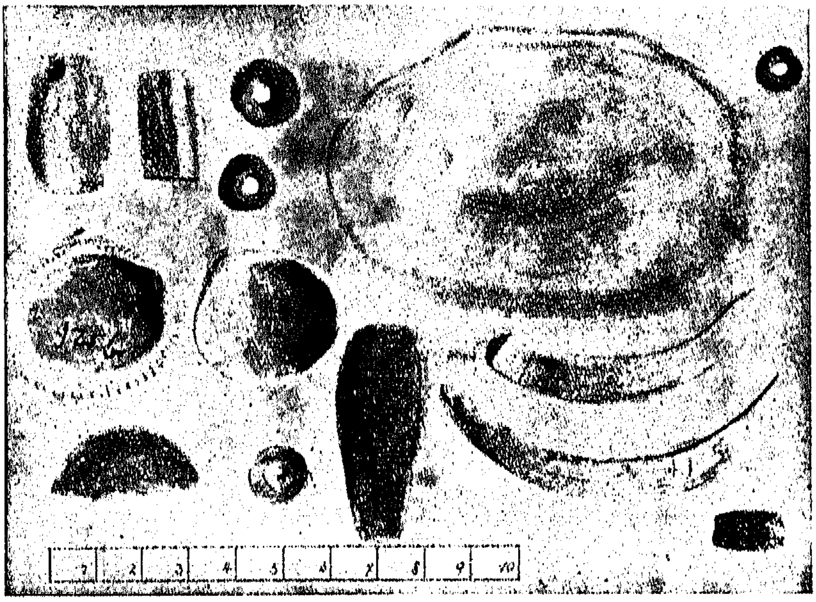
قدر كبير لخزن الأشياء

الملابس :

وكان الإنسان يلتحف أحيانا جلود الحيوان أو يصنع منها لباسا قصيرا ، كما كان ينسج بعض الملابس من شعر الحيوان وصوفه أو من الألياف .

أدوات الزينة :

وقد استعملت المرأة المصرية فى ذلك العصر الألوان للزينة ، فكانت تكتحل بمادة خضراء ، وتصبغ خدّيها وشفتيها بمادة حمراء، وحاجبيها بمادة سوداء .



بعض أدوات الزينة

وتُمَشِّطُ شعرها بأمشاط من قرون الحيوان أو العاج ، وتُزَيِّنُ صدرها بعقود من الخرز أو العقيق أو الأصداف أو سن الخنزير أو قشور بيض النعام ، وتحلى يديها بالأساور ، وأذنيها بالأقراط المصنوعة من الحجر أو البلور أو العقيق .

صناعة الأوانى :

ولقد أجاد سكان مصر فى ذلك العصر صنع الأوانى من الفخار بأيديهم [1] بأشكال وألوان مختلفة ، فمنها المستدير الأسود، والمستطيل الأحمر، أو المائل إلى

(١) تعرف عجلة الفخارى إلا فى العصر التاريخى .

البياض والاصفرار ، أو المصنوع على هيئة الطير أو الحيوان ، وكلها دقيقة الصنع فائقة الجمال .

وظهرت مهارة سكان مصر الأول فى قطع الصخور الصلبة وتشكيلها وصقل سطحها ، فصنعوا الآنية الجميلة الشكل من أحجار البازلت والمرمر وغيرهما من الأحجار التى يصعب نحتها ، وكانوا يصنعون من الصوان بعض آلاتهم : كالمُدَى والمناجل والمثاقب ورؤوس السهام والفؤوس والدبابيس ، ويصنعون البعض الآخر من عظم الحيوان أو من الخشب : كالملاعق وأغطية القدور .



آنية من صخر البازلت الأسود ، ووعاء صغير من المرمر

الزراعة :

وكانت الزراعة أهم ما اشتغل به أكثر سكان مصر ، وخاصة أهل الشمال ، وقد أغرتهم بمزاولتها خصوبة التربة التى سببها مايجلبه النيل من غرين كل عام ، كذلك استأنس المصريون فى هـذا العصر بعض الحيوانات : كالثيران ، والغنم والماعز ، والخنزير ، الذى كثر فى الوجه البحرى .

التجارة :

ولا شك أن المصريين فى نهاية ذلك العصر اشتغلوا بقليل من التجارة مع البلاد المجاورة ، وكانت لهم سفن تسير فى النيل وعلى كل منها علم الإمارة التى كانت تتبعها ، والتى كانت مصر حينذاك تضم كثيرا منها .

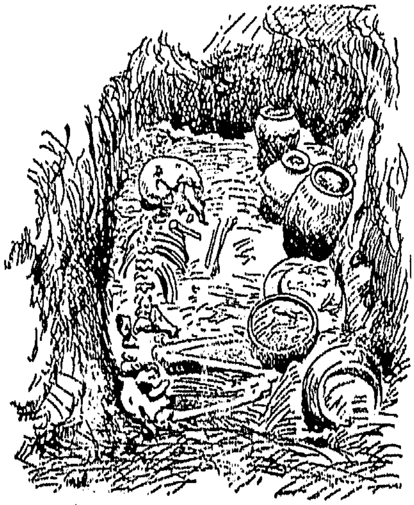


قدر عليها رسم قارب من العصر السابق للأسرات

عادات الدفن :

وكان من عادة المصريين الأوائل أن يدفنوا موتاهم فى حفرة مستديرة الشكل أو مستطيلة ، فيضعوا الجثة فيها على جانبها الأيسر ، ويجعلوا الرأس تجاه الجنوب والوجه تجاه الغرب ، والركبتين قريبتين من الصدر ، واليدين أمام الوجه ، (كالجنين فى بطن أمه) ، وكانت توضع بجانبها أغلى مقتنيات الميت فى حياته ، من أوان تحوى الطعام والشراب وأدوات الزينة والآلات ، وكان يوجد بجانبها أحيانا موقد للتدفئة ، وذلك لاعتقادهم أن للإنسان حاجات فى مماته ، كما له فى حياته ، وأن موت الجسد ليس معناه نهاية المرء بل معناه الانتقال من حياة إلى حياة ، ومن المحتمل أن كثيراً من هذه المقابر لم يكن مسقوفا بل مغموراً بالرمال إلى

مستوى سطح الصحراء ، ومنها ما كان مغطى بسقف من الخشب أو البوص تعلوه طبقة من الطين .



قبر من العصر السابق للأسرات

اللغة والكتابة :

أما لغة سكان مصر قبل التاريخ فمن المحتمل جدا أنها هى نفس اللغة التى كانت شائعة فى عصر الأسرات ، إذ ليس من الممكن أن تظهر لغة جديدة بغأة فى الأسرة الأولى، بل لابد أنها كانت موجودة قبل ذلك بزمن بعيد،وكان المصرى أول من سجل أفكاره وخواطره، فاخترع بذلك الكتابة المعروفة بالهيروغليفية .

٣ — عصر المعادن

وقبل أن ينتهى العصر الحجرى الحديث، دخل سكان مصر فى آخر مرحلة من أولى مراحل تقدمهم فى سبيل الحضارة ، وهى عصر المعادن السابق للأسرات فاستطاعوا أن يصنعوا بعض الآلات من النحاس ، الذى كشفوه فى شبه جزيرة سيناء ، حوالى عام ٤٠٠٠ ق.م.(على أقل تقدير) ، وساروا بالبلاد فى طريق الرقى بخطوات واسعة، ولا يزال البحث العلمى يكشف لنا أسرارًا كثيرة عن هؤلاء القوم الذين يمكننا أن نتتبع حوادثهم فى مقابر البدارى، بمديرية أسيوط .

الدلتا أقدم حضارة من الصعيد

وقد اعتقد الناس إلى وقت قريب أن الحضارات المصرية الأولى نشأت فى الوجه القبلى ، ثم انتقلت شمالا إلى الوجه البحرى ، ومما قوّى هذه العقيدة عندهم أن كل ما عثر عليه الباحثون من بقايا سكان مصر قبل التاريخ وجد بالصعيد ، وأن أهل الوجه القبلى استطاعوا فى نهاية ذلك العصر أن يضموا الوجه البحرى إليهم ويكوِّنوا من الوجهين مملكة متحدة .

ولكن أثبت فساد هذا الرأى ما كشف عنه البحث أخيرا من آثار الإنسان الأول فى منطقة المعادى شرقى النيل ، وفى مَرِمْدَة (بأراضى بنى سلامة ، بمركز امبابة بمديرية الجيزة) ، على بعد خمسين كيلومترا من القاهرة ، وكان طمى النيل يغمر تلك الآثار فبقيت مجهولة زمنا طويلا ، وأصبح مما لاجدال فيه أن سكان الوجه البحرى كانوا أقدم حضارة من سكان الصعيد ، وساعدهم على ذلك اتساع أراضيهم الزراعية ومراعيهم ، واعتدال مناخهم ، واتصالهم بالبحر ، وما يتبع ذلك من مختلف المؤثرات .

والأدلة متوفرة الآن على أن سكان الوجه البحرى وصلوا الى درجة عظيمة من التقدم فى العلوم والفنون ، ومما يسجل لهم بالفخر أنهم كانوا أول من أرَّخوا الحوادث تاريخا تقريبيا ، ووضعوا لذلك تقويما قسموا به السنة إلى أثنى عشر شهرا ، والشهر إلى ثلاثين يوما ، ثم أضافوا خمسة أيام فى نهاية السنة ، جعلوها أعيادا يتقدّمون فيها الى الآلهة بالعبادة .

كما أنه ثبت أن اتحاد الوجهين القبلى والبحرى تمَّ لأول مرة ، فى عصر ما قبل التاريخ ، بزعامة أهل الشمال ، كذلك كانت مدن الدلتا وقراها أوسع مساحة وأكثر سكانا وأفضل نظاما من مدن الوجه القبلى وقراه .

مدة عصر ما قبل التاريخ

يصعب على المؤرخ أن يحدّد تاريخا مضبوطا لبدء عصر ما قبل التاريخ فى مصر ، لهذا يكتفى أن نقرر أنه بدأ منذ ظهر الإنسان لأول مرة على أرض هذه البلاد ، ومن المؤرخين من يفرض لذلك تاريخا يرجع الى سنة ١٠٠و٠٠٠ ق . م ،

أما انتهاء ذلك العصر فمن المستطاع تحديد تاريخه بحوالى سنة ٣,٢٠٠ ق . م ؛ أى حيث يبدأ التاريخ .

الفصل الثالث

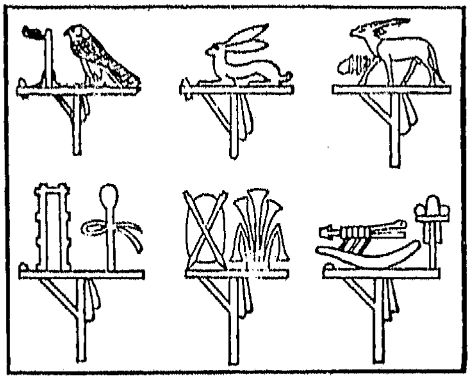
عصر ملوك طينة

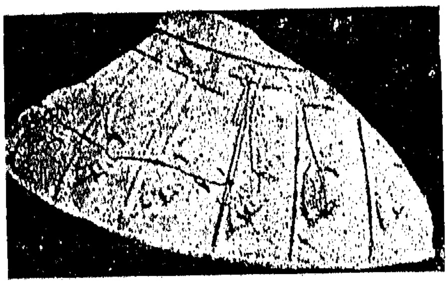
٣١٩٧ — ٢٧٧٨ ق . م [١]

اتحاد مصر

اتحاد الأمارات :

عاش المصريون الأوائل حينا من الدهر على هيئة قبائل متنقلة كل منها فى عزلة عن الأخرى ، ولكل منها شعارها الخاص ، كالنحلة أو الصقر ، ينتسب أفرادها إليه ويلتفون حوله ، فلما توافرت لديهم أسباب استقرار الحياة واضطروا إلى التعاون للمصلحة المشتركة ، انضم بعضهم إلى بعض وألّفوا إمارات صغيرة مستقلة ، ألقى كل منها مقاليد أمورها إلى يد رئيس يرأسها ، وجعلت لها رمزًا خاصًا أو معبودًا أو (طوطمًا) اعتبرته ربها وحاميها .





فى الشكل العلوى مجموعة من الطواطم . وفى الشكل الأسفل لوحة لأحد ملوك الأسرة الأولى عليها طواطم أيضا

---

(١) كل هذه التواريخ تقريبية حتى سنة ٥٢٥ ق . م .

مملكتا الشمال والجنوب :

ولما زادت مطالب الحياة بمرور الأيام ، أصبح من الضرورى توسيع دائرة التعاون والاتحاد ، فانضمت تلك الأمارات بعضها إلى بعض وكونت مملكتين منفصلتين : إحداهما فى الشمال ، ولها ملك يلبس تاجاً أحمر ، ورمزها نبات اللوتس الذى يكثر فى المستنقعات ، وعاصمتها مدينة بوطو ، وهى التى تعرف اليوم باسم إبطو ، إحدى قرى مركز دسوق بمديرية الغربيـة . والأخرى فى الجنوب وعلى رأسها ملك يلبس تاجاً أبيض ، وشعارها نبات البردى ، وعاصمتها مدينة نخب (عزبة الكاب بأراضى ناحية الجخز بمركز إدفو) ، ولها ضاحية على الضفة الغربية من النهر اسمها نخن وهى التى سمّاها اليونان فيما بعد هيراكونبوليس ، وتقع على بعد ست عشرة كيلومتر إلى الشمال من مدينة إدفو .

وكان لكل من هاتين العاصمتين معبود خاص يرعاها ويدرأ عنها الأخطار : فمعبود بوطو كان يرمز له بأفعى تسمى بوطو ، ومعبود نخب يرمز له بطائر يشبه النسر . وقد عُبد المعبود حوريس (ورمز له بالصقر) فى كل من هاتين العاصمتين .

وكان ملوك هاتين المملكتين يلقبون بخدام حوريس ، وقد صبغهم المصريون بصبغة دينية ، إذ اعتقدوا أن أرواحهم بعد الموت تكون واسطة بين الناس والآلهة . وبمرور الزمن اعتُبر هؤلاء الملوك أشباه آلهة ، ومن هـذا يمكن أن نتصور مدى ما كان لملوك هاتين المملكتين من نفوذ وسلطان .

توحيد المملـكتين :

دلّت الأبحاث الحديثة ، فى هيراكونبوليس ، على أن بعض ملوك عصر ما قبل الأسرات حاولوا توحيـد مملكتى الشمال والجنوب ، وكان أول من فعل ذلك ملك من الوجه البحرى تُكلّل مسعاه بالنجاح ، حوالى سـنة ٤٢٤٥ ق.م . ولكن التنافس بين المملكتين كان شديدًا فلم يدم هذا الاتحاد زمناً طويلاً . وبعد ألف سنة تقريبا ، قام حاكم من حكام الوجه القبلى ، وكان سياسيًا محنكاً ، وقائداً قديراً ، فغزا

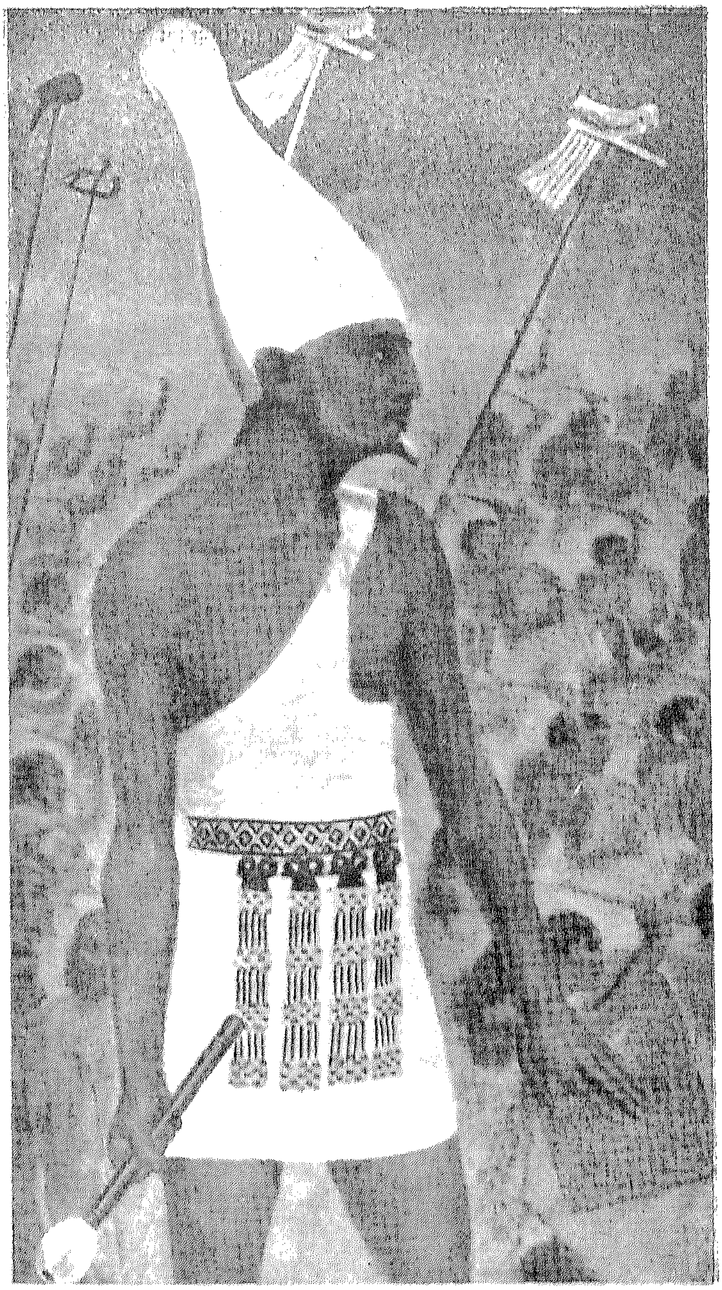
الوجه البحرى وانتصر على سكانه ، وكوّن منه ومن الوجه القبلى دولة واحدة تدين له بالولاء والطاعة ، وسمّى نفسه ملك الوجهين ، وأخذ الملوك بمرور الزمن يضعون فوق جباههم أفعى ، وهى معبود المملكة الشمالية ، مشيرين بذلك إلى بسط نفوذهم على الدلتا .



أحد وجهى لوح نارمر

لوح نارمر :

وقد ثبت أن هذا الاندماج تم على يد ملك يسمى نارمر ؛ إذ عثر على لوح كبير من حجر الإردواز فى هيراكونبوليس ، وهو محفوظ اليوم بالمتحف المصرى ، نقش على أحد وجهيه رسم يمثل الملك نارمر واقفاً وعلى رأسه تاج الوجه القبلى الأبيض ، يمسك بيده اليمنى صو لجاناً ، و يقبض بيده اليسرى على ناصية أسير من الأسرى ؛ ربما كان من سكان الدلتا أو من شبه جزيرة سيناء ، وأمامه حوريس معبود القبيلة ، واقفا فوق رأس أسير ، وتحت رجليه عبارة تدل على أن عدد الأسرى ستة آلاف ، وفى أسفل هذا الوجه من اللوح رسم أسيرين يتأهبان للهروب من



الملك نارمر فى شبابه

قلعة. أما الوجه الآخر، وهو الأهم من الناحية التاريخية، فقد نقشت عليه صورة الملك متوجا بالتاج الأحمر الخاص بالوجه البحرى، وأمامه أعلام القبائل التى اتحدت معه يتقدمها علم القبيلة التى وحّدت المملكة، وبجانب تلك الأعلام جثث فُصِلت عنها رءوسها، وفى أسفل اللوح رسم يمثل الملك على هيئة ثور كاسر يفتك بالعدو ويهدم الحصون.



الوجه الآخر من لوح نارمر

الملك نارمر "مينا"

فهذا اللوح يدل دلالة واضحة على أن اتحاد الوجهين البحرى والقبلى اتحادا نهائيا إنما يرجع الفضل فيه إلى نارمر. ويحتمل أن يكون نارمر هو مينا، الذى ذكره مانيتون المؤرّخ المصرى، الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد.

مدينة منف :

ولقد نسب مانيتون إلى مينا أعمالا كثيرة ، يصعب تصديقها ، من ذلك أنه بعد نجاحه فى توحيد الوجهين ، البحرى والقبلى ، رأى ما للموضع الذى توجد به بلدتا ميت رهينة والبدرشين من الأهمية الحربية ، إذ أنه حد طبيعى بين مصر العليا ومصر السفلى ، لحول مجرى النيل من الجبل الغربى إلى مجراه الحالى ، ثم بنى فى الفضاء الذى تخلف عن ذلك مدينة جديدة أحاطها بجدار أبيض ، فعرفت بمدينة الجدار الأبيض ، وهى التى أطلق عليها فيما بعد منف أو ممفيس .

ويكاد يكون من المستحيل أن تبدأ هذه الأعمال كلها وتنتهى فى عهد ملك واحد .

ومهما يكن من شىء فالراجح أن ملوك الأسرتين الأوليين لم يتخذوا مقرهم فى منف ، بل ظلت هذه المدينة فى الشمال بمثابة قلعة حصينة لهم تشرف على الدلتا وتخرج منها الحملات الحربية ضد الليبيين ، الذين يهددون الحدود الغربية لمصر السفلى وظل أولئك الملوك يحكمون المملكتين من مدينة طينة ، ومحلها الآن قرية البربا على مقربة من مدينة جرجا ، ولذلك يعرف عصرهم بعصر ملوك طينة

ملوك الأسرة الأولى بعد اتحاد المملكتين

أعمالهم الداخلية :

بعد أن تم اتحاد المملكتين ، تولى حكم مصر ملوك عملوا على تقوية اتحاد البلاد بجميع الوسائل ، وعنوا بالفنون والعلوم عناية فائقة ، وأرسلوا الحملات إلى الصحراء الشرقية لاستخراج المعادن منها .

وقد كشف البحث أخيراً عن أثر له أهمية من الوجهة الاقتصادية ، إذ وجد اسم أحد ملوك الأسرة الأولى منقوشاً على صخرة فى الصحراء الشرقية ، بالقرب من مدينة ادفو ، فى طريق القوافل بين النيل والبحر الأحمر ، وكان الاعتقاد السائد

قبل ذلك أن البدو وحدهم هم الذين استعملوا هذا الطريق منذ العصور المتوغلة فى القدم، ولكن ورود اسم هذا الملك منقوشًا فى تلك الجهة أثبت فساد هذا الرأى، ودلّ على أن المصريين فى عهد ملوك طينة أرسلوا الحملات إلى الصحراء الشرقية لاستغلال المحاجر والمناجم التى هى الثروة الوحيدة لتلك الصحراء.

وعنى ملوك ذلك العصر بتحصين البلاد تحصينا منيعا ضد الغارات الأجنبية وكان للحفلات الدينية نصيب وافر من اهتمامهم وعنايتهم.

أعمالهم الخارجية:

ولم يكن هؤلاء الملوك أقل عناية بالشئون الخارجية فقد تعددت غزواتهم لبلاد النوبة، وأخضعوها لسطانهم، ودانت لهم منطقة ما بين السلسلة وأسوان فزاد بذلك اتحاد وادى النيل. كذلك امتد نفوذهم إلى ليبيا واضطروا أهلها إلى دفع الجزية لمصر.

وصفوة القول أن ملوك الأسرة الأولى بذلوا جهودا جبارة فى سبيل إتمام وحدة البلاد وتقويتها وتوسيع رقعتها، فمهدوا بعملهم هذا لسعادتها ورفاهيتها فى مستقبل أيامها.

الأسرة الثانية

ما لبثت الوِحْدَة التى مكّن لها ملوك الأسرة الأولى أن تفككت فى عهد ملوك الأسرة الثانية، وكان ذلك نتيجة للنزاع الذى قام بين سكان الدلتا وسكان الصعيد والذى سبّب حروبا كثيرة أريقت فيها الدماء، وأدّى ذلك إلى عدم قيام ملوكها الأول بأعمال تذكر. واستمرت الحال على ذلك حينا من الدهر إلى أن استطاع آخر ملوك هذه الأسرة أن يعيد المياه إلى مجاريها، ويَرُدّ أهل الشمال إلى الطاعة والولاء.

وقد استمر حكم الأسرة الأولى مائتى عام، وحكم الأسرة الثانية مائتين وعشرين عاما.

الفصل الرابع

الحضارة فى عصر ملوك طينة

الحكومة العليا :

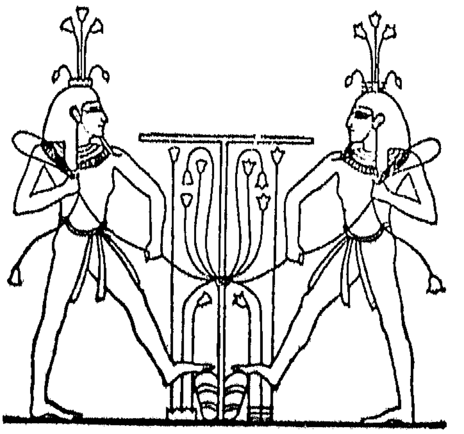
كان الملك يعيش فى قصر على ربوة ، يشرف منه على رعاياه ، ولذلك عرّف المصريون القدماء قصره باسم ”برعو“ أى البيت العالى؛ ويرجح أن لفظ ”فرعون“ ومعناه صاحب البيت العالى اشتق من ذلك الإسم . وكان لهذا القصر بابان عظيمان يمثلان الملكية المزدوجة (الصعيد والدلتا) ، وكانت الملكية فى ذلك العصر مُطْلَقَةً أساسها قدسية الملك ، الذى كان يعتبر الإله الرئيسى للملكة وبيده كل شىء . ولكن لما كثرت أعماله اضطر إلى أن يتنازل عن بعضها لرجال يعتقد فيهم الإخلاص له ، فكان يساعده مستشاران : أحدهما للوجه القبلى ، والثانى للوجه البحرى ، وكانت لهما خزانة مزدوجة ، للصعيد والدلتا . على أن تجزئة إدارة مصر بين الوجهين لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية ، وإنما فعل المصريون ذلك احتراما للقديم الراسخ فى الأذهان .

وكان يتبع الإدارة المركزية مكتب يسمى مكتب السجلات الملكية ، تحفظ فيه أخبار الحكم سنة بعد أخرى مكتوبة على ألواح من العاج أو غيره .

حفلة التتويج :

ولقد كان من آثار توحيد الوجهين فى ذلك العصر أن عُنِىَ الملوك بحفلة التتويج التى استمرت معمولا بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، وتتلخص هذه الحفلة فى أن الملك كان يدخل قاعة فسيحة بقصر ممفيس ، ثم يصعد إلى منبر عليه كرسى العرش ، حيث يجلس وبيده عصا تشبه عصا الراعى ، ثم يقف أمام الشعب ويتوّج بتاج الوجه القبلى ، وبعدئذ يسير إلى كرسى آخر يجلس عليه ، ثم يقف مرة أخرى ويتوّج بتاج الوجه البحرى ، وتتلى آيات دينية يلقب فيها الملك بحوريس الحى ، وبعد هذا يقدّم الكاهن للملك قطعة من الخشب تدلت من أحد طرفيها زهرة

اللوتس (رمز الوجه البحرى) ومن الطرف الآخر نبات البردى (رمز الوجه القبلى). فيشد الزهرة من اليمين كاهن ، كما يشد النبات من اليسار آخر ، حتى يصلا إلى قاعدة التاج ، وفى هذا إشارة إلى اتحاد الوجهين فى ظل التاج ، ثم يقف الملك ويدور حول الجدار الأبيض ، الذى بنى فى منف مُطِلًّا على الدلتا وعلى الصعيد .



شد زهرتى اللوتس والبردى

كذلك عُنى ملوك هذا العصر بالحفلات الدينية الأخرى ، التى كانوا يقيمونها للآلهة .

الحكومة المحلية :

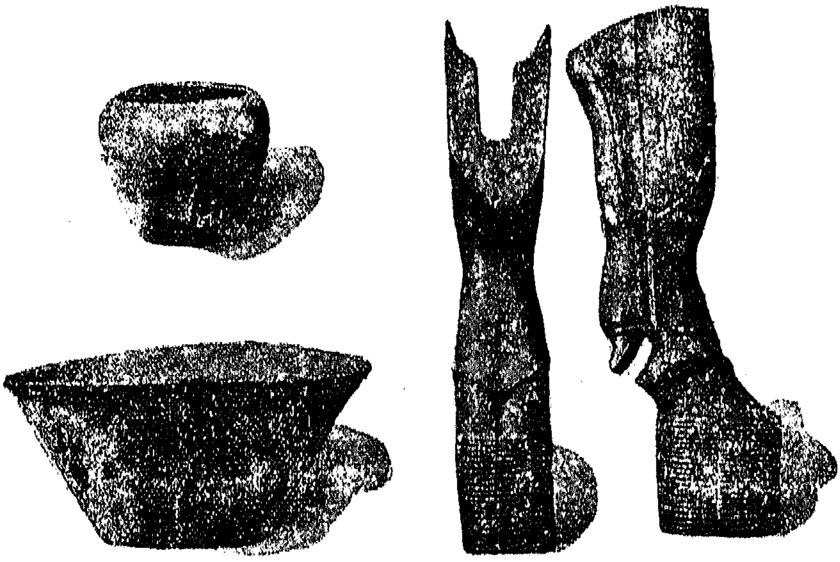
كانت حكومة البلاد المحلية فى يد إدارات تشرف عليها الحكومة العليا ، وكان حاكم الولاية يتمتع بسلطة كبيرة داخل حدود ولايته : إذ كان مديرا ، وكاهنا أكبر وجابيا للضرائب ، يعنى عناية خاصة بالزراعة ووسائل الرى ، كما كان قاضيا ، يوزع العدل بين الرعية ؛ وقد قام فى عاصمة كل ولاية محكمة مهمتها النظر فى المسائل القانونية .

وكان الأمراء يتوارثون الحكم فى ولاياتهم بعد موافقة الملك .

الفنون :

تقدمت العمارة فى ذلك العصر تقدّما ظهر أثره فى بناء القبور ، إذ أصبح القبر عبارة عن حجرة مستطيلة ، مبنية بالطوب والخشب ، تحيط بها حجرات صغيرة توضع بها القرابين التى تقدّم للميت ، وتغطى المقبرة بالطين والطوب والخشب . و بنيت المقابر من الحجر لأول مرة ، فى أواخر عهد الأسرة الأولى ، ورصفت أرضها بالجرانيت .

وفى هذا العصر برع المصريون فى نحت التماثيل من البازلت والمرمر والأحجار الصلبة الأخرى ، وكذلك فى صنع الأوانى وصقلها ، وفى فن الزخرفة والصياغة التى تجلت فيما كشف من أثاث وحلى فى مقابر ملوكها .



أرجل كراسى مصنوعة من العاج وأوان مرمرية وأخرى نحاسية
يرجع تاريخها الى عهد الأسرة الأولى

علاقات مصر بالبلاد المجاورة :

اختلطت مصر منذ ذلك العهد ببعض الأمم المجاورة : مثل سوريا وفلسطين فعثر على بقايا آثار مصرية فى مدينة قديمة بفينيقيا، تسمى ببلوس (جبيل)، ومن هذه الآثار : خاتم مستطيل الشكل عليه ألقاب لبعض كبار الموظفين فى الأسرة الثانية ؛ كذلك وجد فى بعض مقابر ملوك هاتين الأسرتين قطع من الخزف المزخرف بخطوط بيضاء، دلت على وجود علاقات بين المصريين وبين سكان جزيرة كريت فى ذلك الوقت . ويلاحظ أن علاقات المصريين مع تلك البلاد المجاورة كانت علاقات تجارية منظمة، ولم تكن قائمة على هجرة القبائل المتنقلة، كما كانت الحال قبل زمن الأسرات .

وقصارى القول أن مصر بلغت، فى عهد الأسرتين الأولى والثانية، منزلة رفيعة من الحضارة والرقى .



آنية من الفخار من النوع الأسود المصقول فى أعلى والنوع الأحمر فى أسفل

الباب الثاني

الدولة القديمة

(٢٧٧٨ — ٢٤٢٣ ق.م.)

الفصل الأول

عصر بنـاة الأهرام

تمهيد :

ظل ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة يتمتعون بمـا كان لملوك الأسرتين الأولى والثانية من نفوذ مطلق ، حتى وصلوا إلى أقصى درجة من الجبروت ، وقـد تجلّت قوّتهم فى إقامة الأهرام الكثيرة ، ممـا دعا إلى تسمية هذا العصر "عصر بنـاة الأهرام" .

الأسرة الثـالثة

الملك زوسر

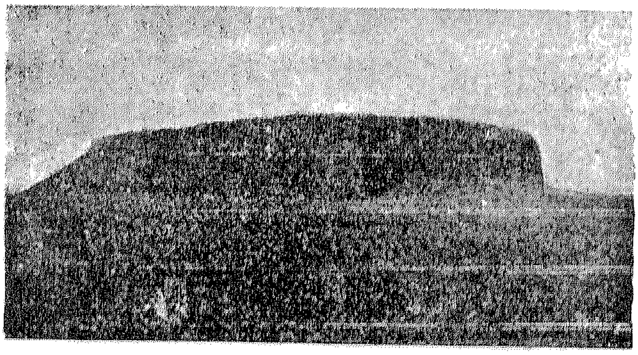
أعماله الداخلية :

أسس "الملك زوسر" الأسرة الثالثة، وكان أعظم ملوكها . عاش فى ضواحى أبيدوس، وبنى لنفسه بالقرب منها مقبرة (بأراضى ناحية بيت خلاف، بمركز جرجا) على شكل مصطبة من الطوب ، كبيرة الحجم ، بهـا سرداب منحدر يؤدى إلى اثنتى عشرة حجرة .

وبعد مدّة من الزمن رأى زوسر أن ينقل عاصمة مُلكه إلى مدينة الجدار الأبيض (منف أو ممفيس) ، وذلك لأهمية موقعها .



تمثال الملك زوسر



مصطبة زوسر بأراضى ناحية بيت خلّاف وهى من اللِّبن

هرم سقارة المدرج :

وبنى بالقرب منها فى بلدة سقارة، بالجبل الغربى، مقبرة من الحجر، على نسق مصطبته العظيمة ببيت خلّاف، ثم زاد حجم هذه المقبرة تدريجًا، ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض، كل منها أصغر مما تحتها حجما، فتكوّن من هذه المصاطب الست هرم سقارة المدرّج، الذى يبلغ ارتفاعه ستين مترا تقريبا، وكانت تكسوه طبقة من الحجر الجيرى الدقيق ، وأنشئت بداخله أبهاء وممرات مغطاة بالقيشانى الأزرق والأخضر مكتوب عليها اسم الملك وألقابه ، وتلتقى جميع هذه الممرات عند زلّاقة عظيمة يوجد فى قاعها مخبأ ، كانت توضع فيه جثة الملك .

وهـذا الهرم أول بناء حجرى كبير عرفه التاريخ ، ويدل بناؤه على تقدّم فن العمارة تقدّما محسوسا فى ذلك العصر ، إذ أنه خطوة الانتقال من المصاطب التى بناها الملوك الأول الى الأهرام الكاملة التى أقامها ملوك الأسرة التالية .



هرم سقارة المدرّج

ولقد كشف البحث أخيراً عن أسوار من الحجر تحيط بأرض مساحتها نحو أربعين فدانا حول هرم زوسر ، كانت تقام فيها الصلوات وتقدّم القرابين للملك ، وهذه الأسوار على شكل أبراج ذات أعمدة جميلة الشكل بعضها مضلع والآخر مزخرف .

أعمال زوسر الخارجية :

استغل زوسر كأسلافه مناجم شبه جزيرة سيناء واستخرج النحاس منها ، إذ وجد اسمه منقوشا فى وادى مغارة ، وأرسل حملات الى بلاد النوبة ، ومدّ حدود المملكة المصرية جنوبا حتى جاوزت الشلال الأول .

ولقد اعتمد زوسر فى جميع أعماله على وزير قدير هو إمحوتب .

الوزير الحكيم إمحوتب

اختياره للوزارة :

عُرف إمحوتب بغزارة علمه ، وذكائه الوقاد ، وشخصيته البارزة ، وحسن سياسته فاختاره الملك وزيرا له . وكان لمنصب الوزير فى تلك العهود خطره ومسئوليته ، إذ كان يشرف على جميع أعمال الدولة ، من تشريع ، ومالية ، ودفاع ، وزراعة ، وغير ذلك من الشئون الداخلية .

إمحوتب والمجاعة :

ويروى أنه حدثت فى عهد وزارة أمحوتب مجاعة عمّت البلاد وأهلكت الحرث والنسل ، وكان سببها انخفاض النيل سبع سنوات متواليات ، أظهر فيها أمحوتب عظيم إخلاصه للملك والأمة ، مما قوّى ثقة الملك به ، وزاد حب الشعب له .

إمحوتب رئيس الكهنة :

شغل أمحوتب فوق ذلك وظيفة رئيس الكهنة ، ومهمته : القيام بخدمة الآلهة فى المعبد ، وتلاوة الصلوات من الكتب المقدّسة ، ورياسة الحفلات الدينية .

حكمة أمحوتب ومهارته فى الهندسة والفلك :

وكان أمحوتب من أكبر حكماء عصره ، ولقد ظلت حكمته مضرب الأمثال عدّة قرون .

كما كان مهندسا قديرا ، فهو الذى وضع تصميم الهرم المدّرج فى سقاره . وولع بالفلك والتنجيم ، وذلك لاعتقاده كغيره من رجال عصره ، فى تأثير الأجرام السماوية فى حياة الانسان .



تمثال لأمحوتب

أمحوتب إله الطب :

وذاع صيت أمحوتب كساحر وطبيب ، إذ كان السحر فى تلك العصور أساسا للطب ومداواة المرضى ، ولمهارته فى فنه عينه الملك زوسر طبيبا خاصا له .

هكذا كانت حياة أمحوتب سلسلة من جلائل الأعمال ، جعلت المصريين يعجبون به كثيرا ويحترمونه احتراما وصل بهم فى النهاية إلى أن وضعوه فى مصاف الآلهة بعد وفاته ، وأقاموا له المعابد والتماثيل ، وكان المرضى يحجون إلى قبره. و بعد قرون عدة اعتبره اليونان إلها للطب .

خلفاء زوسر

أما باقى ملوك الأسرة الثالثة الذين خلفوا زوسر على عرش مصر فلا يعرف إلا القليل عن تاريخهم .

الأسرة الرابعة

(٢٧٢٣ — ٢٥٦٣ ق . م .)

مما لا ريب فيه أن عصر الأسرة الرابعة يعتبر أزهى عصور الدولة القديمة ، إن لم يكن أزهى عصور التاريخ المصرى القديم بأسره، يؤيد ذلك فخامة مبانيه ودقتها ، وجمال تماثيله وروعتها .

الملك سنفرو

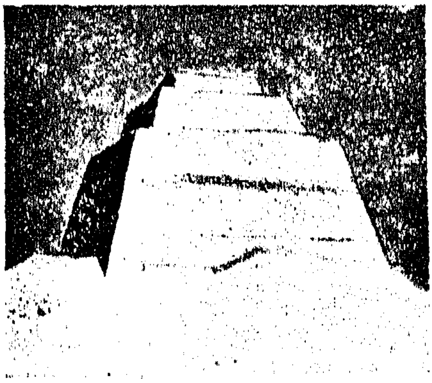
مؤسس الأسرة الرابعة :

وقد أسس هذه الأسرة الملك سنفرو ، الذى حكم البلاد أربعة وعشرين عاما قام فيها بأعمال عظيمة فى الداخل والخارج .

أعماله الداخلية :

عنى سنفرو عناية فائقة بتحصين مصر ، وتنظيم وسائل الدفاع عن حدودها الشرقية ، كما عنى بترقية التجارة فمهد لها الطرق ، وبنى السفن .

واهتم سنفرو بالعمارة فشيّد لنفسه مقبرة بالجبل الغربى ، بناحية ميدوم جنوبى سقارة ، تشبه هرم سقارة المدرج ويعرفها العامة اليوم باسم " الهرم الكذّاب " ، بسبب شكلها غير الكامل ، ولما قاربت الانتهاء ، بدأ فى بناء أخرى فى دهشور ، على شكل هرم كامل من الحجر المنحوت ، كساه طبقة من الحجر الجيرى الدقيق ، وعلى نمط هذا الهرم بنيت أهرام الجيزة .



هرم سنفرو فى ميدوم

أعماله الخارجية :

واصل سنفرو استخراج النحاس من سيناء، وأخضع بدو تلك الجهات، وسجل انتصاراته على صخورها، بعد أن وطّد سيادة مصر هناك، واعتبر فيما بعد المؤسس الحقيقى للنفوذ المصرى فى تلك الأقاليم ، كما أنه أرسل أسطولا بحرياً مكوّناً من أربعين سفينة إلى بلاد فينيقيا ، لاستحضار خشب الأرز من جبال لبنان ، واقتفى أثر زوسر ، فأغار على سكان النوبة الشمالية واستولى على غنائم كثيرة ، كما أرسل حملة إلى ليبيا عادت بأسلاب وفيرة .

الملك خوفو

خلف سنفرو بعد وفاته ابنه الملك خوفو ، الذى بلغت قوة الملكية فى عهده منتهاها ، فاستطاع أن يستخدمها فى عمل خلد اسمه على مرّ الأيام ، وجعله أظهر

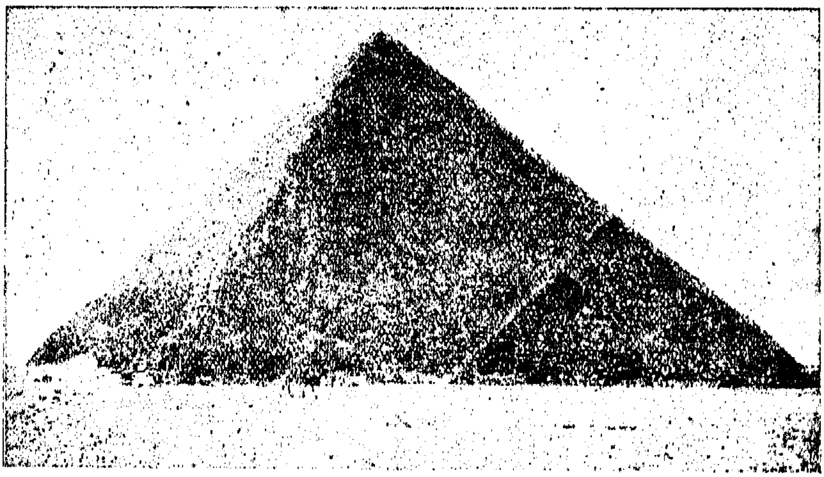


تمثال صغير من العاج للملك خوفو

اسم بين أسماء ملوك الشرق القديم ، ذلك هو بناء الهرم الأكبر الذى يعتبر معجزة من معجزات الدهر، لضخامة بنائه التى تبعث فى النفوس الرهبة، وجمال هندسته التى تبيّن مدى ما وصل إليه المصريون من تقدّم فى العلوم والفنون ، وتدل على ما عمّ البلاد فى ذلك العصر من ثروة ورخاء .

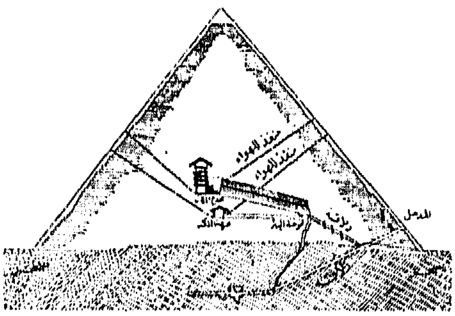
الهرم الأكبر :

بنى خوفو هذا الهرم على الشاطئ الغربى للنيل ، وعلى حافة صحراء ليبيا ، غربىّ مدينة الجيزة ، على أرض مساحتها ثلاثة عشر فدانا ، وجعل قاعدته مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها حوالى ٢٣٣ مترا ، وتتجه كل زاوية من زواياه إلى جهة من الجهات الأربع الأصلية ، وكان ارتفاعه عند بنائه ١٤٦ مترا ، صارت ١٣٧ مترا بعد أن تهدمت قمته . وقد استخدمت فى بنائه الأحجار الجيرية الصلبة الكبيرة الحجم التى تبلغ زنة كل منها طنين ونصف ، وجعل بين كل صخرة وأخرى طبقة رقيقة من المونة تكاد لا تراها العين المجردة ، مما جعل الهرم كله يظهر كصخرة واحدة . وكانت تغطى هذا الهرم طبقة من الجرانيت تعلوها أخرى من الحجر الجيرى المصقول ، وقد زال هذا الغطاء بمرور الزمن .



الهرم الأكبر

أما مدخل الهرم فيوجد فى الجهة البحرية منه على ارتفاع نحو خمسة عشر مترا من الأرض، يسده حجر تعلوه زلّاقة منحدرة طويلة، تصعد منها على بعد قليل من المدخل زلّاقة أخرى توصل إلى حجرة من الصوان المصقول بها تابوت الملك، وبها منفذان يخترقان الهرم إلى الخارج، وفوقها خمس غرف صغيرة بعضها فوق بعض، الغرض منها تخفيف ثقل البناء على سقف حجرة الملك، ويخرج من الزلّاقة الصاعدة، فى منتصفها تقريبا، سرداب أفقى يوصل إلى غرفة الملكة، وعند بدء هذا السرداب توجد فوهة بئر عميقة يُظَنّ أن الماء كان يؤخذ منها وقت انخفاض النيل .



الهرم الاكبر من الداخل

كيف بُنِيَ الهرم :

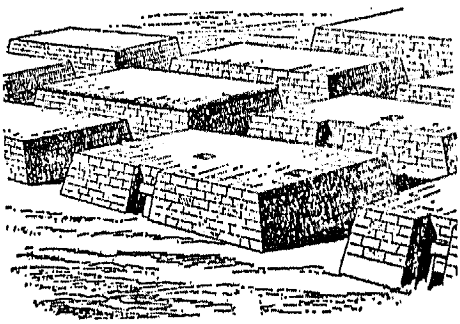
كانت الأحجار تنقل من محاجر طرة (١) ، على الضفة اليمنى للنيل، على زحّافات تجرها الثيران إلى النهر، حيث توضع فى سفن تعبر بها إلى الشاطئ الغربى، وهناك تُسحب فوق طريق منحدر شُيِّدَ بين مجرى النيل القديم ومكان الهرم، طوله ثمانمائة متر وعرضه سبعة وعشرون، وكلما علا البناء زيد فى ارتفاع الطريق الذى لا تزال آثاره باقية فى شرق الهرم إلى الآن .

وقد استخدم خوفو فى هذا العمل مائة ألف رجل كانوا يشتغلون ثلاثة أشهر كل عام، وقت فيضان النيل، وهو الوقت الذى تفيض فيه مياه النهر على الأرض ويقف دولاب العمل الزراعى .

---

(١) قطعت بعض الأحجار من منطقة الهرم نفسها

وقد بُنى أمام الهرم الأكبر ثلاثة أهرام صغيرة دفنت فيها زوجات الملك وأولاده تحيط بها مقابر الأمراء والحاشية ، على هيئة مصاطب مصفوفة تتخللها طرقات منظمة .



بنى الأمراء مقابرهم على هيئة مصاطب حول هرم مليكهم

أعمال خوفو الأخرى :

ومما لا شك فيه أن خوفو واصل البحث عن المعادن فى شبه جزيرة سيناء ، إذ أن اسمه وجد منقوشا على أحجار ذلك الإقليم . ويقال إنه لما كبرت سنه عين ابنه الأكبر وزيراً له وكبير قضاته ، كما عين ولديه الآخرين للإشراف على الأعمال الحكومية الأخرى .

وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن هذا الملك وعصره الزاهى ، فمن الميسور أن نقرر بلا تردّد أن هيبة الحكومة فى عهده كانت موفورة ، مما دعا إلى استتباب الأمن والنظام ، كما أن الرخاء كان شاملا ، مما ساعد على إطعام آلاف العمال وإيوائهم .

الملك خفرع

هرم الملك خفرع :

حكم مصر بعد وفاة خوفو بمدّة قصيرة [١] ابنه خفرع ، فاقتفى أثر أبيه فى بناء هرم لنفسه ، بالقرب من الهرم الأكبر ، ولكنه أقل إتقانا منه ، وعلى الرغم من

(١) يقال إن ددف ، الابن الأكبر لخوفو ، حكم ثمانى سنوات بعد أبيه مباشرة ، وله هرم فى "أبو رواش" .

أنه أقل حجما من سابقه فانه يظهر من بُعْـد أعلى منه ، وذلك لأنه بُنِىَ على جزء مرتفع من الهضبة . وقد كُسِيَتْ الجزء الأعلى من هذا الهرم طبقة من الحجر الجيرى لا تزال ظاهرة إلى اليوم ، أما جزؤه الأسفل فكان يُغَطِّيه الجرانيت .



تمثال للملك خفرع ، محفوظ بالمتحف المصرى

و يقع مدخل هذا الهرم فى الجهة البحرية ، على ارتفاع أحد عشر مترا تقريبا من الأرض ، و يؤدّى إلى دهليز طو يل منحدر يوصـــل إلى غرفة بها تابوت من الجرانيت دُفِنَ فيه الملك .

معبدا هرم خفرع :

كانت تبنى فى الجهة الشرقية من الأهرام معابد تقـام فيها الطقوس الجنازية للملك المتوفى ، ومن أهم تلك المعـابد وأقدسها معبدان بناهمـا خفرع ، يقع أحدهما على الهضبة إلى جوار هرمه ، ولهذا يعرف بالمعبد العلوى ، و يقع الآخر فى أسفل الوادى ، ولهذا يسمى بالمعبد السفلى أو معبد الوادى ، و يصل المعبدين طريق مرصوف يبلغ طوله حوالى خمسمائة متر (١) .

وكان المعبد العلوى خاصا بكبار الكهنة وأقارب الملك المتوفى ، وقد عُثِرَ فيه على تماثيل عديدة لخفرع ، أهمهـا تمثال مصنوع من حجر الديوريت الأخضر محفوظ الآن بالمتحف المصرى ، وقد دل نحته على براعة المصريين فى هذا الفن .

(١) أعد خفرع هذا الطريق فى الأصل لنقل الحجارة اللازمة لبناء هرمه

أما المعبد السفلى فكان يباح الدخول فيه للشعب فى أيام الأعياد الدينية والحفلات القومية ، وكان أيضا بمثابة رواق يطرقه قاصدو زيارة الهرم الوافدون فى سفنهم فى موسم الفيضان .



الهرم الأكبر إلى اليمين ، والهرم الثانى إلى اليسار ، والطريق الذى يصل بين معبديه

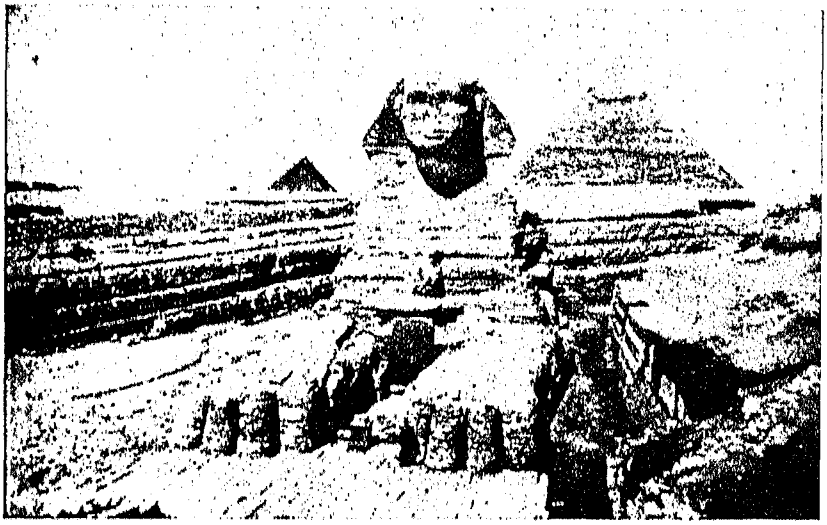
أبو الهول :

وإلى الشمال من هذا المعبد يوجد تمثال هائل ، منحوت من صخرة طبيعية واحدة على هيئة أسد رابض يمد مخالبه إلى الأمام على الرمل ، أما رأسه فرأس إنسان ، واسم هذا التمثال أبو الهول[1] ، وطوله سبعة وخمسون مترا ، وارتفاعه عشرون مترا ، وأما وجهه فطوله خمسة أمتار ، وعرضه أقل من ذلك بقليل ، وطول أذنه أكثر من متر ، وأنفه أقل من مترين ، وفمه متران وثلث متر .

وقد أصبح من المؤكد أن هذا التمثال يمثل الملك خفرع ، وهو بهذا الشكل الضخم يحرس مدخل المعبد القريب منه . ولقد اعتبر المصريون القدماء الأسد

(١) العرب هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم ، إما لأن منظره يبعث فى النفس الرعب ، أو لأنهم حرّفوا اسمه القبطى إلى "أبو الهول" .

حارساً للمعابد ، على أنهم منذ عهد الدولة الحديثة ، خلطوا هذا التمثال بإله من آلهتهم وجعلوه رمزًا للشمس المشرقة ، لاسيما وأنه وضع بحيث يستقبلها حين شروقها .



أبو الهول ، ويرى فى الخلف هرم خفرع إلى اليمين ، وهرم منقرع إلى اليسار

وكان أبو الهول فى أول الأمر جميل الصورة ، على رأسه تاج ، وعلى جبهته حية مقدسة (رمز الملكية) ، وله لحية ، ووجهه أحمر بلون وجه الإنسان الطبيعى فسقطت الحية واللحية ، وهما محفوظتان الآن بالمتحف البريطانى بلندن ، أما الوجه فقد محا الزمن لونه ، ولكنه على الرغم من كل ماحدث به ، ظل منظره يبعث فى النفس الرهبة ويشهد بعلو كعب المصريين فى الفنون .

الملك منقرع

هرم منقرع :

بعد وفاة خفرع ، خلفه الملك منقرع ، فشيّد لنفسه هرمًا أصغر كثيرا من الهرمين السابقين ، إذ يبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ثمانية ومائة متر ، وارتفاعه حوالى ستة وستين مترا ، أصبحت الآن اثنين وستين مترًا .

ويقع مدخل هذا الهرم فى الجهة البحرية ، على ارتفاع نحو أربعة أمتار من الأرض ، ويؤدى إلى دهليز هابط ، يمر بغرفة ، يسير بعدها أفقيا حتى يصل إلى غرفة أخرى وجد بها تابوت الملك ، المصنوع من الحجر والخشب ، وبداخله بقايا جثة بشرية ، وقد نقلت هذه الأشياء إلى المتحف البريطانى بلندن .



تمثال للملك منقرع وزوجه

وغُطى أسفل هذا الهرم بالجرانيت الأحمر ، أما باقى كسوته فمن الحجر الجيرى وكان يجاوره من الشرق معبد جنازى يمتد أمامه طريق يوصل إلى معبد آخر قائم بالوادى ، ويظهر أن الملك منقرع مات بغتة ، قبل أن يتم بناء الهرم والمعبدين ، ولهذا أتمهما من بعده خلفاؤه .

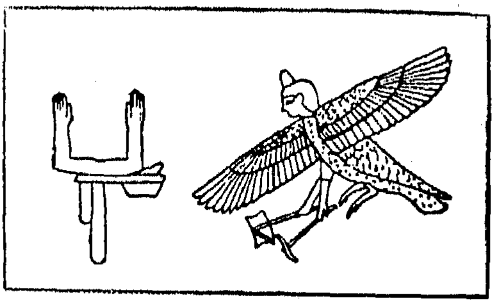
هرم آخر :

وقد كشفت البحوث الحديثة عن هرم آخر مبنى من الصخر ، على مقربة من هذا الهرم ، وأصغر منه حجما ، وعليه نقوش تدل على أن صاحبته هى الملكة خنت كاوس ، ابنة منقرع ..

الغرض من بناء الاهرام

١ — فكرة الخلود :

عُنِيَ المصريون بأمر موتاهم عناية فائقة ، فبذلوا عن سخاء فى إعداد مقابرهم وحفظ جثثهم سليمة ، وسبب ذلك عقيدتهم فى الخلود ، إذ كان الإنسان فى اعتبارهم مكوّنا من قوى عدّة ، لكل منها عملها ، فبجانب الجسم، وهو الجزء الظاهر من قوى الإنسان، يوجد القرين أو "الكا"،وهو شبح للإنسان، لا يمكن رؤيته، يشبه صاحبه تمام الشبه، ومثّلوه بشكل ذراعين مرفوعتين للتضرع والحماية ؛ وبجانب "الكا" يوجد "البا" أى الروح ، وتخيلوها على هيئة طائر رأسه رأس إنسان .



الروح والقرين كما تخيلهما المصريون القدماء.

وكانت هذه القوى فى اعتقادهم معرضة للفناء إذا أُهملت ، وإذا فنيت مات الشخص مرة أخرى وزال من الوجود نهائياً . وكانت حياة "الكا" متوقفة على بقاء الجسم سليما، ولذلك حنّط القدماء جثث الموتى ووضعوها فى قبور حصينة بعيدة عن عبث اللصوص ، وفى أماكن جافة ، بعيدة عن الرطوبة التى تحلل الأجسام ، وبجانب هذا أقاموا الصلاة وقدّموا القرابين ليحفظوا حياة "الكا" و"البا". وكان القرين لا يفارق الجسد فى القبر، أما الروح فكانت تصعد إلى الآلهة فى السماء ، ثم تهبط بين آونة وأخرى لزيارة الجسد .

وبما أن قدماء المصريين اعتبروا المقابر دورًا أبدية ، فإنهم نظّموها بالطريقة التى تتفق وفكرتهم عن الحياة المقبلة ، وجعلوها بحيث يُضمن فيها للميت طيب الحياة واستقرارها ، فكانوا يضعون فى القبر كل ما يحتاج إليه الميت من طعام وشراب ومتاع ، ثم نقشوا ، ابتداء من الأسرة الخامسة ، رسوم هذه الأشياء على جدران المقبرة ، زعمًا منهم أن هذا يُغنى الميت عن القرابين نفسها ، وخاصة أن أداء الصلوات وقراءة النصوص الدينية تحوّل هذه الرسوم إلى أشياء حقيقية .

كذلك كانوا يصنعون تمثالا أو أكثر من تماثيل الميت ، لأنهم يخافون أن تتحلل الجثة ، على الرغم من تحنيطها ، أو تُسرق ، أو يُشوِّهها اللصوص ، فلا تجد الروح مكاناً تأوى إليه ، فيموت المتوفى مرة أخرى ؛ ولهذا كانوا يضعون التماثيل التى تشبه صاحبها تمام الشبه ، فى مكان أمين ، ويكتبون اسمه عليها حتى يعرفها " الكا " ويحل فيها إذا فنى الجسد الحقيقى ، وهكذا تستمر الحياة .

على أساس هذه الفكرة — فكرة الخلود — بنى الفراعنة أهرامهم .

٢ — قُدْسِيَّةُ الملكِ :

أضف إلى ذلك أن الحكم فى هذا العصر قام على أساس السلطة المُطْلَقَة المستمدة من قدسية الملك ، الذى يعتبر خليفة المعبود حوريس على الارض ، ويدخل فى مصاف الآلهة بعد موته ؛ وبما أن الحياة الآخرة ، كالحياة الدنيا فى نظرهم ، لا يمكن تسيير دفة الأمور فيها إلا بإشراف الحكام أو الملوك الخالدين ، فقد بنوا الأهرام على هضبة عالية من صحراء ليبيا ، ليستطيع فرعون (صاحب البيت العالى) أن يشرف على الأرضين ، أى الوجهين البحرى والقبلى ، فى حياته الباقية ، كما كان يشرف عليهما من مدينة منف (الجدار الأبيض) فى حياته الفانية .

لهذا لايمكن أن نقول إن الهرم مقبرة لملك جبّار فحسب ، كما قال كثير من المؤرخين ، وإنما هو بناء يمثل عقيدة أمة تؤمن بسُلْطَة الحاكمين فى الدنيا والآخرة فيجب أن تكون مظاهر هذه العقيدة موضع إجلال الجميع واحترامهم .

حال البلاد الداخلية :

تدل هذه الآثار العظيمة ، التى خلّفها ملوك الأسرة الرابعة ، على ما كان يسود مصر من نظام حكومى دقيق ، لولاه ما أمكن جمع آلاف من العمال كل عام لإتمام البناء ، كما تدل على وفرة الرخاء الذى شمل مصر حينذاك ، والذى لولاه ما استطاعت الحكومة أن تطعم هذا العدد الوفير من الناس أو تأويهم .

نهاية الأسرة الرابعة :

دام حكم الأسرة الرابعة مائة وستين عاما ، وصلت فى خلالها مصر إلى أعظم درجات الحضارة والرقى ، غير أن نفوذ الملوك بدأ ، فى أواخر هذه المدة ، يضعف شيئا فشيئا ، بينما أخذت قوة كهنة رع بمدينة عين شمس (هليو بوليس) تزداد بتدخلهم فى شئون البلاد السياسية ، حتى استطاعوا فى النهاية أن يسلبوا ما كان لملوك الأسرة الرابعة من نفوذ وسلطان .

الفصل الثانى

عصر نفوذ الكهنة — الأسرة الخامسة

(٢٥٦٣ — ٢٤٢٣ ق . م)

كهنة رع

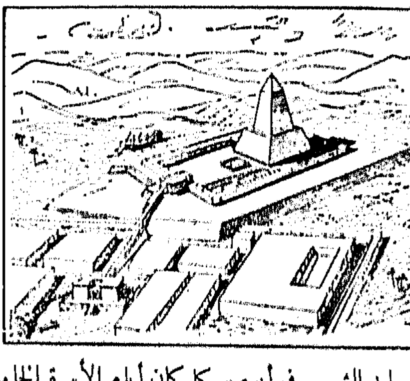
ازدياد نفوذهم :

قبل أن يتولى منقرع حكم مصر ، ابتدأ اسم رع يظهر ضمن اسم الملك الحاكم مما يدل على أن كهنة ذلك المعبود أخذوا ، منذ ذلك الوقت ، يتدخلون فى سلطة الملك ، وشجّعهم على هذا التدخل ثقةُ الملك بهم ، إذ أنهم عملوا على توجيه العقائد الدينية فى مصر إلى عقيدة البيت المالك (عبادة الشمس) ، فنجحوا فى ذلك ، وخاصة

لأن الشمس فى نظر المصريين جميعا قوة تسيطر على الحياة فتنمى الزرع والضرع، وتبدد الظلام، وهو طريق الموت، وتخلق النور، وهو سبيل الحياة؛ فأصبح من الميسور إدخال المعبودات المحلية فى دائرة هذه القوة ونسبها إليها، لهذا لقب حوريس مثلا بحوريس رع، وآمون بآمون رع، وهكذا. ولتقريب هذه التسمية من أذهان المصريين شبّه الكهنة هؤلاء الآلهة بحكومة جعلوا رئيسها رع وأعضاءها الآلهة الباقين، و بذلك أمكن توحيد العقائد الدينية تحت لواء كهنة رع، فأخذ نفوذهم يزداد شيئا فشيئا حتى طغى على نفوذ الملك، وانتهى الأمر بأن جمعوا كل السلطة فى أيديهم؛ واستطاع كبيرهم، أو سر كاف، أن يغتصب العرش لنفسه، و يؤسس أسرة جديدة هى الأسرة الخامسة .

مظاهر الانقلاب الدينية والاجتماعية :

عند ما أسس كهنة رع هذه الأسرة تغيرت بعض مظاهر العقائد الدينية والحالة الاجتماعية : فعلى الرغم من أن ملوك هـذه الأسرة استمروا يبنون الأهرام كأسلافهم، فإن عنايتهم بتشييدها كانت أقل بكثير من عناية هؤلاء، فصغر حجمها، بعد أن كان كبيرا، ولكنهم زيّنوا جدرانها بالنصوص الدينية، بعد أن كانت خالية منها فى العصر السابق، أما المعابد فبعد أن كانت محجوبة عن المارّة، لايستطيع أحد أن يعرف ما يجرى بداخلها من الطقوس الدينية، أصبحت مكشوفة للناظرين، وأقيمت فيها مسلة ضخمة على هرم ناقص؛ وكانت المسلات رمز إله الشمس "رع"، وتعرف هذه المعابد بمعابد الشمس، ومعظمها موجود فى ناحيتى أبو صير ودهشور، الواقعتين بالقرب من سقارة .



أحد معابد الشمس فى أبو صير كما كان أيام الأسرة الخامسة

أما من الوجهة الاجتماعية، فبعد أن كانت الوظائف الكبرى مقصورة على أفراد البيت المالك والكهنة ، أصبح يتمتع بها بعض أفراد الأسر الكبيرة مثل أسْرة (بتاح حتب)، التي تولى رجالها الوزارة ورياسة القضاء، وانتهزوا فرصة انهماك الكهنة فى الدين وإهمالهم السياسة ، واكتسبوا لأنفسهم حق تولى هذه المناصب بالوراثة ، ولكنهم مع ذلك حافظوا مدة من الزمن على الولاء لملوكهم ، وبذلوا جهودهم فى سبيل العمل على إنهاض البلاد ، وبذلك حافظت مصر فى عهد هذه الأسرة على ثروتها ، ونفذت مشروعات قيمة زادت هذه الثروة نماء ، وظهر أثر ذلك فى إسعاد الشعب وتقدم الحضارة .

الملك سحورع

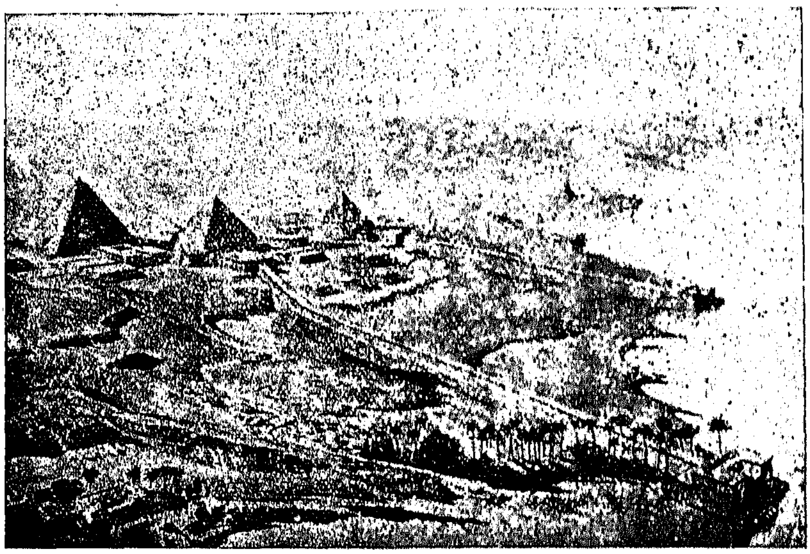
وكان أوّل ملوك هذه الأسرة الملك أوسركاف ، ثم خلفه سحورع .

مصر أوّل دولة بحرية :

بنى سحورع أسطولا لمصر ، أصبحت به أوّل دولة بحرية عرفها التاريخ ، وامتاز عهده بإرسال حملات بحرية وبرية إلى الأقاليم المجاورة ، فأرسل حملة حربية إلى شواطىء البحر المتوسط الشرقى (فينيقيا) ، حيث هزم سكانها وأسر عددا كبيرا منهم ؛ كذلك هزم أهالى ليبيا فى الغرب ؛ وأرسل أسطولا بحريا إلى بلاد بنت (الصومال) ، لجلب الأخشاب الثمينة والصمغ والبخور اللازمة للمعابد المصرية ، كما أرسل حملة برية إلى شبه جزيرة سينا .

هرم سحورع :

وبنى سحورع لنفسه هرما فى أبو صير ، أقيم فى الجهة الشرقية منه معبد يُعتبر من أهم آثار الأسرة الخامسة ، لأن أعمدته كانت من الجرانيت الأحمر تعلوها تيجان تمثل سعف النخيل وأزهار اللوتس .



أهرام أبوصير كما كانت أيام الأسرة الخامسة

وفى عهد خلفه ، بُنى هرم آخر فى المنطقة نفسها ، وكان الأمير (تى) ، الذى دفن فى المصطبة المعروفة باسمه فى سقارة ، قيّما على هذا الهرم .

الحكيم بتاح حتب

أمثلة من نصائح بتاح حتب :

عاش فى الأسرة الخامسة الحكيم المصرى الشهير "بتاح حتب" ، وكان وزيرا للملك إسيسى أحد ملوكها . فلما بلغ من العمر عشر سنوات بعد المائة ، وأصبحت الحياة عبئا ثقيلا على كاهله ، استدعاه الملك وأمره أن يضع كتابا يجمع فيه ثمرات حكمته ، فكانت وصاياه صادرة عن رجل حنّكته الأيام وذاق حلوها ومرها ، وأغلب هذه النصائح يتصل بالسلوك الشخصى ، وإليك أمثلة منها :

” إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تطل نظرك إليه ، ولا تبادره بالحديث قبل أن يسألك ، لأنك تجهل ما يوافق مشربه ، بل تكلم عند ما يسألك فيعجبه كلامك “ . ” لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك “ ” إذا دخلت منزل غيرك فاحذر أن توجه ذهنك إلى خِدر نسائه فكم هلك أناس من جراء ذلك “ .

” إذا كنت عاقلا قَرِّبْ ابنك حسبما يُرضي الله تعالى ، وإذا شب على مثالك وجدّ فى عمله ، فأحسن معاملته واعتن به ، أما إذا طاش وساء سلوكه ، فهذّب أخلاقه وأبعده عن الشرور لئلا يستخف أمرك “ . ” إذا كنت عاقلا فدبر منزلك وأحب زوجتك ، التى هى شريكتك فى حياتك ، وقدم لها الطعام والملابس وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، فباللين تملك قلبها ، وأدِّ مطالبها الحقة ، ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك “ . ” لا تترك التحلى بحلية العلم ودماثة الأخلاق “ .

ألا ترى أن مثل هذه النصائح نسمعها الآن ، كما كان يسمعها المصرى القديم منذ آلاف السنين !

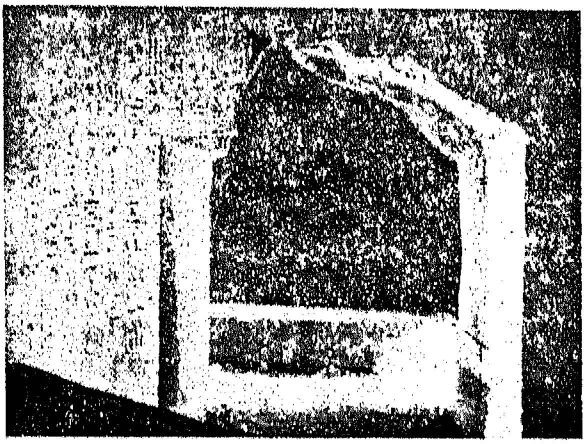
ولبتاح حتب ، صاحب هذه النصائح ، مقبرة جميلة فى سقارة ، سيأتى ذكرها عند الكلام على الفنون (ص ١٦٣) .

الملك أوناس

نصوص الأهرام :

ينتهى نفوذ كهنة رع بانتهاء حكم الملك أوناس ، الذى بنى لنفسه هرما بسقارة ، يمتاز عن سابقيه بأن جدرانه الداخلية مغطاة بنقوش زرقاء زاهية ، هى نصوص دينية سميت (نصوص الأهرام) ، وتعتبر أقدم النصوص المعروفة فى مصر ، وهى مجموعة أدعية وطلاسم اعتقد المصرى القديم أنها تحفظ جثة الميت وتحول المآكل والمشارب المرسومة إلى حقائق ، وتضمن لأوناس أن يكون ملكا فى حياته

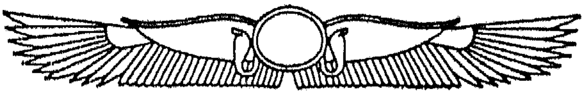
الباقية، كما كان فى حياته الفانية، وتعتبر هذه النصوص مصدرا هاما من المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن ديانة المصريين القدماء .



حجر التابوت فى هرم أوناس بسقارة

قرص الشمس :

ومنذ عهد أوناس بدأ المصريون ينقشون على مبانيهم الرسمية صور قرص الشمس تكتنفه حية مقدسة من الجانبين ، ويحمله جناحا صقر منشوران ، هذا هو قرص الشمس الشهير ، الذى يحلى واجهة المعابد المصرية ، والذى يدل على مكانة الشمس فى المدنية المصرية القديمة .



قرص الشمس

الفصل الثالث

الأسرة السادسة — سقوط الدولة القديمة

٢٤٢٣ — ٢٢٨٠ ق . م .

حكام الأقاليم ونزعتهم الاستقلالية :

منذ قبض كهنة "رع" على أزمة الملك فى مصر وأسسوا الأسرة الخامسة ، وجّهوا جُلّ عنايتهم إلى الأمور الدينية ، وأغفلوا شئون السياسة ، وانتهز حكام الأقاليم هذه الفرصة وأخذوا يعملون على جمع السلطة فى أيديهم ، فجعلوا مناصبهم وراثية يتولاها الأبناء عن الآباء ، وأصبح كل منهم يعيش فى ولايته دائما ولا يفارقها إلا نادرا ، أما قبورهم فبعد أن كانت تبنى حول قبر فرعون أصبحت تنحت فى الصخر ، بالقرب من مدنهم ، و بمرور الزمن قويت شوكتهم وأحاطوا أنفسهم بالحرس والموظفين ، وأصبح كل منهم أشبه بملك صغير ، وسمّوا أنفسهم "أمراء الأقاليم العظام" بدلا من حكام الأقاليم .

توددُ الملوك إلى الأمراء :

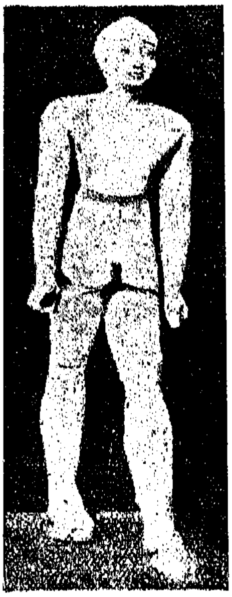
ولما دالت دولة الكهنة ، وقام على أنقاضها ملك الأسرة السادسة ، كان أوّل ما وجه اليه الملوك نظرهم أن يتوددوا إلى أمراء الأقاليم ، وتوسلوا إلى ذلك بكل وسيلة فكانوا يُضيفون أبناءهم فى القصور الملكية ، و يربونهم مع أبناء الملوك ، حتى يضمنوا ولاءهم للعرش ، كما كانوا يستميلونهم إلى سكنى العاصمة ، كى يتمتعوا بنعيمها و ينغمسوا فى ملاذّها ، فيلهيهم ذلك عن التفكير فى الجاه والسلطان ، كذلك كان يعمد ملوك هذه الأسرة إلى الزواج من بنات أمراء الأقاليم ، ليوثقوا عرى المحبة بين البيت المالك و بيوت هؤلاء الأمراء ؛ ولكن هذه الوسائل كثيرا ما كانت تؤدى إلى عكس ما يراد منها ؛ إذ كانت تثير حقد من لم ينالوا هذا الشرف .

حاكم الجنوب :

لهذا رأى الملوك أن يجربوا وسيلة أخرى ، فأنشأوا وظيفة أطلقوا عليها اسم "حاكم الجنوب" ، ومهمة شاغلها العمل على تقوية الصلة بين حكام الأقاليم الجنوبية و بين الفراعنة فى منف ، وقد حققت هذه الوسيلة الغرض المنشود منها فاستمرت كلمة فرعون هى العليا ، وخاصة بعد أن أسندت هذه الوظيفة إلى ذوى الشخصية القوية من أمراء الأقاليم ، الذين استطاعوا أن يخلّصوا البلاد من الأخطار الداخلية والخارجية التى كانت تهددها حينذاك .

پيپى الأول وأونى

استطاع پيپى الأول ، أعظم ملوك هذه الأسرة ، أن يصلح حال البلاد الداخلية ، ويدافع عن حدودها و يوسع رقعتها ، وكان عضده الأيمن فى تنفيذ سياسته هذه رجلا من الأشراف اسمه أونى ، أولاه كل ثقته ، وجعله قاضيا ، فكاهنا ، فناظرا على أملاكه .



تمثال من النحاس الأحمر للملك پيپى الأول

الإدارة الداخلية :

وقد استطاع أونى أن يدير شئون الدولة الداخلية إدارة حازمة : فجمع الضرائب من الأهالى ، دون أن يثير سخطهم ، ونشر راية الأمن والنظام ، وأقام العدل بين الناس .

هزيمة الأسيويين :

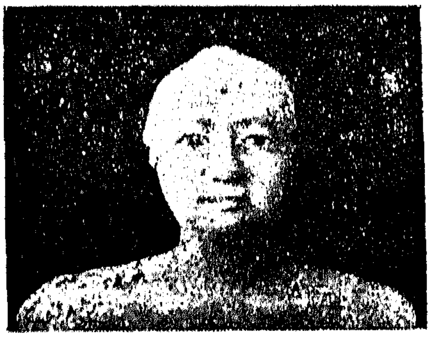
وكما نجح أونى فى الدخل نجح كذلك فى الخارج ، فلما عهد پيپى الأول إليه محاربة قبائل البدو الأسيوية ، الذين تعدوا حدود مصر الشرقية ، جمع جيشا جرارا من المصريين والنوبيين والليبيين ، ووضع له الخطط الحربية المُحْكَمَة ، ثم سار به عن طريق سيناء ، وفى أثناء سيره ضرب على أيدى العابثين وقطّاع الطرق ، ولما

قابل العدو، هزمه، ودمّر قلاعه، وخرّب دياره، وذبح الرجال، ثم رجع بجيشه سالماً غانماً. وثار البدو الأسيويون بعد كل ذلك، فأرسل ببي إليهم حملات أخرى، أهمها حملة بحرية قادها أونى، فسارت سفنه محاذية سواحل فلسطين الجنوبية، وأنزلت جندها هناك، وفتكت بالثائرين فتكا ذريعا.

ويلاحظ أن هجمات أولئك البدو على مصر كانت نتيجة حركة هجرة واسعة النطاق، ظهرت فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد فى الشمال الشرقى من بلاد العراق، ثم اقتربت شيئا فشيئا إلى فلسطين فالحدود المصرية، واستطاع أونى أن ينقذ مصر من شر هذه الإغارات وما يتبعها عادة من فقر وانحطاط، وهو شر هدّدها مرارا بعد ذلك ثم طغى عليها فترة من الزمن، كما سنرى عند الكلام على إغارة الهكسوس، ص ٧٢

الملك مرنرع وأونى

دام حكم ببي الأوّل عشرين عاما، كانت خير أيام الأسرة السادسة، فلما مات، خلفه ابنه مرنرع، وكان فتى صغيرا، فقرّب أونى إليه، لتفانيه فى خدمة أبيه، ورقّاه حاكما للجنوب. وقام أونى بواجباته الجديدة خير قيام، فبذل جهده لتأمين حدود مصر الجنوبية واستعمار بلاد النوبة.



راس تمثال مرنرع — المصنوع من النحاس

أونى واستعمار بلاد النوبة:

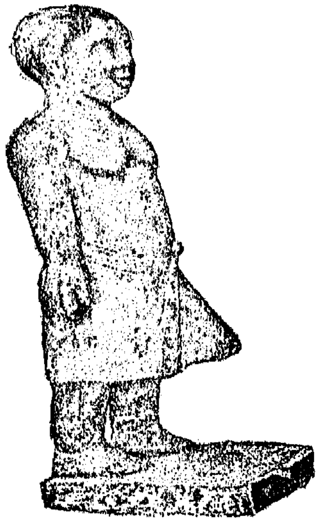
كانت بلاد النوبة دائما مطمح أنظار المصريين القدماء: لوفرة الذهب بها، ولأنها حلقة الاتصال بين مصر والسودان الجنوبى — الغنى بالعاج والأبنوس وريش النعام — وبين بلاد بنت (الصومال) الكثيرة الخيرات والشهيرة بالبخور اللازم لمعابد الآلهة المصرية. لهذا قام أونى بحفر خمس قنوات بالقرب من

الشلال الأول عند أسوان ، ليسهل الاتصال بتلك البلاد ، ونجح فى هذا العمل، على الرغم من أن شق هذه القنوات كان فى صخور جرانيتية .

وقد دوّن أونى سيرته على حجر عثر عليه فى مقبرته بأبيدوس (العرابة المدفونة — مركز البلينا ، بمديرية جرجا) ، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى .

حرخوف حاكم الجنوب :

وبعد موت أونى، خلفه فى منصب حاكم الجنوب رجل اسمه حرخوف، وكان رئيس قبائل جزيرة الفيل المواجهة لأسوان ، ونجح حرخوف فى مدّ نفوذ فرعون إلى ما وراء الشلال الثانى ، وأخضع القبائل الثائرة هناك ، وفرض عليهم غرامة كبيرة نقلها إلى منف على ثلثمائة حمار ، فسر الملك مرنرع بذلك كثيرا .


تمثال قزم — الأسرة السادسة

ببى الثانى

طول حكمه :

مات مرنرع صغيرا ، فخلفه أخوه ببى الثانى، وهو فى السادسة من عمره، وعاش حتى بلغ المائة، فكانت مدّة حكمه أطول مدّة عرفها التاريخ، وفى عهده توغل حرخوف فى بلاد النوبة ، فمهّد بعمله هذا سبيل الاستيلاء عليها فيما بعد .

حرخوف والقزم :

ومن الطريف أن نذكر أن حرخوف عاد من إحدى حملاته فى تلك الجهات ومعه قزم من أواسط إفريقية ، فلما علم ببى بذلك غمره سرور عظيم ، إذ كان لأغنياء المصريين ولع بالأقزام يتلهّون برقصهم ولعبهم ، فكتب إلى

حرخوف خطابا يوصيه فيه بإقامة الحراس ليلا ونهارا على القزم ، ومراقبته في السفينة لئلا يغرق في النيل !

وقد نقش حرخوف نص هذا الخطاب على واجهة مقبرته بأسوان .



واجهة مقبرة حرخوف بأسوان

ضعف الحكومة :

وفى أواخر أيام پيپي الثانى ، انتهز أمراء الأقاليم فرصة ضعفه لشيخوخته ، واستعادوا كثيرا من سلطتهم ، وبعد وفاته ، خلفه ملوك ضعاف حكموا مددا قصيرة ، ولم يستطيعوا كبح جماح الأمراء ، الذين قوى شأنهم وأصبح كل همهم أن يستقلوا استقلالا تاما ، ومهّدوا بذلك للتفكك السياسى فى العصر الثانى . وبانتهاء الأسرة السادسة انتهى عهد الدولة القديمة ، الذى بلغت فيه مصر درجة عظيمة من المدنية والمجد .

الفصل الرابع

عصر الانحلال — العصر المتوسط الأول

من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة

٢٢٨٠ — ٢٠٦٥ ق م

انتشار الفوضى :

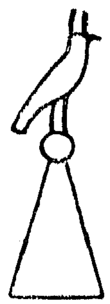
بسقوط الأسرة السادسة استقل كل أمير بتدبير شئون إمارته ، وبعد أن كانت البلاد تحت سلطان ملك واحد، صارت تحت حكم أمراء عديدين، ينافس كل منهم الآخر فى السيطرة عليها ، فعمّت الفوضى وساد الانحلال ، وطمع فى البلاد جيرانها : فأغارت قبائل البدو الأسيوية على الدلتا، واحتل النوبيون إقليم أسوان .

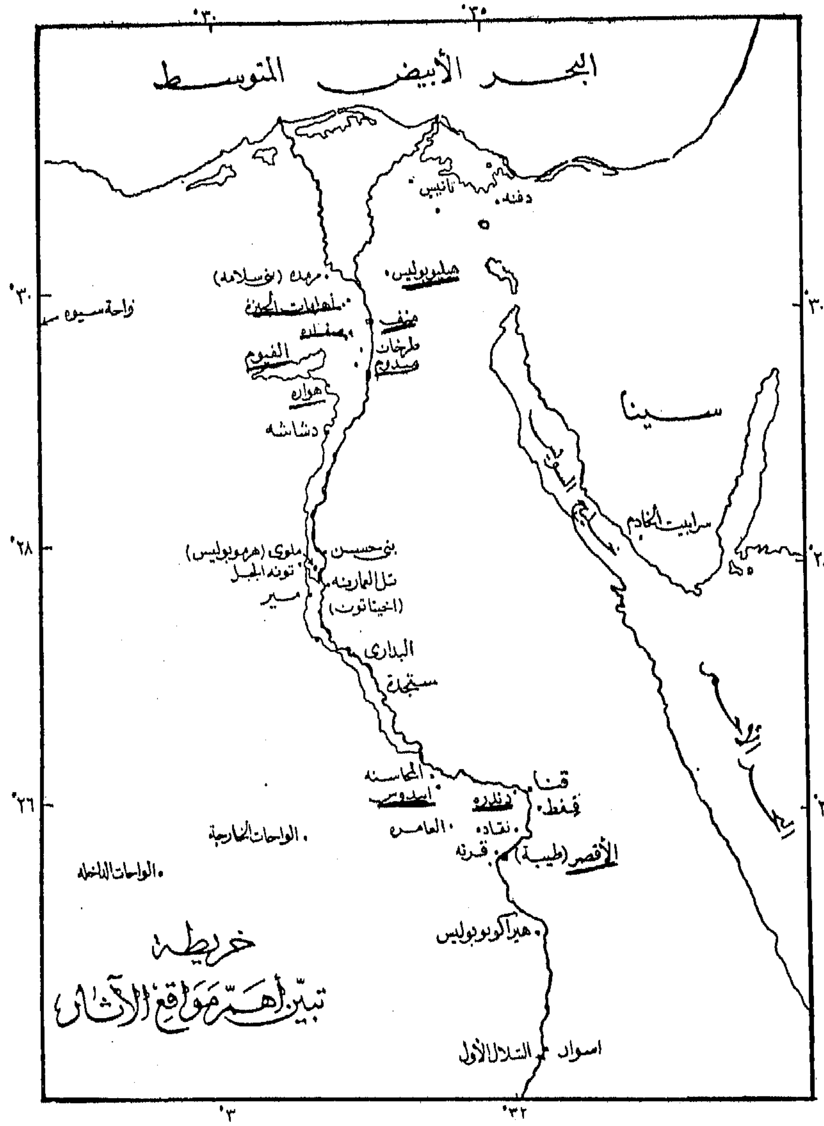
الأسرتان السابعة والثامنة :

عندئذ قام بعض الأمراء وأسسوا حكومة مركزية فى منف، هى حكومة الأسرة السابعة، ثم خلفتها أسرة جديدة ، هى الأسرة الثامنة، التى ظلّت الفوضى ضاربة أطنابها فى أيامها أيضا ، فتقهقر فن البناء وتخربت المعابد ، وسرقت محتويات المقابر والأهرام ، ولم ترسل بعثات إلى أسوان أو سيناء، لجلب أحجار المبانى ، بل كانت الأحجار تؤخذ من مقابر العهود السابقة ومعابدها ، وساءت حال الأسر الطيبة ، وأثرى الفقراء على حساب الأغنياء ، وانتُهكت حرمة القانون وتدهورت البلاد بعد عزّها .

الأسرتان التاسعة والعاشرة — ملوك هيراقليوبوليس :

وبانتهاء الأسرة الثامنة انتهى العصر الذى كانت فيه " منف " عاصمة مصر ، واغتصب بعض أمراء الأقاليم الملك ، ونقلوا العاصمة إلى مدينتهم هيراقليوبوليس ، اهناسية المدينة ، مركز بنى سويف ، وأسسوا الأسرتين التاسعة والعاشرة ، ولم يتركوا آثارا تذكر ، وإنما عرفنا أخبارهم من النقوش التى دونها أمراء أسيوط على مقابرهم المحفورة فى الصخور ، وكانت العلاقة بين هؤلاء الأمراء وملوك أهناسية طيبة ووثيقة ، ويتضح من تلك النقوش أن مصر كانت تعانى أشد أنواع الفوضى إذ ذاك ، وأن ملوك أهناسية حاولوا رد شىء من النظام إلى البلاد .




البحر الأبيض المتوسط
تانيس
دفنه
هليوبوليس
مرمدة (بني سلامة)
واحة سيوه
منف
سقارة
الفيوم
هواره
دشاشه
سينا
سرابيت الخادم
بني حسن
ملوي (هرموبوليس)
تونه الجبل
مير
تل العمارنه (اخيتاتون)
البداري
سبخة
المحاسنه
ابيدوس
دندره
قنا
قفط
نقاده
العامره
الأقصر (طيبة)
قرنه
الواحات الخارجة
الواحات الداخلة
هيراكونبوليس
اسوان
الشلال الأول
خريطة
تبين أهم مواقع الآثار
٣٠
٣٢
٢٨
٢٦

الباب الثالث

الدولة الوسطى — عصر الإقطاعات

٢٠٦٥ — ١٥٨٥ ق٠م

الفصــل الأول

عصر ملوك طيبة

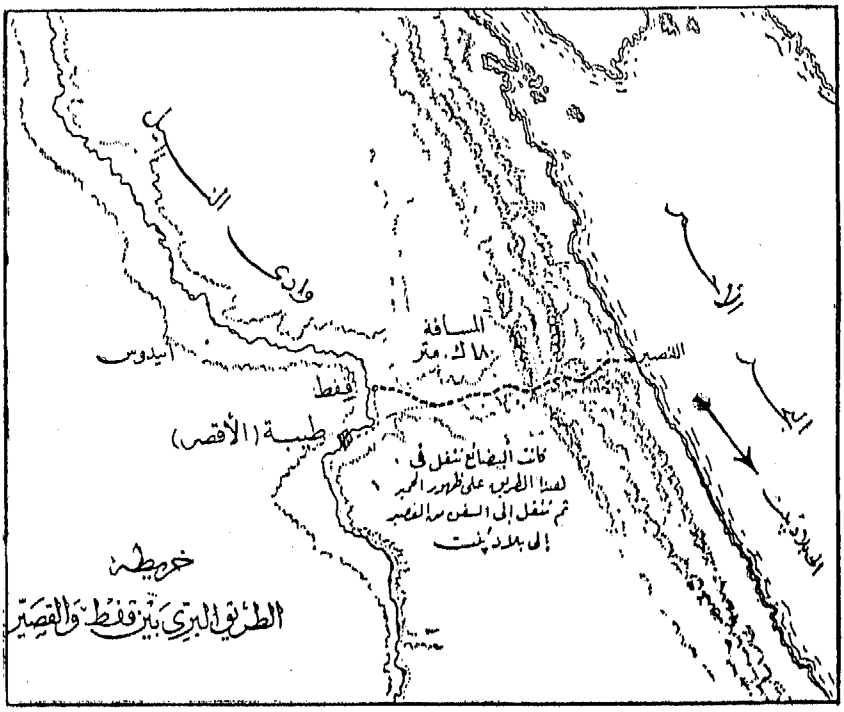
الأسرة الحادية عشرة

تأسيسها :

بينما كان ملوك هيراقليوپوليس (إهناسية) يقاومون الفوضى ويحاولون رد النظام إلى البلاد، قَوِىَ الأمراء الحاكمون فى طيبة (الأقصر) شيئا فشيئا، فأخذوا يوسعون رقعة أملاكهم، ونَصَّب أحدُهم نفسه فرعونا على البلاد، وأسس هو وخلفاؤه مملكة مستقلة فى الجنوب، عاصمتها طيبة، وقامت بذلك الأسرة الحادية عشرة، فبدأت عهدا جديدا فى تاريخ مصر، هو عهد الدولة الوسطى.

القضاء على الفوضى :

و يلاحظ أن هذه الأسرة عاصرت ملوك إهناسية فترة من الزمن، أى أن مصر انقسمت مدى حين إلى مملكتين مرة أخرى : مقر إحداهما فى إهناسية، ومقر الأخرى فى طيبة، ثم قدر لملوك طيبة أن ينتصروا على أعدائهم فى الشمال، على الرغم من مساعدة حكام أسيوط لهم، واستطاعوا بذلك أن يعيدوا لمصر اتحادها و ينشروا لواء الأمن، و ينهوا الحروب الأهلية والفتن.


وادي النيل
البحر الأحمر
البلاد بنت
المسافة
١٨٠ ك. متر
القصير
أبيدوس
قفط
طيبة (الأقصر)
كانت البضائع تنقل في
هذا الطريق على ظهور الحمير
ثم تنقل إلى السفن من القصير
إلى بلاد بنت
خريطة
الطريق البري بين قفط والقصير

تحسن الحالة الاقتصادية :

وبذل ملوك الأسرة الحادية عشرة كل ما يستطيعون فى العمل لصالح مصر وسكانها : فعنوا عنـاية طيبة باستغلال مناجم وادى الحمامات ومحاجره استغلالا منظما ، بعد أن أُهمل شأنه منذ عهد طويل ؛ واهتموا بإخضـاع بدو الصحراء الشرقيــة ، لتأمين الطريق بين النيل والبحر الأحمر ؛ وتوطيد العلاقات التجارية بين مصر وبلاد بنت (الصومال) ؛ فتحسنت بذلك حال البلاد الاقتصادية .

نموّ الطبقة الوسطى :

وكان من نتائج الرخاء الذى عمّ مصر فى ذلك الحين أن تكوّنت من أغنياء الملاك وأرباب المهن والتجار طبقة جديدة ، هى الطبقة الوسطى .

الفصل الثـانى

الأسرة الثانيــــة عشرة

٢٠٠٠ — ١٧٨٥ ق . م

أمنمحيت الأوّل

دام حكم الأسرة الحادية عشرة خمسا وستين سنة ، ثم خلفتها الأسرة الثانية عشرة التى أسسها أمنمحيت الأول .

تولّيه الملك :

كان أمنمحيت وزيرا لأحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ومن المحتمل أنه كانت بينهما قرابة ، ولهذا أولاه فرعون كل ثقته ، فقويت بذلك شوكته ، ولمـا مات آخر ملوك تلك الأسرة ، دون وريث ، انتهز أمنمحيت هذه الفرصة ، وأعلن نفسه ملكا على مصر ، فأسس بذلك الأسرة الثانيــة عشرة ، التى حكمت البلاد نيّفا ومائتى سنة ، كانت من أسعد عصور التاريخ المصرى القديم وأكثرها رخاء واستقرارا .

سياسته نحو أمراء الأقاليم :

صادف أمنمحيت الأول عقبات كثيرة فى أوّل حكمه ، فاستطاع بمهارته أن يتغلب عليها جميعا ، وثبّت ملك أسرته على أساس متين .

وكانت أولى هذه المشاكل رغبة أمراء الأقاليم فى قطع صلتهم بفرعون والانفراد بالحكم فى إقطاعاتهم، التى كانوا يتوارثونها ابنا عن أب بإقرار إسمى من الملك .

ولم يكن من الميسور أخذ هؤلاء الأمراء بالشـدّة ، لأنهم مازالوا أقوياء ، تدل على قوتهم : المقابر الهائلة التى نحتوها فى الصخور (١) ، والنقوش التى سجّلت حوادث إدارتهم لإقطاعاتهم ؛ لهذا عمل أمنمحيت على أن يأخذهم بالسياسـة والحسنى، لاسيما وأنهم كانوا يعطفون على أهل إقطاعاتهم، ويقدّمون لهم الحبوب وقت المحن ، ويساهمون بذلك فى تقدّم البلاد ؛ فسمح لهم بقسط كبير من الاستقلال فى إقطاعاتهم ، ولكنه أبقى عليهم ما كان على أسلافهم من التزامات وواجبات : كدفع الضرائب ، وإمداده بالجيوش عند الحاجة ، وعيّن لكل منهم حدود أرضه، حتى لا يتنافسوا كما كانوا يفعلون قديما، وبذلك استمالهم اليه وضمن ولاءهم له .



مقبرة أحد أمراء بنى حسن محفورة فى الصخر

(١) كان أمراء المنيا يقيمون مقابرهم فى بنى حسن الشروق ، مركز أبو قرقاص ، وأمراء الأشمونين يقيمونها فى البرشا ، مركز ملوى ، وأمراء أسيوط فى بلدة مير ، إحدى قرى مركز منفلوط .

العاصمة أتت تاوى :

ولما وجد امنمحيت الأول أن بلدة طيبة تقع فى جنوب مصر وتبعد عن شمالها ، تركها ، وفضّل بناء عاصمة جديدة فى نقطة متوسطة ، فاختار بقعة تقع على بعد ٣٠ كيلو مترا إلى الجنوب من منف ، وبنى فيها قصره ودواوينه ، وسمّاها أتت تاوى ، أى القابضة على الوجهين ، البحرى والقبلى ، ومكانها قرية اللشت الحالية ، بمركز العياط — مديرية الجيزة (١)



مقبرة أحد أمراء الأقاليم من الداخل

ومن هذه العاصمة الجديدة استطاع امنمحيت أن يشرف على الدلتا والصعيد ، فحمى الدلتا من إغارات الأسيويين وأخضع بلاد النوبة حتى كورسكو ، واستغل مناجم سيناء ووادى الحمامات .

إشراك ابنه فى الحكم :

ولكى يضمن العرش لابنه من بعده ، رأى أن يدرّبه على الحكم فى حياته فأشركه معه فى السنة العشرين من حكمه ، وقد سار كل ملوك هذه الأسرة تقريبا على هذه الخطة .

التآمر على امنمحيت الأول ووصيته :

قوبل امنمحيت فى أواخر أيامه بنكران الجميل من حاشيته ، فدبّر بعضهم مؤامرة لاغتياله ، ولكنه نجا منها ، وأثّرت فى نفسه هذه الحادثة ، فأوصى ابنه أن يشتدّ فى معاملة مرءوسيه ، لأن الناس «تحترم كل من يخيفهم ويفزعهم» ، وحذّره من أن يتخذ أحدا منهم رفيقا أو صاحبا .

(١) تنقل ملوك الأسرة الثانية عشرة فى جهات مختلفة ما بين منف والفيوم ، و لم يستقروا جميعا فى هذه العاصمة .

وفاة امنمحيت :

لم يعش امنمحيت طويلا ، بعد نجاته من هذه المؤامرة ، وعند ما مات كان ولى عهده سنوسرت وأمير من أقاربه ، اسمه سنوهى ، يحاربان الليبيين ، فلما بلغهما نعى الملك عاد أولهما إلى العاصمة وتسلم زمام الأمور ، قبل أن ينازعه على العرش منازع ، أما سنوهى فقد فرّ إلى فلسطين ، لسبب ما زال مجهولا ، وعاش هناك حينا من الدهر ، ثم عاد إلى مصر بإذن من سنوسرت ، وروى ما حدث له منذ وفاة امنمحيت ، وتعتبر قصته من القصص المصرية الشهيرة [١] .

سِنُوسْرِتْ الأوّل

— أعماله الداخلية :

شيّد سنوسرت الأول[٢] هرما لنفسه فى عاصمته ، أتت تاوى ، وبنى أيضا معبدا للآله «رع» ، فى مدينة أون (عين شمس) ، بالقرب من المطرية ؛ لم يبق منه سوى مسلة لا تزال شاخصة فى مكانها .



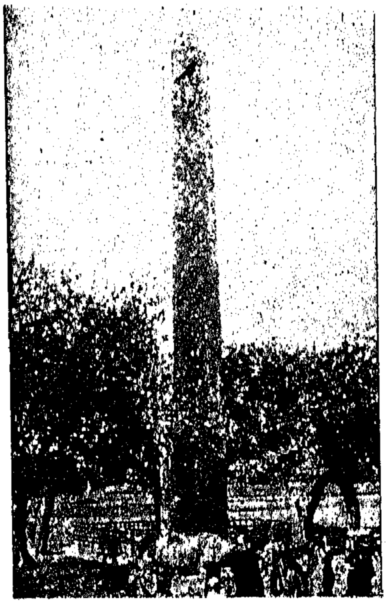
رأس تمثال سنوسرت الأول

---

(١) راجع ص ١٧٧ (٢) وقد عرفه اليونان باسم سيزوستريتس .

أعماله الخارجية :

وُعنى سنوسرت باستعمار النوبة ، فقاد الجيوش بنفسه إلى بلاد كوش ، الواقعة وراء الشلال الثانى ، وأرسل بعثة إلى الواحة الخارجة ، وجابت رسله فلسطين وسوريا بانتظام .



مسلة عين شمس

امنمحيت الثانى وسنوسرت الثانى

خلف سنوسرت الأول ابنه امنمحيت الثانى ، ثم تولى بعد هذا ابنه سنوسرت الثانى ، وقد تدرب كل منهما على شئون الحكم مع أبيه مدة من الزمن ، ولأولهما هرم بدهشور ، وللثانى آخر باللاهون .

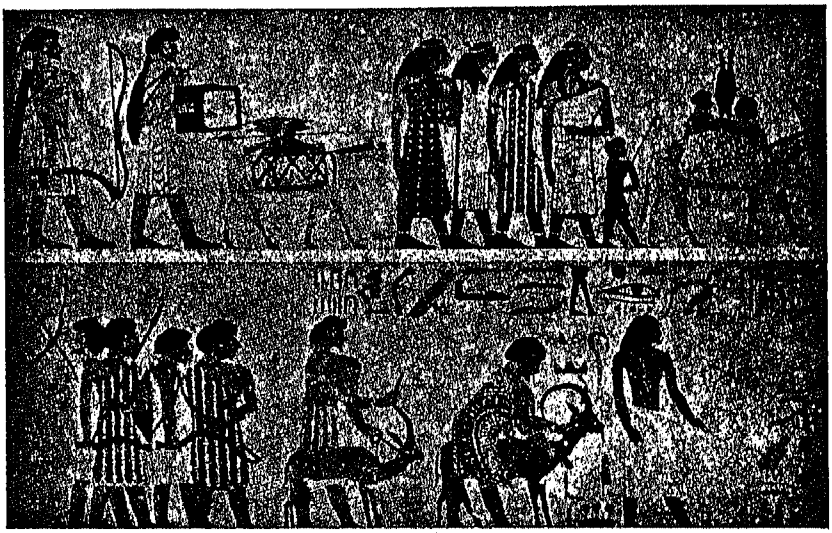
رخاء مصر فى عهدهما :

تمتعت مصر طول حكم هذين الملكين ، الذى دام خمسين عاما ، بالرخاء والرفاهية ، فاستُغلت مناجم سيناء ثانية ، واستؤنفت العلاقات التجارية مع بلاد پنت ، حتى أَلِفَ أهلها رؤية المصريين ، وأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد

فى قصصهم ، ومن أطرفها قصة تعرف بقصة الملاح الغريق ، تصف ماصادفه هذا الملاح من مشاق فى سبيل وصوله إلى بلاد پنت ، وسنعود اليها عند الكلام على الأدب المصرى، فى باب الحضارة (ص ١٦٣) .

تجدد خطر الأسيويين على مصر :

على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها . كل ذلك جذب إليها المهاجرين الأسيويين، فتجدد سيلهم، فى عهد سنوسرت الثانى، كما يتضح ذلك من نقش، وَرَدَ على جدران إحدى مقابر بنى حسن (مركز أبو قرقاص)، يمثل وفدا جاء فى السنة



قدوم وفد من البدو الأسيويين — مقابر بنى حسن

السادسة من حكمه، وتألف من سبعة وثلاثين شخصا من البدو الساميين، بين رجال ونساء وأطفال، ارتدوا ملابس صوفية مزركشة، وترك الرجال لحاهم، وأسدل النساء شعورهن، وجلبوا معهم الحمير التى حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بنى حسن، وتقدّمهم رئيسهم يطلب اليه الإذن له وجماعته بالإقامة فى مصر والتجارة معه ، لا سيما فى الكحل والروائح العطرية التى كان المصريون يستعملونها بكثرة إذ ذاك .

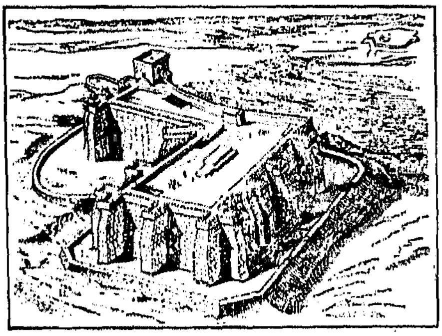
سنوسرت الثالث

مطاردة الاسيويين :

على أن هذا الخطر، الذى هدّد مصر فى عهد سنوسرت الثانى، استطاع أن يدرأه عنها ابنه سنوسرت الثالث، الذى تولى الحكم بعده، فطارد القبائل السامية الزاحفة على البلاد ، وهزمها فى بلدة تقع شمال أورشليم (بيت المقدس) ، وغزا الجزء الجنوبى من سوريا فمهّد بذلك فتح تلك البلاد لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، كما مهد ملوك الدولة القديمة لأسرته فتح بلاد النوبة وضمها لمصر .

ضم النوبة :

رأينا أن ملوك الأسرة السادسة أرسلوا حملاتهم إلى الشلال الأول، ثم توغل ملوك الأسرة الثانية عشرة الأوائل إلى ماوراء الشلال الثانى، فلما تولى سنوسرت الثالث ضم هذه البلاد إلى مصر ، وقاد الحملات بنفسه اليها ، وشيد عند الشلال الثانى ، بالقرب من وادى حلفا حصنين متقابلين على النيل : أحدهما فى سمنه والآخر فى قمة .



حصن سمنة كما كان فى أيام الدولة الوسطى

إخضاع أمراء الأقاليم :

وكما انتصر سنوسرت الثالث فى حروبه وُفِّق أيضا فى نضاله مع أمراء الأقاليم الذين قويت شوكتهم مرة أخرى، فاستطاع أن يتغلب عليهم ويقضى على ما كان لهم من نفوذ ، ويتضح ذلك من توقفهم فجأة ، فى عهده ، عن نحت مقابرهم الصخرية الهائلة فى إقطاعاتهم ، كما كان يفعل أسلافهم من قبل .

قناة سيزوستريس :

ساعدت كل هذه الأمور على ازدياد ثروة مصر ونشاط تجارتها، لاسيما وأنه كان يوصل خليج السويس بفرع النيل الشرقى إذ ذاك قناة، هى أقدم اتصال مائى بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، عرّفها المؤرخون اليونان بقناة سيزوستريس .

أمنمحيت الثالث

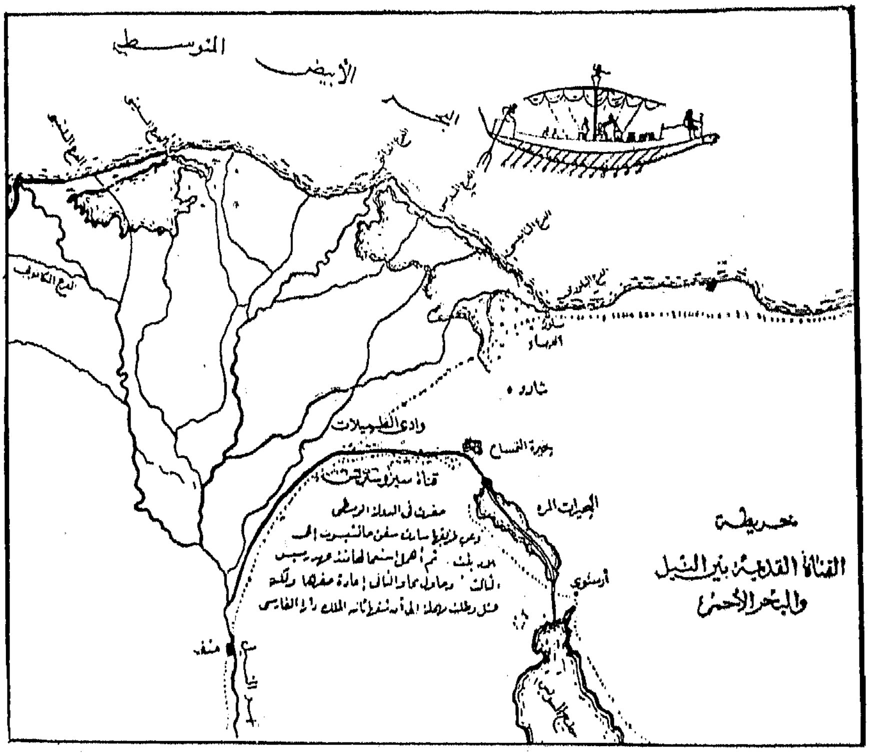
الرخاء فى عصره :

خلف سنوسرت الثالث ابنه أمنمحيت الثالث ، فورث مملكة واسعة الأرجاء موطّدة الدعائم، وكان عصره عصر سلام ورخاء، وقد ساعده طول حكمه واستتباب



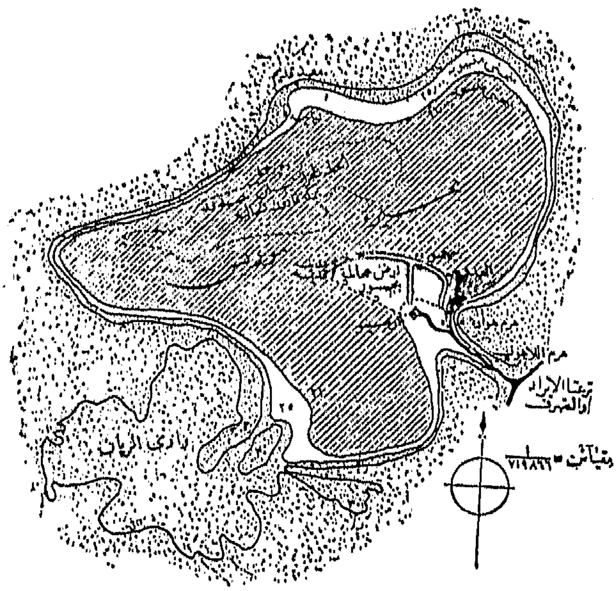
رأس تمثال أمنمحيت الثالث

السلم فيه، بعد عهد أبيه الملىء بالحروب ، على التوسع فى المشروعات النافعة للبلاد وأهمها مشروع الفيوم .


البحر الأبيض المتوسط
شارو
وادي الطميلات
بحيرة التمساح
قناة سيزوستريس
البحيرات المرة
أرسنوي
منف
خريطة
القناة القديمة بين النيل
والبحر الأحمر

عنايته بأقليم الفيوم :

عنى فراعنة الأسرة الثانية عشرة الأوائل بإقليم الفيوم المنخفض، و بالانتفاع بمياه النيل، التى كانت تطغى عليه وقت الفيضان فتحوِّله بحيرة عظيمة يضيع ماؤها هباء ، فأقاموا جسرا فى الفجوة التى تصل وادى النيل بمنخفض اللّاهون بالفيوم، وبذلك أصبح هناك شبه خزان ترد إليه المياه عند ارتفاع النيل بواسطة ترعة (بحر يوسف الآن) ، وتصرف منه وقت التحاريق لرى أراض زراعية كثيرة ، كما انحسر الماء عن جزء من البحيرة، فأصبح صالحا للزراعة ، وصارت الفيوم منذ ذلك العهد من أخصب بقاع مصر .



الفيوم

ولما تولى الحكم أمنمحيت الثالث، أطال الجسر فضاقت بذلك حدود البحيرة وجف جزء آخر منها ، ولكثرة عنايته بإقليم الفيوم ، ظن البعض خطأ أنه مبتكر المشروع .

مقياس سمنه :

هكذا عنى أمنمحيت بأمور الزراعة والرى ، ويدل على ذلك أيضا إنشاؤه مقياسا للنيل فى جهة سمنه ، يوضح ارتفاع الفيضان أولا بأول ، فيستطيع رجال الحكومة تقدير كمية المحصول المنتظرة ، وعلى أساس ذلك كانت تجمع الضرائب حتى لا يرهق الفلاح .

" اللابرنت " قصر التيه :

و بالقرب من هـذا السدّ ، بنى أمنمحيت قصرا عظيما جعله مسكنا له ومعبدا ومقرا لحكومته ، وكان بهذا القصر اثنتا عشرة ردهة ، وثلاثة آلاف حجرة لاجتماع حكام البلاد ، وكانوا يأتون كل سنة إلى هذا القصر ومعهم الموظفون التابعون لهم ، فيذهبون إلى الحجرات المخصصـة لهم ، وهناك يعمل كل منهم حساب الأموال المطلوبة منه لخزانة الملك ، و يقدّم له ما تجمّع لديه من تلك الأموال .

وظل هذا القصر قائما زمنا طويلا ، ورآه بعض من زاروا البلاد المصرية من الرّحالة اليونان : أمثال هيرودوت وديودور وسترابو ، وأُعجبوا به أكثر من إعجابهم بالأهرام ، وسمّوه قصر اللابرنت أو التيه : نظرا لتشعب طرقه وحجراته التى يتيـه فيها من يدخله ، وتشبيها بقصر اللابرنت الكريتى الشهير فى الروايات اليونانية الخرافية وقد زال ذلك القصر ولم يبق من آثاره شيء .

مناجم سيناء وتنظيم استغلالها :

ومن أعمـال أمنمحيت أنه نظم استغلال مناجم سيناء ومحاجرها ، فبنى للعمال المساكن ، وحفر لهم الآبار لتسهيل العمل عليهم ، وأقام حراسا فى تلك الجهات لتحول دون سطو اللصوص على المناجم .

العناية بالتجارة :

كذلك عنى بالمعاملات التجارية ، فوضع وحدة مشتركة من النحاس لقيمة ما يشرى وما يباع .

موت أمنحيت الثالث :

دام حكم أمنحيت نحو خمسين عاما ، ترنم الناس بجلالها وقالوا : "إن الملك هو الذى كسا القطرين حلة خضراء"، وقد دعاهم إلى ذلك ما شاهدوه من ثروة ، وشعروا به من طمأنينة وأمن فى عهده ! ولما مات أمنحيت دُفن فى هرم قائم بهواره .

نهاية الأسرة الثانية عشرة :

خلف أمنحيت الثالث ابنه أمنحيت الرابع ، وفى عهده عاد أمراء الأقاليم إلى تقوية نفوذهم ، ولما مات ، دون أن يترك ولى عهد ، ورثته أخته الملكة سبك نفرورع ، فضعفت الملكية ضعفا أدى إلى انتهاء الأسرة الثانية عشرة وعهدها الزاهر ، الذى دام مدة تزيد على القرنين .

الفصل الثالث

الاضطراب الداخلى وحكم الهكسوس — العصر المتوسط الثانى
من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة
١٧٨٥ — ١٥٨٠ ق.م.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

احتفظت مصر بوحدتها بضع سنين، بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة، ثم صارت فريسة للنازعات الداخلية، فبدأ بذلك عصر من أظلم عصور التاريخ المصرى القديم دام مدّة قرنين ، وحكم البلاد فيه ملوك ضعاف كوّنوا الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، واتخذوا عاصمتهم فى مدينتى طيبة بالصعيد ، وسخا فى الشمال الغربى بالدلتا ، على التوالى ، ونكاد لا نعرف شيئا عن معظمهم .

وقد ساعد ضعف ملوك هاتين الأسرتين على انقسام مصر واضمحلال قوتها وسيادة الفوضى فى أرجائها مدّة أخرى ، فانتهز جيرانها الغزاة الأسيويون هذه الفرصة وأغاروا عليها ، وهكذا تولى حكم البلاد ملوك من الأجانب القساة .

الهكسوس (١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق.م)

معنى كلمة هكسوس :

أُطلق على هؤلاء الغاصبين اسم "الهكسوس"، وهى كلمة ترجمها أحد المؤرخين القدماء بملوك الرعاة، فقال إن "هك" معناها فى اللغة الدينية المصرية القديمة ملك و "سوس" معناها فى اللغة الدارجة رعاة ؛ وقد خالف كثير من المؤرخين هذا التفسير وقرروا أن كلمة سوس مشتقة من كلمة مصرية قديمة معناها البلاد الأجنبية، وعلى هذا قالوا إن "هكسوس" معناها "حكام البلاد الأجنبية"، وهو تفسير يطابق ما كان معروفا منذ الأسرة الثانية عشرة، حين أطلق هذا الاسم على رؤساء القبائل الأسيوية، الذين كانوا يفدون إلى مصر بين حين وآخر لتقديم الهدايا لأمراء بنى حسن الأقوياء، كما أسلفنا .


خنجر من أسلحة الهكسوس

أصل الهكسوس :

ولا نعرف بالضبط من هم هؤلاء الهكسوس، وقد قيل إنهم إما من أصل عربى أو من أصل فينيق ، والأرجح كما يتضح من أسماء ملوكهم، أنهم خليط من شعوب آرية وأخرى سامية عربية .

أسباب إغارتهم على مصر :

وفد الهكسوس على مصر من آسيا نتيجة لزحف الشعوب الآرية من وطنها الأصلى على الأراضى الواقعة شرقى بحر قزوين ، وقد بدأ هذا الزحف فى الألف الثانى ق . م. واهتزت له أمم الشرق القديمة ، فدفعت بعض شعوبها نحو وادى النيل، الذى كانت حال سكانه حينئذ أكبر مشجع على غزوه .

أسباب انتصارهم :

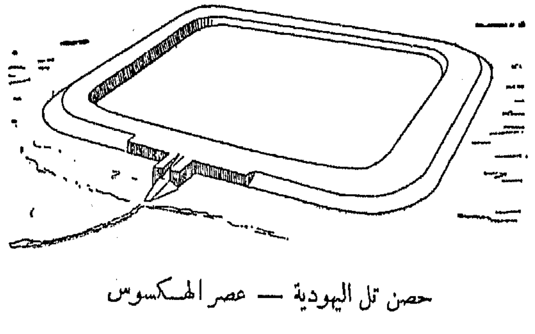
وقف الهكسوس أمام أعداء ضعاف مزقتهم الفوضى ، وفوق ذلك كان المغيرون يفوقون المصريين حربيا من حيث العَدد والعُدد ، فقد استعملوا فى حربهم الخيل والعجلات الحربية والسيوف المصنوعة من البرونز ، واستطاعوا بهذه الوسائل أن ينشروا الذعر فى صفوف المشاة المصريين ويهزموهم .

عاصمتهم أفاريس :

أخضع الهكسوس فى أوّل الأمر إقليم الدلتا ، واتخذوا فيه عاصمة لهم تسمى أفاريس[1] ، وأقاموا الحصون والقلاع ، ومن أهمها حصن تل اليهودية ، بالقرب من شبين القناطر ، ثم أجبروا جميع الأمراء المصريين على دفع الجزية لهم ، وقد ألّف ملوكهم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

أعمالهم فى مصر :

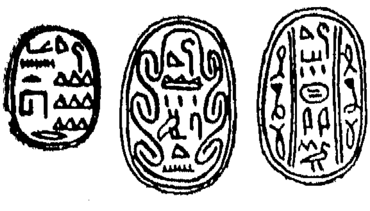
احتفظ الهكسوس بعاداتهم ، وكانوا يعاملون المصريين بغلظة فى أوّل الأمر فدمّروا كثيرا من معابدهم ومبانيهم ، ولكنهم مالبثوا أن تمصروا وقلّدوا الفراعنة



حصن تل اليهودية — عصر الهكسوس

(١) أثبتت الأبحاث الحديثة أن أفاريس هى صان الحجر (تانيس) ، مركز فاقوس ، بمديرية الشرقية

فى أسمائهم وعاداتهم وأزيائهم ولغتهم وديانتهم ، وسمّوا أنفسهم " أبنـاء رع " وشيّدوا المعابد وكتبوا أسماءهم على الآثار ، واليهم تنسب الجعُل (الجعارين) الكبيرة التى وجدت فى مصر منقوشة، على الطريقة الأسيوية ، على شكل الأزهار وفى وسطها أسماؤهم مكتوبة بالهيروغليفية .



جعل على كل منها اسم ملك من ملوك الهكسوس

خروج الأمراء المصريين عليهم :

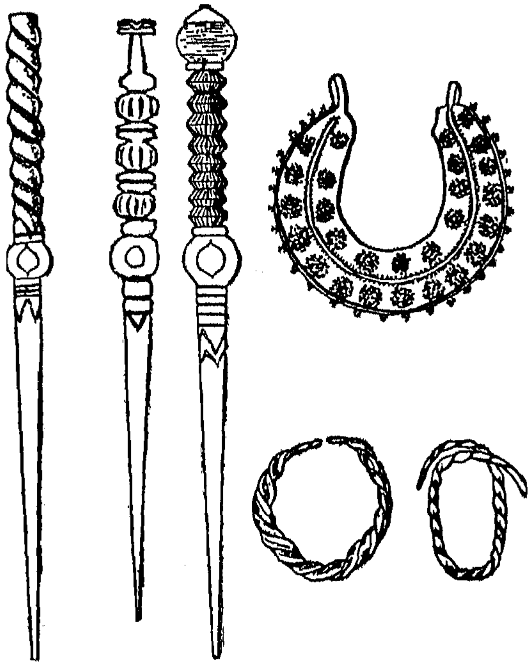
ولكن على الرغم من ذلك كان الهكسوس مكروهين كغزاة للبلاد ، ولم يغتفر المصريون لهم ما أصابهم منهم ، ونعتوهم بالقذرين ، وأخذوا يتحينون الفرص لطردهم ، وبمرور الزمن ضعف الهكسوس ، فاسترد الأمراء المصريون ما كان لهم من نفوذ ، وانتهز أمراء طيبة الأقوياء فرصة هذا الضعف وخرجوا عليهم ، وأسسوا الأسرة السابعة عشرة وحكموا الصعيد .

قصة أفراس البحر :

حنق لذلك ملك الهكسوس المدعو أبوپى ، وعزم على أن يحارب أمير طيبة ليكسر شوكته ، وتروى قصة مصرية ، كان يتعلمها الأطفال المصريون القدماء فى مدارسهم ، وهى أن أبوپى أرسل إلى أمير طيبة يشكو من الضجة التى تحدثها أفراس البحر فى بركة قريبة من طيبة فتحرمه لذة النوم الهادئ !

ومن الواضح سخف هذه الشكوى ، إذ أن أفاريس ، التى يقيم بها ملك الهكسوس ، تبعد عن طيبة بمئات الأميال ، ولكن لما كانت أفراس البحر حيوانا مقدسا عند سكان طيبة فقد استطاع أبوپى بهذه الشكوى أن يثير خواطرهم ، وخاصة عند

ما هدّد بذبح هذا الحيوان ، فقامت الحرب بين الهكسوس والطيبيين ، وفاز الهكسوس فى أوّل الأمر، واستشهد أمير طيبة فى القتال .



حلى من عصر الهكسوس

طرد الهكسوس من مصر :

ولكن المصريين مافتئوا أن انتصروا بعد قليل، وذلك لأنهم كانوا قد تعلموا الفنون الحربية ، فى أثناء مكافحتهم للهكسوس ، فاستعملوا آلاتهم ، واستخدموا الخيل والعجلات الحربية فى القتال، وأخيرا تمكنوا بقيادة أحد أمراء طيبة، واسمه أحمس، من طردهم من مصر، وتعقّبوهم نحو الشمال، واستولوا على عاصمتهم أفاريس ولم يكتفوا بذلك، بل اقتفوا أثرهم إلى الشام وحاربوهم فيها، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، ثم انتقم المصريون لأنفسهم منهم : فدمّروا معابدهم، ومحوا آثارهم، وهذا هو السبب فى غموض تاريخ هذا العصر .

الباب الرابع

الدولة الحديثة

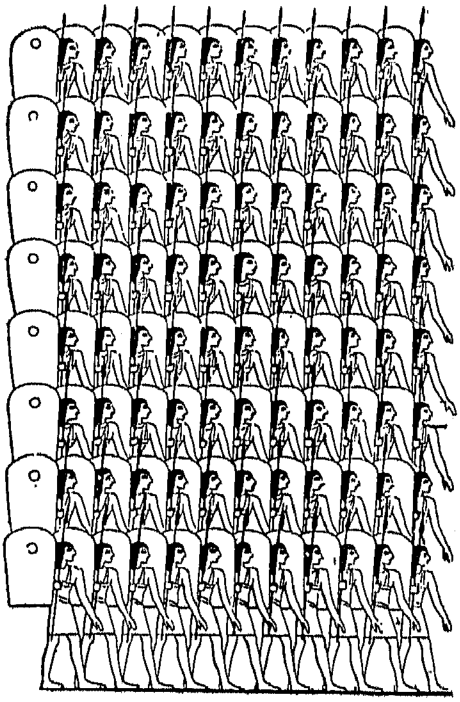
١٥٨٠ — ١٠٨٥ ق.م

الفصل الأول

الأسرة الثامنة عشرة

احمس الأول واستقلال مصر :

تخلصت مصر من الاحتلال الأسيوى البغيض ، ذلك الكابوس الثقيل الذى ناءت بعبئه مدّة تتراوح بين قرن وقرنين من الزمان ، واستردت بلادنا استقلالها ، بفضل همة الملك أحمس وشجاعة أهلها .



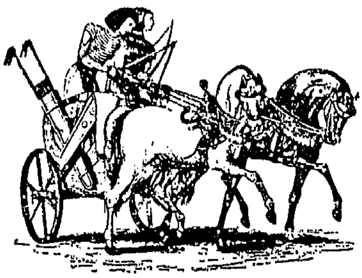
فرقة من الجند المصريين القدماء

ويعتبر أحمس أوّل ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، التى حكمت مصر مدّة قرنين ونصف (١٥٨٠ — ١٣٢٠ ق . م) .

ولقد شاهدت هذه الأسرة حادثين هامين : أولهما ، قيام الامبراطورية المصرية ؛ وثانيهما ، ثورة إخناتون الدينية .

قيام الإمبراطورية المصرية

تعلم المصريون من نضالهم الطويل مع الهكسوس فنون الحرب ، وأخذوا عنهم استعمال الخيل والعجلات الحربية ؛ ومن الغزوات التى قام بها أحمس عدة سنوات فى فلسطين وفينيقيا ، فى أثناء مطاردته للهكسوس ، أدركوا ما عليه الأقطار الأسيوية من ثروة ، فخرجوا من عزلتهم ومالوا إلى الفتح والاستعمار ، وتسلطت الروح العسكرية على نفوس أفراد الشعب حتى الأغنياء منهم ، فقدّموا أنفسهم وأرواحهم فداء لفرعون ، وانخرطوا فى سلك حملاته التى أرسلها لتوسيع حدوده ، وبذلك أصبح لمصر، التى استردّت استقلالها ، ممتلكات شاسعة فى قارتى آسيا وإفريقيا . وكان فرعون يصدر أوامره من طيبة ، عاصمة ملكه ، فيلبيها أمراء كوش عند الشلال الرابع ، على بعد ثمانمائة ميل على طول مجرى النيل، ويطيعها أمراء الشام، فى الشمال الشرقى لمصر، حتى نهر الفرات على مدى يزيد على ألف ميل .



عجلة حربية يجرها جوادان
وفيها أمير ومساعده

الفترة الأولى : (١٥٨٠—١٥١٥ ق.م.)

امنحتب الأوّل

إخضاع النوبة :

عنى فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بإخضاع بلاد النوبة ، وأرسل كل منهم حملة لهذا الغرض ، وللحصول على الذهب الوفير فيها ، فقاد امنحتب الأوّل [1] ، الذى تولى العرش بعد أبيه إحمس ، حملة إليها وصلت إلى ما وراء وادى حلفا .

---

(١) وقد ذكره اليونان باسم أميوفيس .

إخضاع ليبيا :

كذلك وجه امنحتب حملة أخضعت قبائل الصحراء الغربية أو الليبية، ولم يهتم فراعنة مصر بهذا الجزء من أجل خيراته ، فهى قليلة ، وإنما درءًا لأخطار القبائل المتجولة هناك ، إذ كانت هــذه القبائل تهدد سكان وادى النيل من قديم ، أيام الحكومات الضعيفة .

فتح الشام :

ولمــا زال الخطر عن حدود مصر الجنوبية والغربية ، وجّه امنحتب همّه نحو الشام الغنية بأخشابها ، فأرسل إليها حملة يظهر أنها بلغت نهر الفرات .

تحوتمس الأوّل

بلوغه الفرات :

تولى بعد امنحتب ابنه تحوتمس الأوّل ، وزحف هو أيضا على الشام ، مخترقا جبال لبنان ، ولم تستطع الولايات المفككة فى فلسطين والشام صدّ جيوش مصر المدرّبة على القتال ، فبلغت بلاد النهرين ، وهى البلاد الواقعــة بين نهر العاصى " الأورنط " ونهــر الفرات ، وأقام تحوتمس على شاطئ الفرات لوحا تذكاريا ذكر عليه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لممتلكات مصر الأسيوية .

الفترة الثانية : (١٥١٥ — ١٤٥٠ ق.م.)

تحوتمس الثانى

قِصَر عهده :

حكم تحوتمس الأوّل عشرين عاما ، ولمــا مات لم يترك إلا ابنًا لا تنتمى أمه إلى الأسرة المالكة ، هو تحوتمس الثانى ؛ وقد تزوج هذا الابن من حاتشبسوت أخته لأبيه ، وكان يجرى فى عروقها الدم الملكى ، وذلك كى يبرر اعتلاءه العرش ، ولكن عهــده كان قصيرا جدا ، وورثه فى الحكم ابن صغير له عرف بتحوتمس الثالث ، ولم يكن هو أيضا وريثا شرعيا للملك .

الملكة حاتشبسوت

تَشَبُّهها بالرجال :

انتهزت حاتشبسوت هذه الفرصة وأصبحت الوصيَّة على الملِك، وحكمت البلاد باسمه فى أوّل الأمر، ثم أهملته كما أهملت أباه من قبل، نظرا لما كانت عليه من عظم القدرة وصدق العزيمة .



حاتسبشوت فى زىّ الرجال

وقد تزيت حاتشبسوت بزى الرجال وتشبَّهت بهم ، فكانت ترتدى ملابس الملوك فى الحفلات الرسمية ، وتضع لحية مستعارة مثلهم .

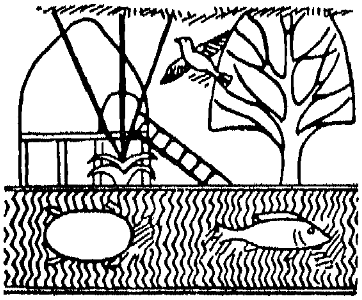
عهد سلم ورخاء :

وفى عهدها ، الذى دام اثنين وعشرين عاما لم تشتغل مصر بالحروب ، وتقدّمت تجارتها ودرّت عليها خيرا وفيرا ، فقد أمرت الملكة ببناء أسطول لها ، لا يقل عن خمس سفن كبيرة تسير بالمجاديف والشراع ، وتسع كل سفينة منها ستين أو سبعين شخصا ، منهم ثلاثون يتولون التجديف بمجاديف طويلة تساعدهم على السير ، سواء أكانت الريح فى اتجاههم أم فى اتجاه مضادٍّ لهم ، واثنى عشر هم البحارة ، والباقون حراس يحملون السلاح ، عليهم حماية السفينة ورجالها من تمرد القبائل التى تخرج للاتجار معهم .

بعثة بلاد بنت "الصومال" :

و بعد أن تم بناء الأسطول ، أرسلته الملكة ، فى بعثة إلى بلاد بنت "الصومال" ، لجلب البخور وأشجار المُرّ ، وزوّدته بهدايا كثيرة لرؤساء القبائل المتبربرة الساكنة هناك .

سارت السفن المصرية شمالا فى النيل ، فى القناة التى حفرها ملوك الدولة الوسطى ، بين النيل والبحر الأحمر ، مخترقة وادى طميلات فى شرق الدلتا ، ثم خرجت فى هذا البحر وسارت حتى وصلت سالمة إلى بلاد پنت ؛ فرحّب بمقدمها الأهالى ، وكانوا قوما سُذَّجا ، يعيشون فى أكواخ تحملها أعمدة مرتفعة عن الأرض ، بسبب كثرة المستنقعات هناك ، وجاء رئيسهم تصحبه زوجته البدينة وأفراد أسرته ليستقبلوا المصريين ،



مسكن أهل پنت

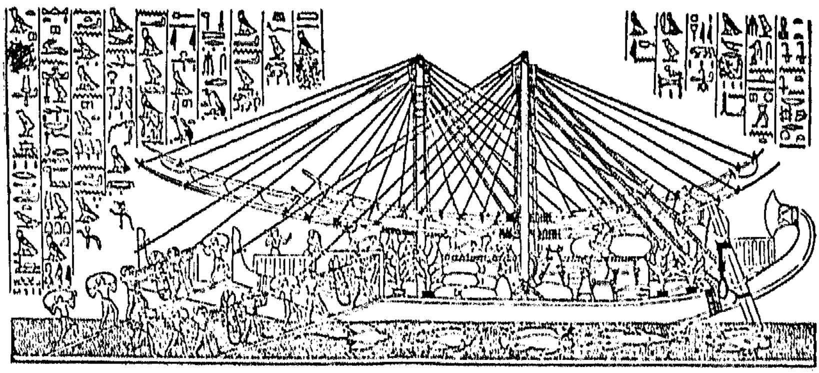
وفرحوا بهداياهم ، وأذنوا لهم أن ينزلوا إلى غابات المر ، يقتلعون منها ما يشاءون ويعبئون من محاصيلها ما يكفيهم ؛ فاقتلع المصريون بعض الأشجار ليغرسوها فى مصر ، طوعا لإرادة الملكة ، وجمعوا قدرا كبيرا من المر ، فى حقائب وضعوها فى سفنهم ، وجاء أهالى البلاد يحملون كثيرا من محصولاتهم من آبنوس وعاج ،



رئيس بلاد پنت وزوجته

وحيوانات غريبة ، من نسانيس وقردة ، ليستبدلوا بها السلعَ التى أحضرها المصريون من بلادهم ؛ وهكذا ظلت روح الود والصفاء سائدة بين الفريقين طول إقامة البعثة المصرية التجارية هناك ، فلما حان وقت رحيلها ، عزّ على بعض الأهالى أن تفارقهم ، وطلبوا أن يرحلوا معها إلى مصر ، فكان لهم ما أرادوا .

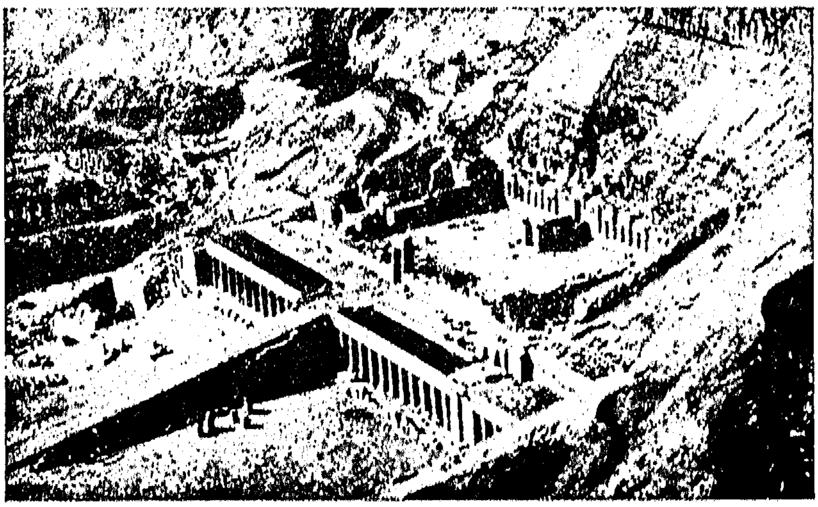
ووصلت السفن المصرية إلى ميناء طيبة سالمة ، فخرج أهلها جميعا يستقبلونها كأنهم فى يوم عيد .



السفن المصرية فى بلاد بنت

معبد الدير البحرى :

وأمرت حاتشبسوت بتصوير أخبار تلك الرحلة وكتابة حوادثها على جدران معبد هائل ، أقامته فى سفح تلال طيبة الغربية ؛ يعرف الآن بالدير البحرى .



معبد الدير البحرى

بعثة الشلال الأوّل :

وجاء أيضا ، فى النقوش الظاهرة على جدران هـذا المعبد ، وصف للبعثة التى أرسلتها حاتشبسوت ، بقيادة مهندسها المحبوب سنموت ، إلى محاجر الجرانيت ، عند الشلال الأوّل ، لمـّا كلفته قطع حجرين كبيرين لصنع المسلتين العظيمتين اللتين أقامتهما بمعبد الكرنك بالأقصر ، ولا تزال إحداهما شاخصة هناك إلى اليوم .

بعثات وادى مغارة :

كذلك أرسلت حاتشپسوت بعثات إلى وادى مغارة بطور سينا ، للبحث عن معادنها واستغلالها . وقديمـا وجّه الفراعنة حملاتهم إلى تلك الجهات لأمرين : أولها الحصول على الملاشيت والنحاس ، إذ أنهما يكثران على بعـد عشرة أو خمسة عشر ميلا من وسط الساحل الغربى عند سرابيط الخادم ، وثانيهما : الإشراف على الطريق الساحلى ، المـار من حصن ثارو ، عند الحدود المصرية ، إلى فلسطين .

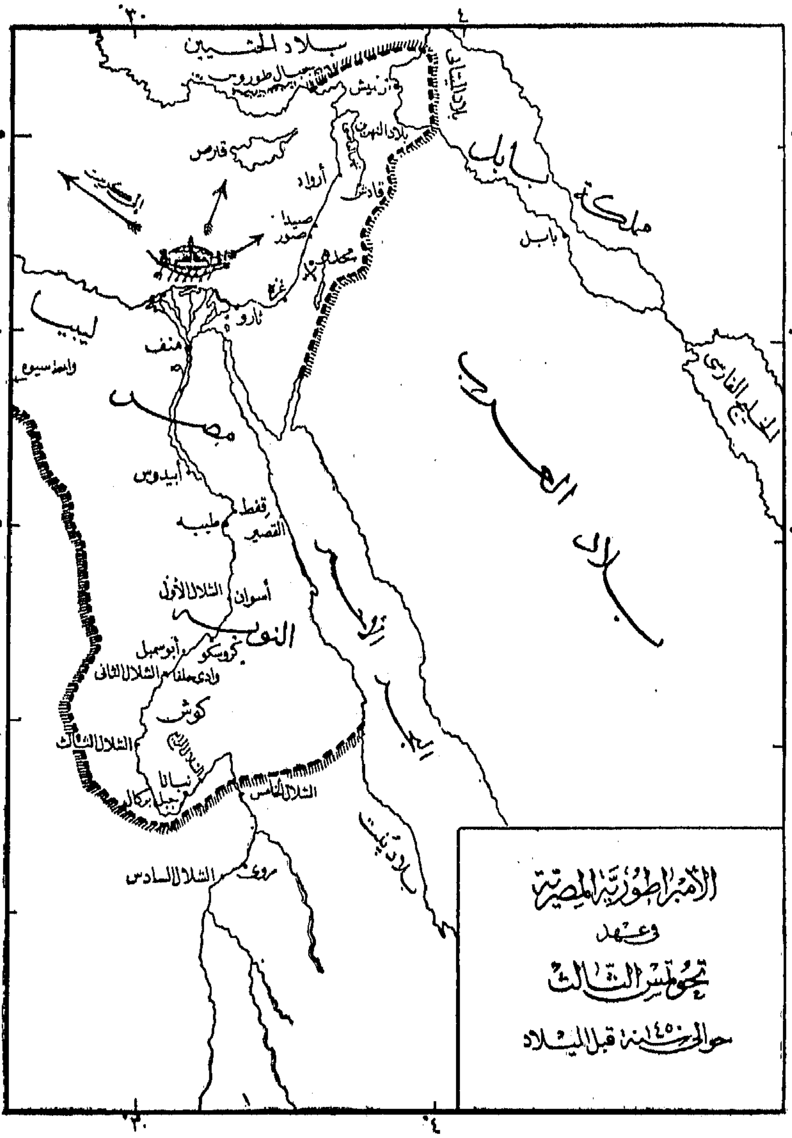
تمرد أمراء سوريا :

هكذا كان عهد حاتشپسوت مصحوبا بالأمن والسكينة ، إلا أن هـذا أدّى إلى ضعف مركزها الحربى . فانتهز أمراء الشام الفرصة ونظّموا حركتهم ضدّ الحكم المصرى ، واتخذوا مركزا لمؤامراتهم مدينـة قادش الواقعة على نهر العاصى ، وكان ملك بلاد ميتانى ، الواقعة وراء نهر الفرات ، يحضهم على العصيان .

تحوتمس الثالث

خُطَّتُـه :

لمـا انفرد تحوتمس الثـالث بعرش مصر ، بعد موت حاتشبسوت ، عزم على القضاء على تمرد الأمراء قضاء تاما ، وتوسيع ملكه وتثبيت سلطانه فى فلسطين والشام ، فتم له ما أراد ، بعد أن قام بسبع عشرة حملة .


الامبراطورية المصرية
وعهد
تحوتمس الثالث
حوالى ١٤٥٠ سنة قبل الميلاد
بلاد الحثيين
جبال طوروس
قبرص
أرواد
صيدا
صور
قادش
غزة
ثارو
منف
ليبيا
واحة سيوة
مصر
أبيدوس
قفط
طيبة
القصير
أسوان
الشلال الأول
النوبة
كروسكو
أبو سمبل
الشلال الثانى
كوش
الشلال الثالث
نباتا
جبل بركال
الشلال الخامس
الشلال السادس
مروى
بابل
مملكة بابل
بلاد العرب
الخليج الفارسى
بلاد بنت

فتوحات تحوتمس :

استولى تحوتمس فى حملته الأولى على مجــدّو ، أما قادش فلم يأخذها إلا بعـد أن بعث خمس حملات أخرى ، وفى الحملة الثامنة ، بلغ نهر الفرات ، وهزم جيشا ميتانيا عند مدينة قرقميش ، وأقام ، على الشاطئ الغربى لذلك النهر العظيم ، لوحة تذكارية إلى جانب اللوحة التى تركها أبوه تحوتمس الأوّل .



تحوتمس الثالث

ولم يكتف تحوتمس الثالث بهذه الحملات الثمانية ، بل أرسل تسع حملات أخرى كى يثبت دعائم فتوحه ، ويبعث الرعب فى قلوب الشعوب المجاورة. وفعلا أرسل إليه ملوك بابل الهدايا الثمينة إظهارا لولائهم ، وكذلك فعل الحيثيون ، وهم سكان مملكة خيتا ، فيما وراء جبال طوروس ، وأرسلت جزيرة قبرص والجزائر اليونانية وبلاد بنت محاصيلها إليه طمعا فى رضائه .

أسباب انتصار تحوتمس الثالث :

وكان جيش تحوتمس رهين إشارته ، وعلى استعداد تام للزحف أينما أراد ، كما كانت موانئ الساحل الفينيق مزودة بالمعدات والذخيرة ، منذ أخضعها بأسطوله الضخم فى غزوته الخامسة ، ولهذا كان من السهل عليه أن ينزل العقاب السريع بكل من حاول عصيانه .



صور أشخاص يمثلون الشعوب التى خضعت لتحوتمس الثالث — فترى النوبى وقد وضع على رأسه ريش النعام والتحف جلد الفهد ، والميتانى وقد ألقى بشال على كتفيه ، والسورى السامى

آثار تحوتمس الثالث :

وقد دوّن تحوتمس أخبار حروبه وانتصاراته على جدران معبد الكرنك ، الذى زاد فى بنـائه . كذلك أقام فى عين شمس مسلتين نقلتهما كليوبتره فيما بعـد إلى الإسكندرية ، فاشتهرتا بمسلتى كليوبتره ، وتقوم إحداهمـا الآن على ضفة نهر التيمز بلندن ، وتقوم الأخرى فى مدينة نيويورك .

كلية الأمراء بطيبة :

لم يكن تحوتمس الثالث قائدا حربيا عظيما فحسب ، بل كان كذلك سياسيا بعيد النظر، فسمح للشعوب الشمالية المتمدينة بالاحتفاظ بحُكامها، على أن يكونوا تابعين لأمبراطوريته، ولكنه فى الوقت نفسه جاء بأبنائهم الى مصر : ضمانا لولاء

آبائهم له ، وليربيهم فى كلية الأمراء، التى أنشأها فى مدينة طيبة، و يغرس فى قلوبهم حب مصر ، حتى إذا آل إليهم حكم بلادهم ، بعد موت آبائهم ، عادوا إليها وتسابقوا فى خدمة فرعون ، وأصبحوا من أتباعه المخلصين ، يدفعون له الضرائب و يتطلعون إليه ليحميهم من الأعداء .

نتائج أعماله :

هكذا شيّد تحوتمس الثالث الأمبراطورية المصرية وأقامها على أساس متين ، واقتدى به الفراعنة ، الذين تولّوا الحكم من بعده ، فاتبعوا هذا النظام طول أيام الامبراطورية ، و بهذا قضت مصر على الفتن والثورات والمؤامرات التى هدّدتها حينا من الدهر ، كما مدّت يد المعونة لأتباعها المخلصين .

أمنحتب الثانى وتحوتمس الرابع

تأديب أهل الشام :

ولكن على الرغم مما بذله تحوتمس الثالث من مجهود فى إخضاع الشعوب المجاورة ، فقد كان من الضرورى أن يبعث ابنه أمنحتب الثانى[1] ثم حفيده تحوتمس الرابع ، اللذين خلفاه حملة تأديبية إلى الشام ، ضمانا لنفوذهما وإرهابا لمن تحدثهم نفسهم بالعصيان .

أول مصاهرة سياسية :

وانتهز تحوتمس الرابع فرصة إرسال حملته ، إلى تلك الجهات و بدأ علاقات سياسية ودية مع مملكة ميتانى ، الواقعة وراء نهر الفرات ، وكانت قد أخذت تخشى قوة جيرانها الحيثيين ، فتزوج من ابنة ملكها ، وهذا أول مثل لاتحاد سياسى يقوم على المصاهرة بين أسرتين ملكيتين . و يقال إن هذه الأميرة الميتانية هى أم أمنحتب الثالث ، الذى خلف أباه تحوتمس الرابع على عرش مصر .

---

(١) يقول فريق من المؤرخين أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى عهد أمنحتب الثانى .

الفصـــل الثـالث

طيبة فى أوج عزها

أمنحتب الثـالث

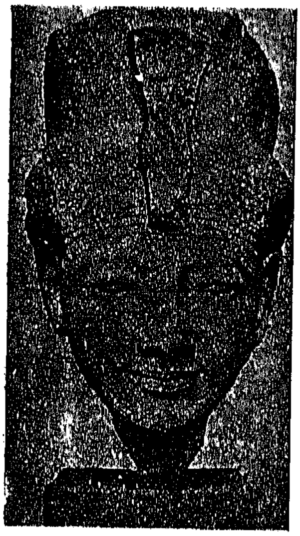
ورث أمنحتب الثالث أمبراطورية شملها السلم وتمـاسكت أطرافها ، بفضل تلك التقاليد الحكيمة التى وضع أسسها تحوتمس الثالث .

صـــفاته :

كان أمنحتب قائدا قديرا ، وصيادا ماهرا له ولع خاص بصيد الأسود ، ويروى أنه قتل منها فى أثناء حكمه مالا يقل عن مائة أسد .

مظاهر الترف فى عهده :

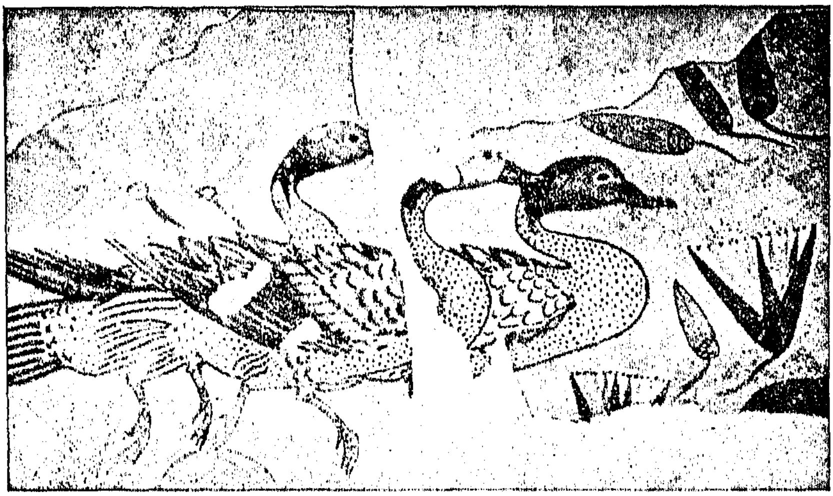
وتزوج أمنحتب من سيدة شهيرة ، تعرف بالملكة تى ، كان لها عليه سلطان كبير ؛ وبلغ من إكرامه إياها أن أنشأ لهـا بركة جميلة للنزهة وعاش معها فى قصره الفخم ، فى طيبة ، فى ترف ونعيم ، تحيط به مظاهر الأبهة والعظمة ، ولمـا فحصت مومياؤه تبين أنه قضى شطرا من حياته يشكو ألمـا فى أسـنانه ، ولم يعرف الأطبـاء المصريون إذ ذاك كيف يعالجونه .



الملكة تى زوجة امنحتب الثالث ، وعلى رأسها حية مقدسة رمز الملكية

وبهذه المناسبة نذكر أن فحص الجماجم والموميات دل على أن أسنان المصريين الأوائل كانت فى حالة جيدة ، ثم بدأت تضعف لمـا ظهر الترف فى معيشتهم ، فالأشراف ، الذين عاشوا فى عصر بناة الأهرام ، كانوا يشكون من الأسنان الرديئة ، أما الفقراء فكانوا أحسن حالا من هذه الناحية ، وذلك لبساطة طعامهم .

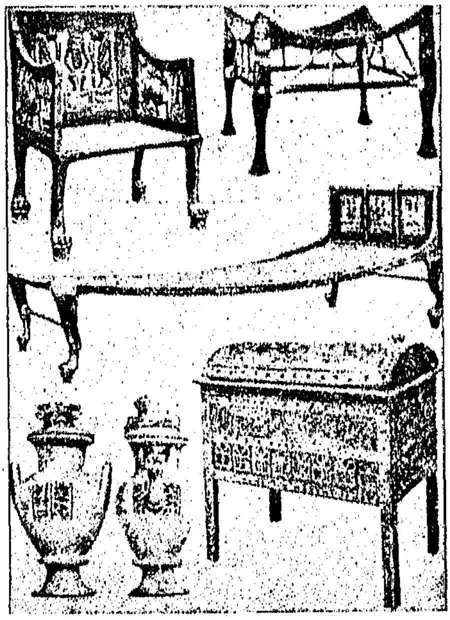
وتدل معيشة الأشراف فى عصر أمنحتب على رخاء عظيم ؛ فقد كانت جدران



رسم بط عائم بين زهر اللوتس — قطعة من أرض قصر أمنحتب الثالث

حجرهم محلاة بالنقوش الجميلة ، كما أن أرضها كانت من بلاط ملون ، تغطيه أفخر البسط ، أما أثاثها فكان من طراز بديع مطعم بالعاج ومرصع بالأحجار الكريمة .

وكان الأشراف إذا جلسوا للطعام يستعملون أباريق وآنية من الذهب والفضة ، وأكواب من البلور ، وصحافا من الخزف المذهب ، بينما كان الموسيقيون يشنفون أسماعهم بأغانيهم وباللّعب على القيثارة وغيرها من الآلات الموسيقية ، ويقوم على خدمتهم فى أثناء الطعام عدد كبير من الخدم .



أثاث وجد فى مقبرة الملكة تى ، زوجة أمنحتب الثالث ، والصندوق مطعم بالذهب والأبنوس والعاج

عنايتـه بالعمارة :

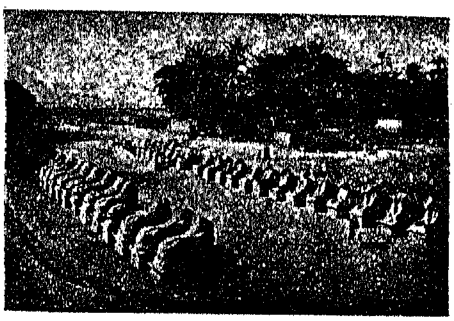
ومما لا شك فيـه أن مصر بلغت فى عصر أمنحتپ الثـالث ذروة مجدها ، وكان المـال يتدفق إلى خزائن فرعون ؛ فينفق منـه الكثير على الإصلاح : فارتق فى زمنه فن البناء والنقش والتصوير ، واتسعت مدينة طيبة اتساعا عظيما ، وكثرت بهـا القصور الفخمة ؛ والواقع أن القسط الأكبر من الشهرة العظيمة التى نالهـا أمنحتب الثالث يرجع إلى عنايته بالعمارة .

معبد الإلهـة "موت" بالكرنك :

زاد أمنحتپ الثالث كثيرا فى معابد طيبه : فبنى على الشاطئ الشرقى للنيل ، إلى الجنوب من معبد آمون بالكرنك ، معبدا خاصا للآلهـة موت ، زوج الإله آمون ، وحفر إلى جواره بحيرة مقدّسة .

معبد الأقصر وطريق الكباش :

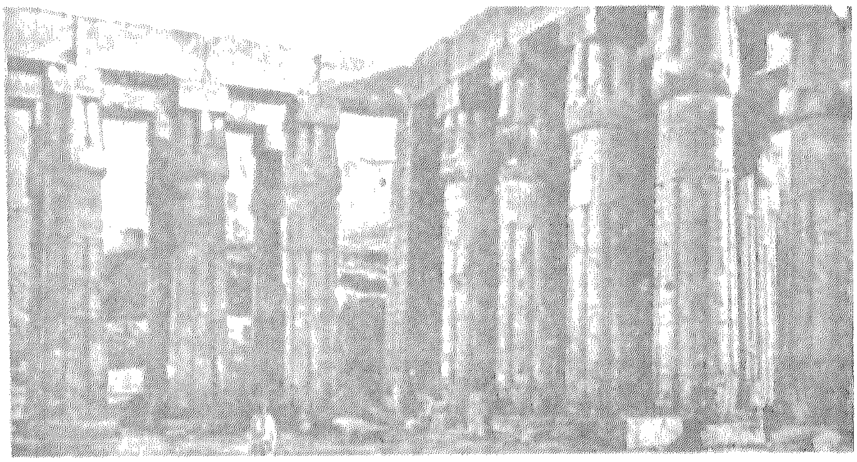
وبنى معبدا آخر للا له آمون فى الأقصر ، ثم وصل هـذا المعبد ومعبد الكرنك بطريق أقام على جانبيه تمـاثيل حجرية لكباش جاثية ، بين أرجلها تماثيل صغيرة للملك ، وكانت تسير بينها المواكب حاملة تمـاثيل الآلهة فى المواسم والأعياد .



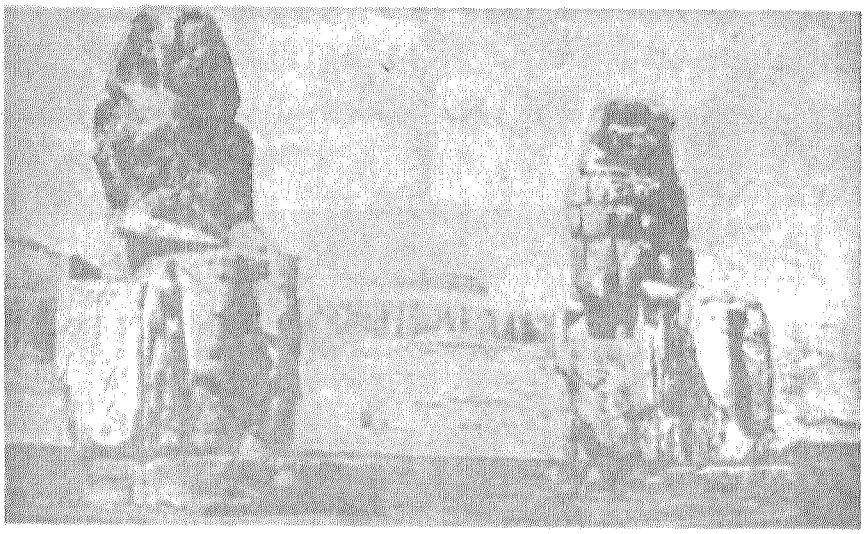
طريق الكباش — معبد الكرنك

المعبد الغربى وتمثالا ممنون :

وعلى الضفة الغربية للنيل شيد أمنحتب الثالث معبدا هائلا لم يبق منه سوى تمثالين أقامهما تجاه مدخله : أحدهما يمثله ملكا للشمال، والآخر ملكا للجنوب ،

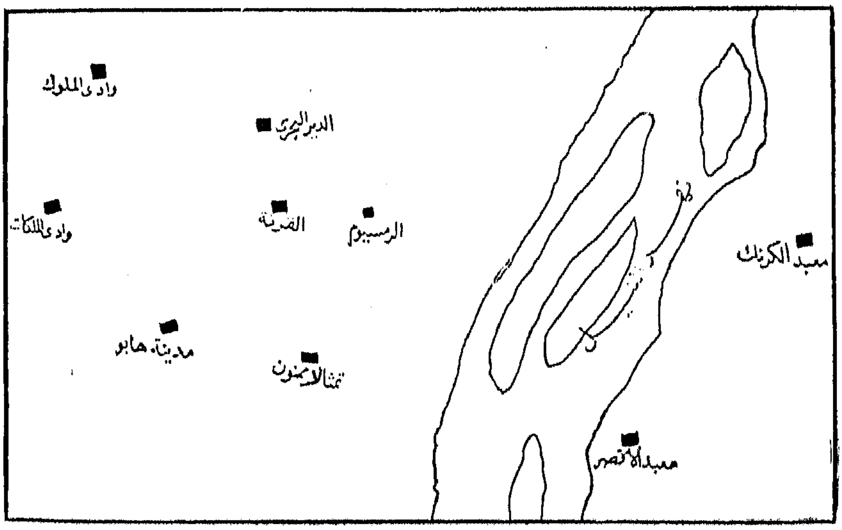


جزء من معبد الأقصر ، أسسه امنحتب الثالث ، وترى هنا بعض الأعمدة التى تحيط بساحة المعبد ، وهى على شكل باقات براعيم البردى



تمثالا ممنون

ويزيد ارتفاع كل منهما على عشرين مترا . وقد تصدّع التمثال الأول إثر زلزال حدث سنة ١٢٧ ق.م، ومنذ ذلك الحين لوحظ خروج نغمة منه، عند الشروق، منشؤها تبخر النـدى الذى يتجمع داخله فى أثناء الليـل ؛ ونسبت الأساطير (الميثولوجيا) اليونانية والرومانيـة ذلك الصوت إلى ممنون ، وهو من شهداء حرب ترواده وابن اورورا، أى الشفق، بجعلته بصورة ذلك التمثال، وهو بصوته يحيي أمّه ، وتجود هى عنـد سماع هذا الصوت بدموعها اللؤلؤية ، أى الندى ، ولذا فالتمثالان يعرفان بتمثالى ممنون. وتشاهد على التمثال الشمالى، لا سيما على ساقه اليسرى، نقوش يونانية خطّها السياح اليونان، الذين زاروا مصر فى عهد الرومان لسماع ذلك الصوت الموسيقى ، الذى كان ينبعث منه كل صباح . ويروى عن الامبراطور هادريان أنه ، فى سنة ١٣٠ م ، قضى عدّة أيام فى طيبة مع زوجه وحاشيته لسماعه . وقد بطل خروج هذا الصوت منذ أصلح أحد الأباطرة الرومان بناء الأجزاء العليا من التمثال .



خريطة تخطيطية لمدينة طيبة تبين مواقع أهم آثارها

الفصل الثالث

الانقلاب الدينى

١٣٧٠—١٣٤٠ ق . م

امنحتب الرابع " إخناتون "

صفاته :

تولى بعد امنحتب الثالث ابنه امنحتب الرابع ، وله من العمر خمسة عشر عاما ، ولم يكن مغرما كأبيه بالحرب أو مولعا بالصيد ، ولكنه كان شاعرا خياليا ، ومصلحا دينيا ، حكم مصر حوالى سبعة عشر عاما ؛ وكانت زوجته ، الملكة نفرتيتى ، أميرة نادرة الجمال ، وكان يقضى معها ومع أمه الملكة تى ساعات طوالا فى مناقشات فلسفية .


اخناتون

ديانة قرص الشمس :

كانت عبادة آمون عقيدة مصرية بحتة ، تقوم على رموز وإشارات لا يفهمها سكان البلاد المختلفة ، التى تكونت منها الإمبراطورية المصرية ، ولا أولئك الذين نزحوا إلى مصر واختلطوا بأهلها وصاهروهم .

وكان من الضرورى إذاً لهذه الشعوب المتباينة من دين أعمّ وأقربَ إلى الفهم من دين آمون ؛ فاقتبس أمنحتب الرابع عبادة الشمس فى شكل مادى محسوس فمثل إلهها فى صورة قرص تخرج منه أشعة ينتهى كل منها بيد آدمية توزع الضوء والحرارة على الناس .

أصل ديانة آتون :

وليست هــذه الديانة الجديدة — وتسمى ديانة آتون — من ابتكار أمنحتپ الرابع ، فقد ظهرت فى عهد الملك تحوتمس الرابع، الذى تزوج من ابنة ملك ميتانى ، أى فى الفترة التى عظم فيها النفوذ الأسيوى فى مصر وظهرت الحاجة ماسة إلى وجود دين عام يفهمه المصريون والأجانب على السواء، ونمت ديانة آتون فى عهد أمنحتپ الثالث، فأبدى ولعا خاصا بها، حتى أطلق اسم "مجد آتون" على القارب الذى كان يتنزه فيه مع زوجتــه فى البحيرة التى حفرها على مقربة من قصره بطيبة .

أمنحتپ الرابع وديانة آتون :

ثم انتشرت هذه الديانة فى أول عهد أمنحتپ الرابع انتشارا سريعا ، وذلك لسببين : أحدهما شخصى ، وهو تحمس الملك لهذه الديانة ، والآخر سياسى ، وهو أن كهنة آمون أخذوا يزيدون من نفوذهم الدنيوى حتى أصبحت لهم سلطة كبيرة فى الحكومة ، وخرجوا بذلك عن مهمتهم الدينية الأصلية .



أخناتون مع زوجه وأطفاله

ولما كان فى هذا ضرر للحكم وإفساد للنظام فقد رأى أمنحتپ الرابع أن خير وسيلة لإضعافهم هى إبطال عبادة آمون، وترك "مدينة طيبة" موطن هذه العبادة . وقــد نفذ ذلك فعلا فى السنة الرابعة من حكمه ، فأعلن أن ليس هناك إلا إله

واحد يسيطر على العالم بأسره ، وتمثل قوته فى قرص الشمس المضىء "آتون" ولما لاحظ أن اسم أمنحتب معناه "راحة آمون" كره سماعه وكره نقشه على الآثار ، فجعل اسمه إخناتون ومعناه "بهاء قرص الشمس آتون"، وحرّم عبادة إلهه الجديد فى شكل تماثيل ، إذ قال إنه كائن فى كل شىء ، ولذا لم يصنع لهذا الإله تمثال قط ، ونظم إخناتون الأناشيد لإلهه ، وإليك أمثلة منها :

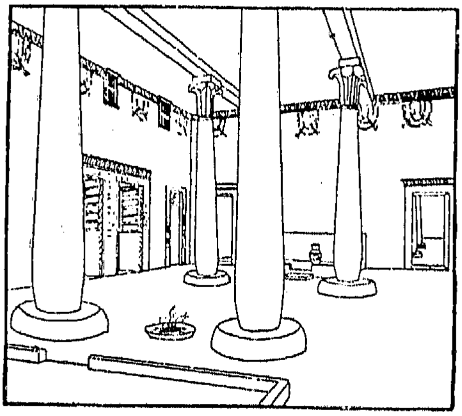
"حين تستريح ، تصير الأرض فى ظلام كأنها ميتة : فالناس ينامون فى غرفهم ولا ترى عين من عيونهم أخرى ، وربما تُسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم دون أن يحس بذلك أحد منهم ؛ وإذ ذاك تخرج الأسود من كهوفها ، والثعابين من أوكارها ؛ فالأولى تفترس ، والثانية تنهش ؛ ويعم الظلام ، فيمسى العالم كأنه فرن مظلم ، وتصمت الأرض صمتا تاما . ولكن حين تقذف بسهامك ، يتمزق الظلام ، فيستيقظ الناس وينهضون على أقدامهم ، وإنما أنت الذى تنهضهم ، ثم يغسلون أعضاءهم ، ويعبدون بأيديهم إشراقك ، ثم تأخذ الأرض جميعها فى العمل".

"ما أكثر الأشياء التى خلقتها : بإرادتك خلقت الأرض والإنسان والحيوان وجميع المخلوقات الصغيرة ، وكل ما يمشى على رجليه أو يطير بجناحيه ، وكذلك خلقت أرض سوريا وبلاد النوبة ، فضلا عن أرض مصر" .

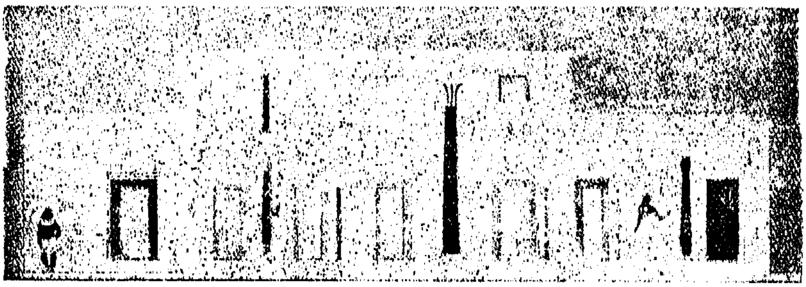
مدينة اخيتاتون (تل العمارنة) :

هجر الملك طيبة وبنى إلى الشمال منها ، على الشاطئ الشرقى للنيل ، عاصمة جديدة سماها "اخيتاتون" ومعناها أفق قرص الشمس ، وموقعها الآن بلدة تل بنى عمران ، الشهيرة بتل العمارنة ، شرقى النيل تجاه محطة دير مواس ، بمديرية أسيوط ، وقد بنيت كل مبانيها من اللبن ، فقامت فيها المعابد المكشوفة للإله آتون ، ودواوين الحكومة ، ودور سجلاتها ، والجامعة ، وكانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة "بيت الحياة" ، وكان للملك فى هذه العاصمة ثلاثة قصور ، يقع أكبرها فى شماليها ، وبيت للوزير يحوى ثلاثين حجرة ، وقصور للأشراف والكهنة ، وبيوت صغيرة لأصحاب المهن والحرف . واخترق المدينة ثلاثة شوارع رئيسية ، سارت فى موازاة النهر ، كذا حارات ضيقة متعرجة . وامتدت سوقها من وسطها إلى حافة النهر ، وإلى الخلف منها بنيت مخازن الغلال ، وتليها المقابر ، وقد نحتت

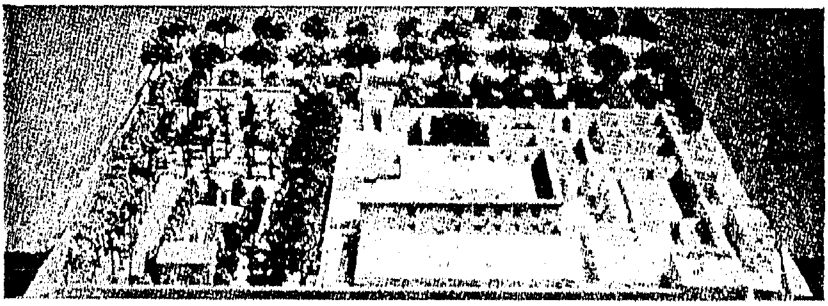
فى الصخور فى جهتين بعيدتين ، وقامت إلى جوارها معابدها الجنازية ، وعلى مقربة من هذه بنيت مساكن خدم المقابر وحرّاسها ، وخططت تخطيطا



صورة تكوينية لبيت وزير فى تل العمارنة ، كانت الأعمدة الأربعة مصنوعة من الخشب وتقوم على قواعد حجرية تدل بقاياها على أنها كانت مدهونة باللون الأزرق

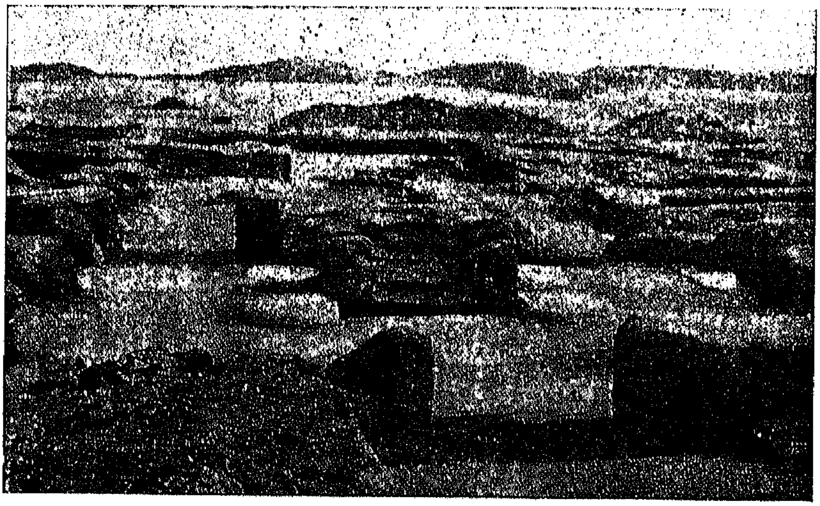


بيت فى تل العمارنة كما كان أيام اخناتون



بيت نبيل فى تل العمارنة ، وقد ظهرت فيه حديقته ومخازن غلاله

دقيقا ، فكان عددها ٧٢ منزلا ، كلها متشابهة تشابها يكاد يكون تاما وقائمة في شوارع مستقيمة .

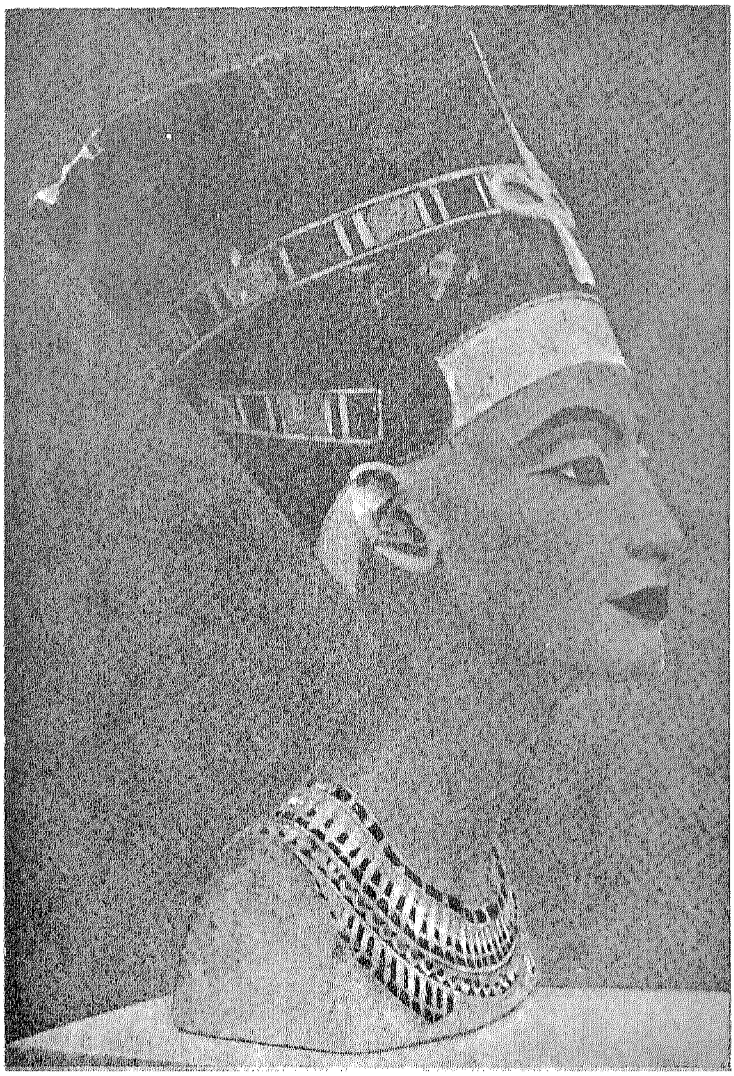


بقايا بهو الاستقبال فى قصر فى تل العمارنة

ولما بنيت العاصمة الجديدة ، أعلن أمنحتب الرابع أنه لن يتركها قط ، وأنه سيكرس نفسه لتعليم الديانة الجديدة للناس ، ولعبادة إله واحد ، هو "آتون" . وذهب به تحمسه إلى سن قوانين يحرم بها عبادة الآلهة القديمة فى جميع أرجاء الأمبراطورية المصرية ، فخسر الكهنة بذلك مصدر ثروتهم ونفوذهم وأغلقت معابدهم .

تفكك الامبراطورية المصرية :

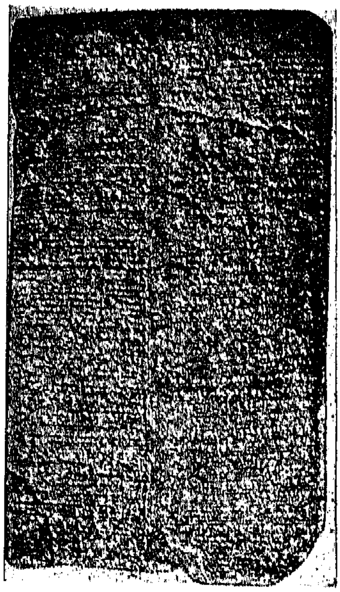
ولما أدرك سكان آسيا الصغرى والشام أن فرعون مصر قد أصبح معلما دينيا ، لا رجلا حربيا ، قاموا بالثورات فى بلادهم ، فبعث الاوفياء من حكامهم إلى إخناتون يطلبون النجدة ، لكنه اكتفى بالرد على رسائلهم دون أن يسعفهم بالمدد الحربى ؛ وكانت النتيجة أن خسرت مصر معظم أملاكها فى آسيا ، كما فقدت الثروة الهائلة التى درتها عليها الجزية التى كانت ترد إليها بانتظام من أتباعها منذ سنوات .



تمثال الملكة نفرتيتي

رسائل تل العمارنة :

وقد عثر، فى سنة ١٨٨٦ ، ببلدة تل العمارنة على كثير من هذه الرسائل، وهى عبارة عن قوالب من الطين مكتوبة بالخط المسمارى البابلى [١] .



نموذج من رسائل تل العمارة

نفرتيتى والانقلاب الدينى :

ولم يكن إخناتون وحده متحمسا لهـذا الانقلاب الدينى فقد ساعدته زوجه الملكة نفرتيتى ، وكانت أكثر منـه ميلا للدين الجديد وأشد تعلقا به . والظاهر أن الملك ، فى أواخر عهـده ، ترك العقيدة الجديدة، وحاول إرضاء كهنة آمون فغضبت لذلك زوجته نفرتيتى وهجرته ،وعاشت وحدها فى قصر فخم، قام فى أقصى أطراف المدينة من جهة الشمال ، وأطلقت عليه اسم " قصر آتون " .

(١) كانت هذه المراسلات تنقش على قوالب من الطين بقلم من المعدن ، ذى قطاع مستطيل ، ثم تحرق القوالب؛ وكانت الرسالة توضع داخل مظروف من الطين يحرق أيضا ، ولا بد من كسره قبل فض الرسالة .

خلفاء إخناتون

الملك توت عنخ آمون

توليته :

أشرك إخناتون معه فى الحكم، منذ هجرته نفرتيتى ، زوج ابنته الكبرى، إذ لم يكن له أولاد ذكور ؛ ثم مات إخناتون ، بعد ذلك بثلاث سنوات ، ولم يعمر صهره ، فخلفه توت عنخ آمون ، زوج ابنة إخناتون الثانية .

تركه ديانة آتون :

ظل توت عنخ آمون يسكن تل العمارنة ثلاث سنوات ، بقى مخلصا فى أثنائها للمذهب الآتونى ، ثم ترك هذه المدينة بعد حادثة لا نعرفها ، ولعله لم يستطع مقاومة كهنة آمون نظرا لصغر سنه ، وقصد طيبة ، حيث هجر ديانة آتون ، وقدم ولاءه لكهنة آمون ، ومنذ ذلك الوقت عُرف باسم توت عنخ آمون .

طيبة فى عهده :

عاد إلى طيبة عزها ورخاؤها بعودة الملك وحاشيته إليها ، ففتحت المعابد وأصلحت .

حروبه :

أرسل توت عنخ آمون جيشا إلى فلسطين ليحارب أعداء مصر ويدرأ عن بلاده خطر الغزو الأجنبي .

مقبرة توت عنخ آمون :

ولما مات توت عنخ آمون دفن فى مقبرة بوادى الملوك ، الواقع بين تلال غربى النيل تجاه الأقصر ، وهو الوادى الذى اتخذه ملوك مصر مقرا لمدافنهم مدى خمسمائة عام ، وتمتد هذه المقبرة مسافة ستة عشر مترا فى جوف الصخر ، وتبلغ مساحتها ستة وتسعين مترا مربعا ، ونظرا لصغر حجمها يرجح أن توت عنخ آمون مات بجأة ، قبل أن تعدّ له مقبرة عظيمة كأسلافه ، فدفن فى المقبرة الصغيرة التى يحتمل أنها كانت معدة لرئيس وزرائه ، الذى خلفه على العرش .



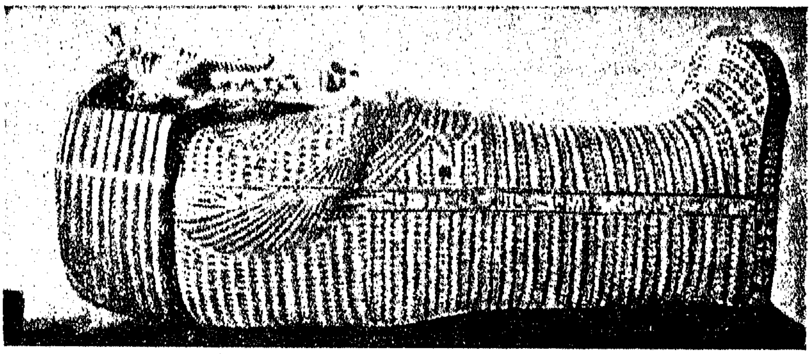
توت عنخ آمون

كشف المقبرة سنة ١٩٢٢ :

وقد كَشَف عن هذه المقبرة مستر هوارد كارتر ، فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، بعد أن ظلّت مجهولة ٣٠٠٠ سنة ، ولوحظ أن الطريق المؤدّى بين بابها الخارجى وبابها الداخلى كان مسدودا بالأحجار ، حرصا عليها من عبث اللصوص بها ، إلا أن اللصوص استطاعوا أن يتسللوا إليها عن طريق بفجوة حفروها خلال الأحجار الموجودة بين البابين ، وبعد أن حملوا من الصناديق المحفوظة بالمقبرة بعض كنوزها تركوا كل شىء مبعثرا ، إذ كشفت السرقة على الفور ، ودخل المقبرة خدم فرعون وحاولوا أن يُرتّبوها من جديد ، وسدّوا الفجوات التى نقبها اللصوص وردموا بابها وحاولوا إخفاءه ، واندثرت معالمه بمرور الزمن ، وبنيت فوقه أكواخ لعمال كانوا يشيدون مقبرة لفرعون آخر فيما بعد .

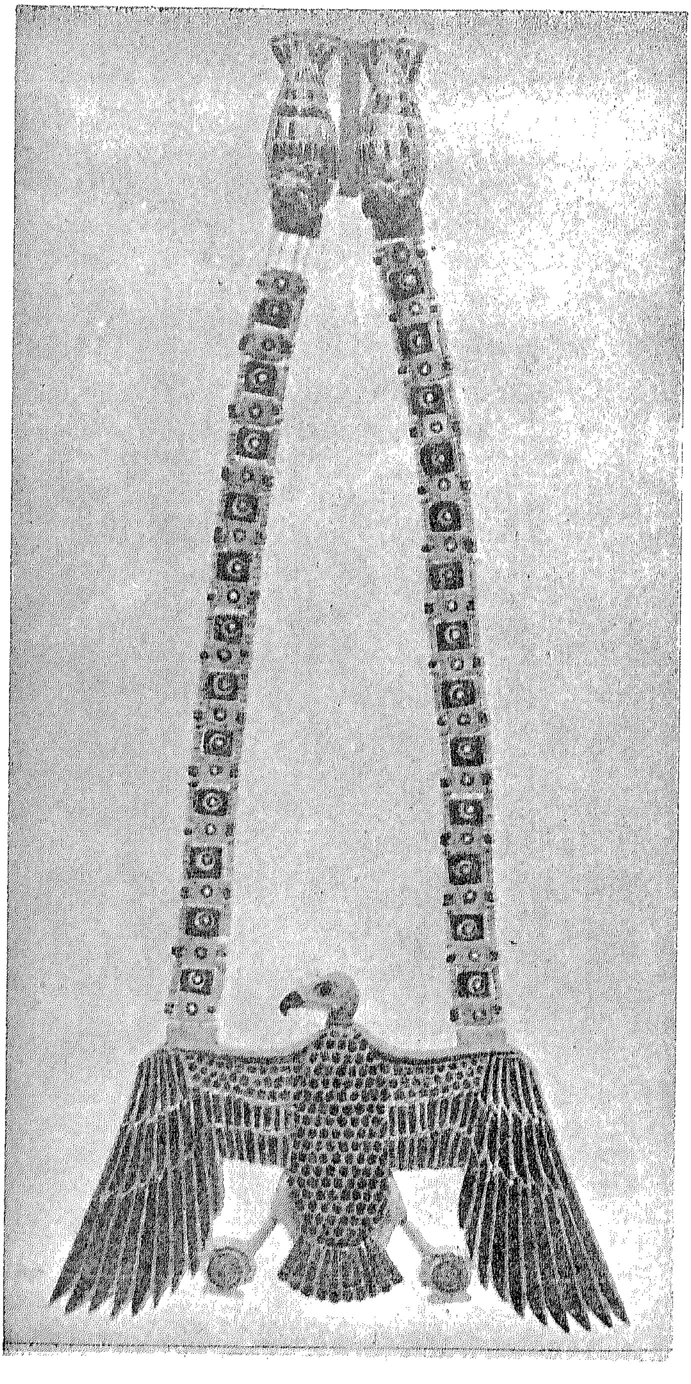
محتويات المقبرة :

وعند ما ألقى مستر هوارد كارتر ومُموله اللورد كارنارفون النظرة الأولى على داخل المقبرة عرتهما الدهشة، لما كان بها من كنوز ثمينة ، ولكنهما وجدا السُّرر والعروش والمقاعد والصناديق والعجلات متراكمة بجميعها فى حجرة منحوتة من الصخر ، ولاحظا وجود فجوة استنتجا منها أن اللصوص لا بد وأن يكونوا قد انسلوا منها إلى الحجرة الداخلية ، فلما ألقيا عليها شعاع النور الكهربائى رأيا كل شىء مبعثرا ، لأن اللصوص رمَوا بمحتويات الصناديق ، بينما كانوا يبحثون عن الحلى وغيرها من الأشياء المصنوعة من الذهب والفضة مما يَسْهُل عليهم حمله .



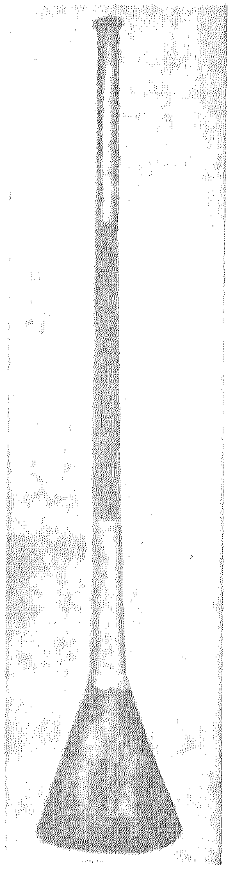
ثانى التوابيت الثلاثة التى وضعت بها مومياء توت عنخ آمون

وقد عثر فى المقبرة على تابوت من الذهب الصلب يحوى مومياء الملك ، و إذا صهر هذا التابوت و بيع فإن ثمنه يبلغ أن بعين ألف جنيه ، أما قيمته من الوجهة الأثرية فلا تقدّر بمال ؛ وكان هذا التابوت الذهبى موضوعا داخل تابوت آخر من الخشب ، غطى سطحه بصفائح من الذهب وطُعِّم بزجاج متعدّد الألوان ، ثم وضع الأخير بدوره داخل تابوت ثالث، يشبه التابوت الذهبى، لكنه صنع من الخشب وغطى بالذهب ؛ وقد وضعت هذه التوابيت الثلاثة المتداخلة على سرير من الخشب المذهب داخل تابوت من الحجر .

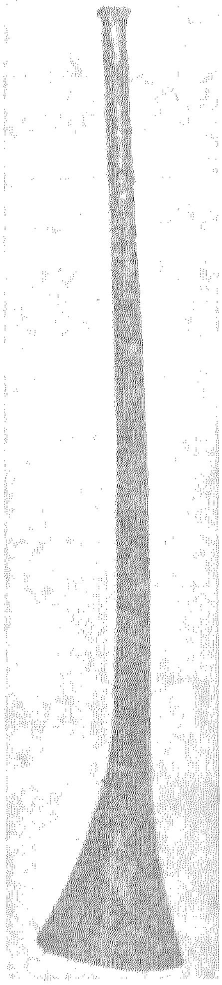


قلادة للملك توت عنخ آمون

وقد نقلت هذه التوابيت مع غيرها من الأشياء الكثيرة التى وجدت بالمقبرة إلى المتحف المصرى بالقاهرة . وتعطينا كلها فكرة واضحة عن ترف ملوك الأسرة الثامنة عشرة وأمرائها ، كما تشهد دقة صناعتها وجمالها بمهارة صناع ذلك العصر .



بوق توت عنخ آمون
المصنوع من البرونز



بوق توت عنخ آمون
المصنوع من الفضة

الملك آى

تولى بعد توت عنخ آمون الملك الكاهن "آى" وحكم مدة قصيرة، لا تزيد على ثلاث سنوات .

حار محب

نشأته :

ينتسب حار محب إلى عائلة قديمة من الأشراف ، وكان فى الأصل قائدا من قواد إخناتون ، أرسله فى أواخر عهده إلى آسيا ، فاستطاع بمهارته وحذقه أن يحافظ على فلسطين لمصر ، ولا شك فى أن شهرته الحربية أكسبته سلطة كبيرة فى البلاد وأغدق عليه أخناتون وخلفاؤه الألقاب والمنح ، فكان الحاكم بأمره فى عهد الملك آى ، وفضلا عن ذلك فاز حار محب بمحبة كهنة آمون بطيبة ، لأنه أدرك خطر ديانة آتون على البلاد ، فتودّد إليهم وعمل على إرضائهم .



حار محب

توليته :

ولما مات آى الضعيف اعتلى عرش مصر بسهولة ، وتزوج من سيدة تنتمى إلى الأسرة المالكة ، كى يكسب توليته صبغة شرعية .

محو آثار ديانة آتون :

عزم حار محب على تنظيم بلاده ، فوجه عنايته أولا إلى محو كل آثار ديانة آتون ، فهدم هياكلها ، وأعاد اسم آمون إلى كل مكان . وليس من شك فى أن اضطهاده للآتونية كان سببه سياسيا أكثر منه دينيا ، فلم تكن الدعوة إلى ديانة آمون سوى وسيلة يستعان بها على صرف النظر عن كونه ليس من دم فرعونى .

إصلاح الإدارة :

ولم يقتصر حار محب على هدم أعمال سلفه ، بل عمل على إصلاح الإدارة فى البلاد ، بعد أن اعتورها الفساد منذ عهد إخناتون ، حين انتهز حكام الأقاليم انشغاله بأبحاثه الدينية فراحوا يبتزون الأموال من الفقراء ، وانتشرت الرشوة بينهم ، وفشا الاختلاس ، فقضى حار محب على هذه المساوئ كلها ، وسن قانونا صارما لمعاقبة الموظفين الماليين والإداريين ورجال القضاء الذين يخرجون عن سلطتهم و يضطهدون الشعب ، وطاف بنفسه فى أنحاء الإمبراطورية حتى يتحقق من تطبيق هذا القانون ، وكانت تحدوه فى كل ذلك الرغبة الصادقة لضمان رفاهية أهل مصر وسعادتهم .

والواقع أن الإصلاحات التى قام بها حار محب لترقية الإدارة لا تقل فى أهميتها عن أعمال الفراعنة الفاتحين ، أمثال تحوتمس الثالث .

أهمية الأسرة الثامنة عشرة :

و بموت حار محب انهار صرح الأسرة الثامنة عشرة ، التى امتازت فى العالم بعظمتها ومجدها ، وحكمت مصر قرنين ونصفا ، و يكفيها فخرا أنها بدأت عصرها بطرد الهكسوس ، وأسست أقدم امبراطورية شرقية عرفها التاريخ ، وأنتجت أفكارا دينية سامية ، وأحسنت إدارة البلاد .

الفصل الرابع

الاسرة التاسعة عشرة — استئناف الفتح والاستعمار

١٣٢٠ — ١٢٠٠ ق.م

رمسيس الأوّل

توليته :

تولى رمسيس الأول الحكم بعد حارمحب ، وأسس الأسرة التاسعة عشرة ، وكان رجلا طاعنا فى السن ، فلم يدم حكمه سوى عامين. ولسنا نعرف بالضبط العلاقة بينه وبين حارمحب ؛ ولكن يغلب على الظن أنه كان صاحب حق فى وراثة العرش الفرعونى ، إذ لم يكن من السهل على شيخ مثله الاستيلاء على الملك بسهولة فى تلك الأزمنة ، كذلك لم يقترن انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى باضطراب ما. وينتسب الملك الجديد إلى أسرة قوية من بلدة تانيس (صان الحجر ، مركز فاقوس مديرية الشرقية) .

تأسيس بهو الأعمدة بالكرنك :

لم يقم رمسيس الأول بشىء يستحق الذكر ، اللهم إلا أنه بدأ فى تشييد بهو الأعمدة العظيم بالكرنك ، ولكن عاجلته المنية ، فأتمه خلفاؤه من بعده ، وكان أولهم ابنه سيتى الأوّل .

سيتى الأوّل

حروبه :

حكم سيتى الأوّل مصر أكثر من عشرين عاما ، حارب فى أثنائها فلسطين والشام ، وزحف شمالا على الحيثيين ، وكان هذا أول التحام بينهم وبين مصر ، فهزم فرعون جيوشهم ، وعقد مع ملكهم معاهدة ودّية . كذلك حمى سيتى الأوّل مصر من الليبيين الذين كانوا يغيرون على الدلتا .

عدله :

وعنى سيتى الأول مثل حارمحب بالاصلاح الداخلى ، فنشر العدل بين الرعية ، وعاقب الموظفين الذين أساءوا استعمال سلطتهم .

معبد ابيدوس :

ولسيتى الأول معبد عظيم فى أبيدوس (العرابة المدفونة ، مركز البلينا) ، دون على جدرانه أسماء الملوك ، الذين حكموا مصر قبله ، ابتداء من الأسرة الأولى .

بهو الأعمدة :

وبنى سيتى أيضا جزءا كبيرا فى بهو الأعمدة العظيم ، الذى أسسه أبوه فى الكرنك ونقشه بالرسوم البديعة التى تمثله منتصرا فى حروبه ، ولكنه مات قبل أن يتمه .



حجرة التابوت فى مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك

مقبرة سيتى الأوّل :

دفن سيتى الأول فى مقبرة بوادى الملوك ، جدرانها مزخرفة بنقوش دقيقة بارزة ، ولها دهليز يؤدى إلى قاعة ذات أعمدة ، احتفظت نقوشها بألوانها الزاهية ، وفى وسطها مكان منخفض لوضع تابوت الملك ، وللقاعة قبة رُسِم عليها بلون أزرق مصوّر للسماء والنجوم .

رمسيس الثانى

حكمه :

وتولى بعد سيتى الأول ابنه رمسيس الثانى ، ويعرف برمسيس الأكبر ، وكان آخر الفاتحين العظام ، حكم مصر مدة لا تقل عن سبعة وستين عاما .



رأس تمثال لرمسيس الثانى

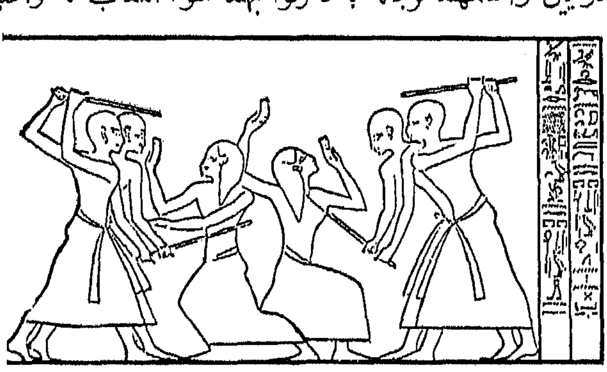
حروبه مع الحيثيين :

رأى رمسيس أن الحيثيين أغاروا على معظم الشام ، وكان يطمع فى إعادة الامبراطورية المصرية ، كما كانت فى عهد تحوتمس الثالث ، فبدأ فى السنة الرابعة من حكمه ، بإخضاع الساحل الفينيق ، ليتخذه قاعدة حربية لحركاته المقبلة ، كما فعل تحوتمس الثالث من قبل ، ونقش على صخر يطل على نهر الكلب ، على مقربة

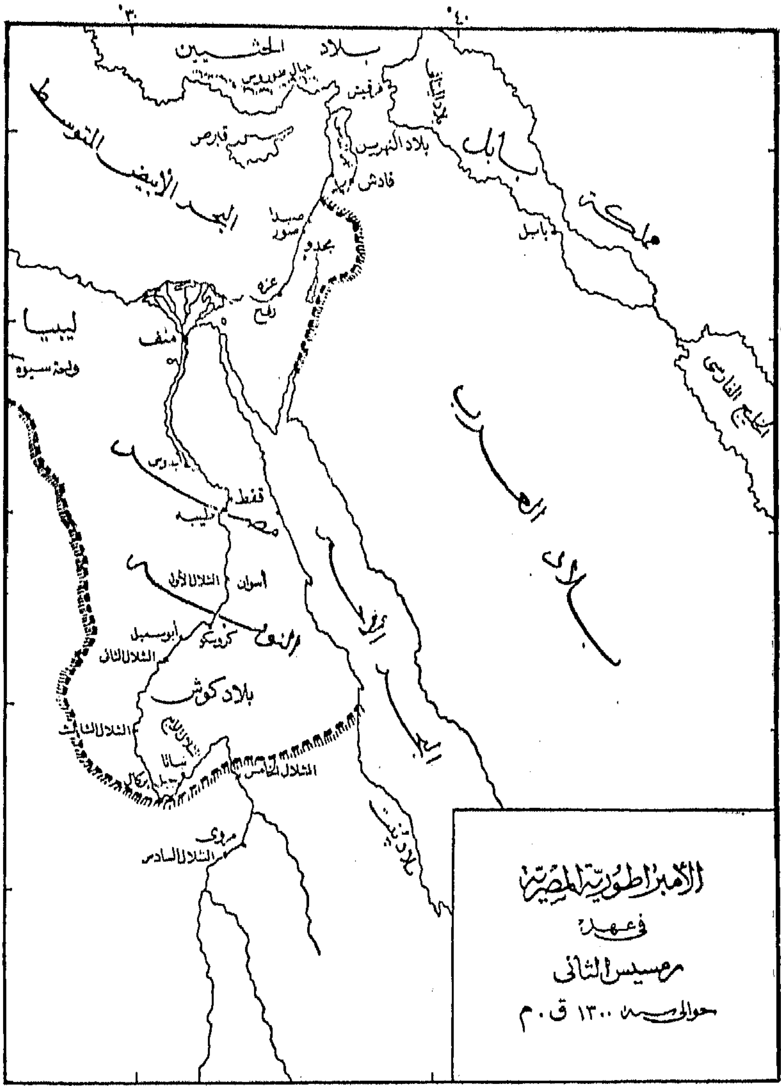
من بيروت ، ما يدل على وصوله إلى ذلك المكان ؛ ثم أعد فى السنة التالية حملة ضد ميتلا ، ملك الحيثيين ، فنقض بذلك المعاهدة التى عقدها سيتى مع الملك السابق ، منذ خمس عشرة سنة . على أن ملك الحيثيين كان قد استعد لهذا الهجوم ، فألّف حلفا قويّا ضــد مصر استمال اليه أمراء الشام ، وجمع جيشا كبيرا انخرط فى سلكه كثير من المرتزقة من آسيا الصغرى وجزائر البحر المتوسط ، وتحصن فى قادش المنيعة .

معركة قادش :

خرج رمسيس قاصداً قادش بجيش مؤلف من أربعة أقسام ، سُمّى كل واحد منها باسم إله من آلهة مصر : أمون ، ورع ، وبتاح ، وست ؛ وانضم إليه عدد من الجند المرتزقة ، وقاد رمسيس القسم الأوّل بنفسه ، وبعد شهر وصل إلى نهر الأورنط "العاصى" ، وعسكر فوق ربوة تشرف على الوادى الفسيح ، الذى تقع فيه مدينة قادش وعلى مسير يوم واحد منها ، وهناك وقع فى مكيدة دبرها له العدو ، فقد ظهر فى معسكره بعد وصوله بأيام بَدَوِيّان ادعيا أنهما شردا من جيش الحيثيين ، وأوهماه أن الملك الحيثى أخذ يتقهقر شمالا إلى حلب ، خوفا من الجند المصريين ، وصدّق رمسيس دعواهما فتقدّم إلى الضفة الغربية للنهر ، ومعه خيرة جنوده وعجلاته ، ليلحق بالملك الحيثى ، تاركا وراءه الجزء الأكبر من جيشه ليتبعه ، ولكن ظهر أن البدويين غرّرا به ، إذ عبر ملك الحيثيين إلى الضفة الشرقية للنهر ، وزحف جنوبا إلى نقطة استطاع منها أن يرسل إلى الضفة الغربية فرقة هاجمت مؤخرة جيش رمسيس وانتصرت عليها انتصارا باهرا ؛ فغضب فرعون لخديعة البدويين وأسلمهما لرجاله ، فأنزلوا بهما سوء العقاب ، واعتلى رمسيس

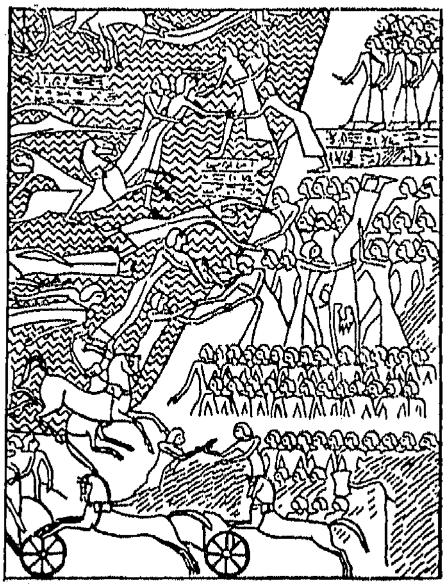


رجال رمسيس ينزلون بالبدويين العقاب



الامبراطورية المصرية
في عهد
رمسيس الثانى
حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م

على الفور عجلته ، وقاد بنفسه حرسه الخاص و بعض الضباط والجنود القريبين منه ، وصمم على أن يلحق ببقية جنوده ، وأخذ يهاجم الحيثيين مرة بعد أخرى بشجاعة نادرة حتى أنزل فى قلوبهم الرعب ، وردهم إلى النهر ، وكان ملكهم متيلا واقفا على الشاطئ الشرقى ، فرأى بعينه غرق أخيه وكثيرين من حاشيته ، وكان من بينهم ملك حلب الذى أنقذه رجاله من الغرق .



رمسيس الثانى يهزم الحيثيين ، ويرى ملك حلب مقلوبا ، ويحاول رجاله تفريغ ما ابتلعه من الماء

وطارد فرعون الحيثيين حتى مدينة قادش فاحتموا فيها ، ويقال إنهم أرسلوا رسولا يطلب الصلح ، فوافق رمسيس على ذلك، وعاد إلى مصر دون أن يستولى على قادش أو يحاول حصارها .

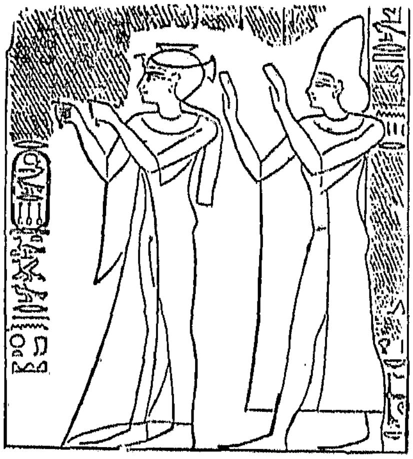
الحيثيون بعد قادش :

عاد الحيثيون يُشعلون نار الفتنة والثورة فى فلسطين ، ويبثون القلاقل فى مستعمرات مصر الأسيوية ، فاضطر رمسيس أن يقود حملة إلى فلسطين ، ولكنه لم يخضعها إلا بعد ثلاث سنوات ، واصل بعدها حربه ضد الحيثيين إلى أن مات ملكهم ميتلا ، وخلفه الملك خيتاسار .

الصلح بين رمسيس الثانى والحيثيين :

فاوض خيتاسار رمسيس فى الصلح ، وانتهى الأمر بإبرام معاهدة[١] تحالف وصداقة بين الملكين سنة ١٢٧٨ ق. م. ،ودعاهما إلى ذلك : نمو دولة آشور فى شمالى العراق ، وخوفهما من مهاجمة الآشوريين لهما إذا ما أضعفتهما الحرب .

كتبت شروط هذه المعاهدة بالخط المسمارى البابلى ، وترجمت إلى اللغة المصرية ، وكتبت بالهيروغليفية ، ونقشها رمسيس على جدران معبد الكرنك ومعبد الرمسيوم ، وقد حافظ الملكان عليها ، ثم ازدادت العلاقات توثقا بعد إبرامها بثلاث عشرة سنة ، إذ تزوج رمسيس من ابنة ملك الحيثيين ، وأحضرها أبوها خيتاسار بنفسه إلى مصر ، وحضر الاحتفالات الفخمة التى أقيمت بهذه المناسبة ، وقد نقشت أخبار هذه الزيارة على مدخل معبد رمسيس بأبو سنبل ، بمركز الدر بمديرية أسوان .



حضور الأميرة الحيثية مع أبيها الى مصر

(١) عثر حديثا على نسخة من هذه المعاهدة فى أطلال بوغازكوى ، عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى

قصة الأميرة الصغيرة :

نسج الكهنة عن هذه المصاهرة قصة طريفة تداولها الناس جيلا بعد جيل ، ولكنها لم تنقش على الآثار إلا فى عهد الرومان ؛ جاءفى هـذه القصة أن حما فرعون طلب إرسال تمثال المعبود خنسو ، إله القمر بطيبة ، إلى مدينة بختن ، على مقربة من الفرات كى يطرد الأرواح الخبيثة التى حلت فى بنتـه الصغرى أخت ملكة مصر ، وكان لإله القمر فيما يزعمون قدرة على طرد شياطين البر والبحر وقد أجاب رمسيس ملتمس صهره وأبلت الأميرة من مرضها بفضل التمثال ! !



لوح عليه قصة الأميرة الصغيرة

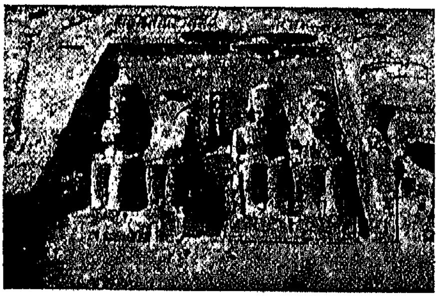
وعلى الرغم مما حوته هذه القصة من أشياء لا يقبلها العقل ، فإنها تدل على العلاقات الطيبة التى قامت بين مصر والحيثيين ، بعد زواج رمسيس من الأميرة الحيثية ، كما تُبين بعض ما كان يعتقده المصريون القدماء .

ولع رمسيس بالعمارة :

فاق رمسيس الثانى امنحتب الثالث فى ولعه بالعمارة ، حتى أنه محا أسماء بعض الملوك الذين سبقوه من كثير من المبانى التى شيدوها ونقش اسمه عليها ، رغبة فى الشهرة وطمعا فى تخليد ذكراه .

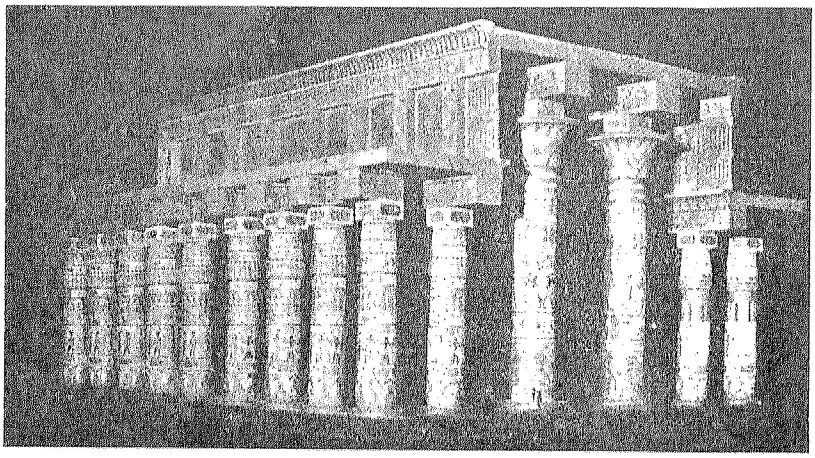
معبد أبو سنبل :

ومن أهم آثاره معبدان نُحتا فى الجبل عند " أبو سنبل " : أحدهما له ، والآخر لزوجته الملكة نفرترى ، وقد نقش رمسيس على هذا المعبد الأخير عبارة يقول فيها إنه " للملكة التى يحبها " ، كما نقشت الملكة على المعبد الأول عبارة مماثلة ذكرت فيها أنه " لزوجها الذى تحبه " .



تماثيل رمسيس الثانى وزوجه — معبد أبو سنبل

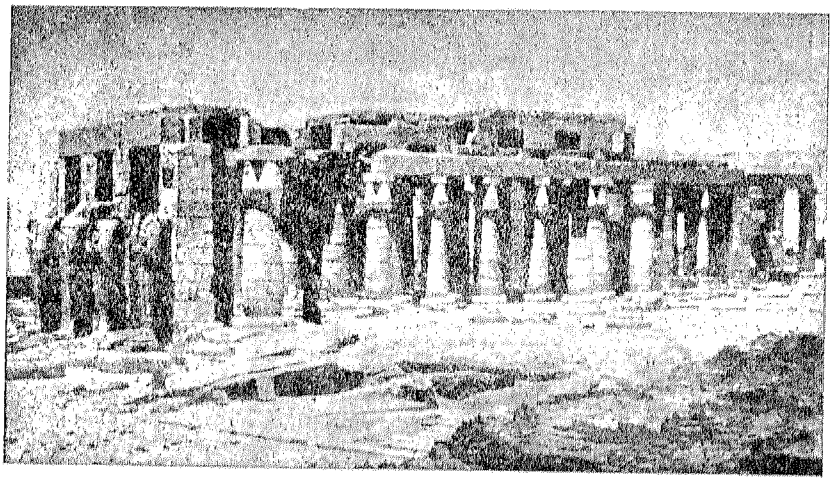
وأقيمت خارج المعبد الأكبر أربعة تماثيل ، يبلغ ارتفاع كل منها ٩٠ قدما ، اثنان منها يمثلان الملك جالسا ، والآخران يمثلان الملكة جالسة كذلك ، ولم يبق من هذه التماثيل الأربعة فى حالة جيدة سوى تمثال واحد .



بهو الأعمدة بالكرنك — كما كان أيام الأسرة التاسعة عشرة

بهو الأعمدة بالكرنك :

ومن أهم أعمال رمسيس الثانى أنه أتم بهو الأعمدة العظيم ، الذى بدأه جده رمسيس الأول بمعبد الكرنك ، ويبلغ عدد أعمدة هذا البهو أربعة وثلاثين بعد المائة ، وهى أضخم عمد بنيت من الحجر فى العالم أجمع .



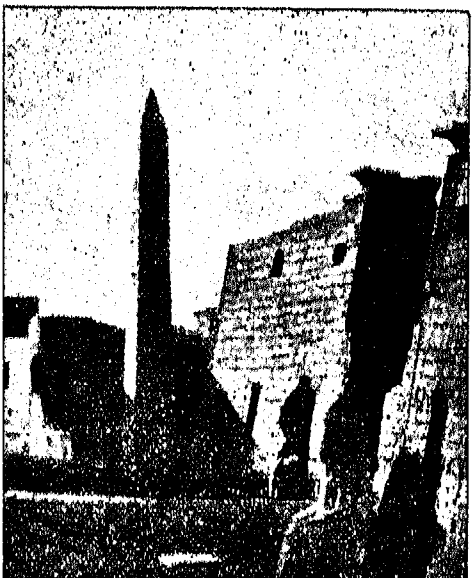
معبد الرسيوم

الرمسيوم :

بنى رمسيس معبد الرمسيوم الهائل على الشاطئ الغربى للنيل ، وكتب على جدرانه وصف حروبه مع الحيثيين ، وأقام أمامه تمثالا من الجرانيت يمثله جالسا ، وتبلغ زنته نحو ألف طن ، ولكنه سقط وتهشم بمرور الزمن ، ولا يزال باقيا على هذه الحال .

المسلّات :

كذلك شُغِف رمسيس الثانى بإقامة المسلات : فأقام فى تانيس "صان الحجر" ما يزيد على أربع عشرة مسلة تهشمت كلها ؛ ومن مسلاته واحدة نقلت إلى باريس ، حيث تقوم اليوم فى ميدان الكونكورد ، وهى إحدى المسلتين اللتين نصبهما فى معبد الأقصر ، ولا تزال الأخرى قائمة به إلى اليوم .



مسلة رمسيس الثانى الباقية بمعبد الأقصر

الفصل الخامس

اضمحلال الامبراطورية المصرية

١٢٣٢ — ١١٩٠ ق.م

هجرة الشعوب :

وفى أواخر عهد رمسيس الثانى ، حدثت فى بلاد البلقان والبحر المتوسط حركه هجرة كبيرة امتد أثرها إلى بلاد الشرق الأدنى ، فتدفق سيل المهاجرين إلى آسيا الصغرى ، وجزائر بحر إيجة ، واليونان ، وليبيا ، ووفد الغزاة جماعات ، معهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم ، قاصدين بذلك الاستقرار فى بلاد خصبة ؛ ولكن سيل الهجرة المتواصل كان دائما يدفعهم إلى التجول جنوبا ، وقد أغار المهاجرون على الحيثيين فى آسيا ، وجرت بين الفريقين حروب حالت دون تقدّم المهاجرين نحو الشام وفلسطين ، ولو أن رمسيس الثانى تدخل فى هذا الظرف وقاد حملة حربية إلى آسيا لأبعد هذا التيار الجارف نهائيا عن مصر ، ولكنه كان قد بلغ الثمانين من عمره فلم يعد قادرا على ذلك .

منبتاح

الليبيون ومصر :

لما مات رمسيس ترك لابنه " منبتاح " حملا ثقيلا : ذلك أن سكان ليبيا أخذوا يتسربون إلى مصر ويسكنون على حافة وادى النيل ، عند ما هاجر إلى أراضيهم بعض شعوب البحر المتوسط كالشرادنة ، الذين سميت سردينية باسمهم ، وضاقت بهم سبل العيش لقلة مواردهم ، واضطروا أن يجدوا لهم

مخرجا ؛ كذلك بحث الغزاة أنفسهم عن موطن خصب يهرعون إليـه ، ولم يكن أمام الجميع بلاد أغنى وأخصب من مصر .



منبتـاح

منبتاح يصد الليبيين :

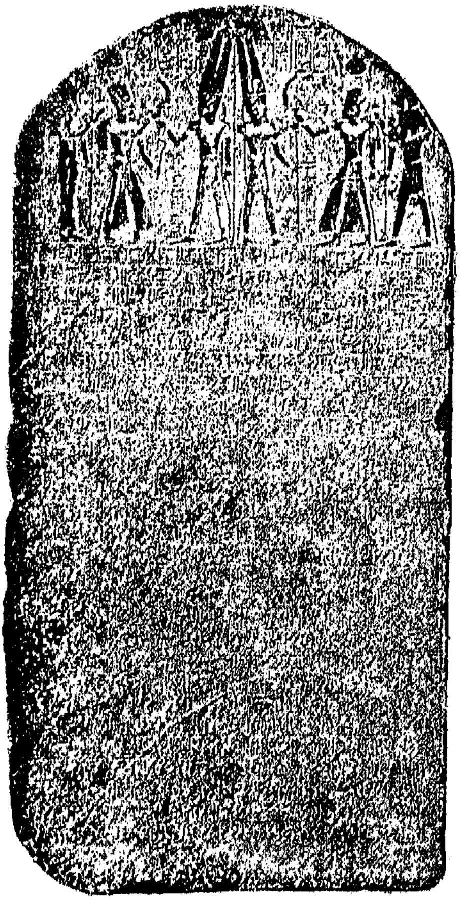
فلما كانت السنة الخامسة من حكم منبتاح ، أغارت هذه الجموع من الليبيين وشعوب البحر المتوسط على الدلتا ؛ وكان غرضهم فتح مصر للاستيطان بها ، كما فعل الهكسوس من قبل ، فأحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم وماشيتهم وتوغلوا فى الدلتا حتى وصلوا مكانا يقع على حدود أقليم النطرون ، فى الشمال الغربى من منف .

أدرك منبتاح خطورة الحال ، بجمع جيشه وسار به لملاقاة العدو ، ودارت بين الفريقين موقعة حامية دامت ست ساعات ، وانتهت بانتصار المصريين ، وولّى الليبيون وخلفاؤهم الإدبار ، تاركين للمصريين غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى ، وعاد الجيش الظافر إلى قصر منبتاح يحمل الغنائم على الحمير ، وأطل الملك المسن من شرفة قصره واستعرضها وسط حماسة الجماهير .

لوح إسرائيل :

فرح المصريون بطرد الليبيين ، وأخذوا ينظمون الأناشيد ؛ وأقام الملك ألواحا تذكارية لهذا النصر فى معبد الكرنك وغيره من المعابد المصرية ؛ وقد عثر على لوحين من هذه الألواح : أحدهما فى أتريب ، بالقرب من بنها ، والآخر فى طيبة ؛ ولهذا اللوح الأخير أهمية خاصة ، فإنه ، فضلا عن إشارته إلى إغارة الليبيين ، يحوى معلومات عن الحالة فى آسيا فى عهد منبتّاح ، وعن حملة منبتاح على فلسطين .

وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى ، ويعرف بلوح اسرائيل .



لوح إسرائيل ، وعليه نشيد من الأناشيد التى نظمت فرحا بانتصارات منبتاح

منبتاح فى آسيا :

وقد جاء فى هـذا اللوح أن منبتاح ذهب الى آسـيا ، وقهر من خرجوا على سلطان مصر ومنهم بنو إسرائيل ، الذين أذلّهم فرعون ، أشـار اللوح الى هـذا الحادث بمـا يلى :

„ لقـد أبيدت إسرائيل واستؤصلت ، وأصبحت فلسطين أرملة لمصر (أى ضعيفة) ، واتحدت البلاد ، وخيّم السـلام على الجميع ، وأصبح الملك منبتاح يوثق بحباله كل من يثور على النظام “ .

خروج بنى إسرائيل من مصر :

دعت هذه العبارة بعض المؤرخين إلى نسبة خروج بنى إسرائيل من مصر إلى عصر منبتاح ، فقالوا إنه هو فرعون المذكور فى سفر الخروج ، والحقيقة أن هناك أربعة آراء عن خروج بنى إسرائيل من مصر تتلخص فيما يلى :

(ا) يذكر البعض أن بنى إسرائيل هم الهكسوس ، الذين خرجوا من مصر قبل قيام الأسرة الثامنة عشرة .

(ب) ويذكر آخرون أنهم خرجوا أيام الأسرة الثامنة عشرة نفسها ، إذ أشارت رسائل تل العمارنة إلى قوم يعرفون ببدو الخـابيرى ، أقلقوا الحكم المصرى فى فلسطين ، منذ منتصف حكم أمنحتب الثالث إلى آخر حكم إخناتون ؛ ويرى هذا الفريق أن الخابيرى ليسوا سوى قبائل العابيرى وهم العبرانيون ، بنو إسرائيل ، ويقولون إن خروج بنى إسرائيل حدث فى عهد أمنحتب الثانى .

(ج) ويرى فريق ثالث أنهم خرجوا فى عصر رمسيس الثانى ومنبتاح ، أى أيام الأسرة التاسعة عشرة .

(د) ويؤخر البعض خروجهم إلى أيام الأسرة العشرين .

ولكلّ رأى من هذه الآراء حججه ، ولكن أكثر الحجج قوة هى الخاصة بالرأيين الثانى والثالث .

منبتاح يشوه آثار أجداده :

لم يجد منبتاح ، بعد حكم رمسيس الثانى الطويل الذى أنفق فى أثنائه أموالا طائلة على البناء ، ما يكفيه لإشباع رغبته فى هذه الناحية ، أضف إلى ذلك أنه كان مُسنًّا لا يريد أن يضيع وقتا فى قطع الأحجار من المحاجر ونقلها إلى طيبة ، كما فعل أسلافه ، لهذا لجأ إلى آثار أجداده فهدَّمها وأخذ منها ما يريد من أحجار لمبانيه ؛ ولم تسلم من ذلك آثار أبيه نفسه .

وفاته :

مات منبتاح ، حوالى عام ١٢١٥ ق.م ، بعد حكم دام عشر سنوات ، ودفن فى وادى الملوك بطيبة ، وجثته محفوظة الآن فى المتحف المصرى .

(الأسرة العشرون ١٢٠٠ — ١٠٨٥ ق.م.)

حال مصر بعد موت منبتاح .

تلت موت منبتاح فترة اضطراب ، انقسمت فيها مصر إلى أقسام أو ولايات استقل بكل منها أمير ، وشجع هـذا الانقسام الأجانب على غزو مصر ، فمد أمير سورى نفوذه على الولايات المصرية واحدة بعد أخرى ، حتى شمـل جميع البلاد تقريبا ، ثم هبت روح الوطنية من رقادها ، ورأت مصر العار كل العـار فى أن يحكمها أجنبى ، فقامت وخلعت عنها نير هـذا الحكم ، بزعامة أمير من نسل الرمامسة ، هو ست نخت أو ست المنتصر ، الذى أسس الأسرة العشرين ، ولكنه لم يحكم سوى سنتين ، ثم خلفه ابنه رمسيس الثالث .

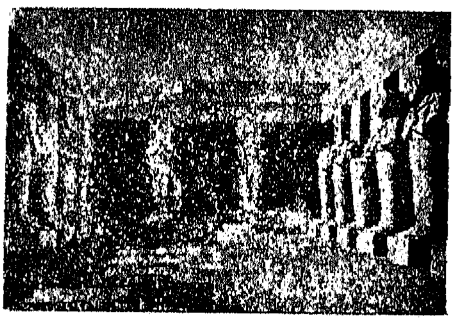
رمسيس الثالث

سياسته :

ورث رمسيس الثالث عن أبيه "ست نخت" نشاطه ، وكان عهده الطويل آخر عهد مجيد فى الإمبراطورية المصرية ، وقد وجه عنايته نحو إصلاح الإدارة وتنظيم الجيش حتى يعيد لمصر ما كان لها من نفوذ عظيم فى العالم الشرقى ، وينقذها من الخطرين العظيمين اللذين هدداها فى ذلك الوقت وهما : خطر الليبيين من الغرب ، وشعوب البحر من الشرق .

انتصاره على الليبيين .

أخذ الليبيون ينظمون أنفسهم ، منذ هزيمتهم على يد منبتاح ، ويتطلعون إلى إعادة الكرّة على مصر ، فلما كانت السنة الخامسة من حكم رمسيس ، تقدّموا نحو الدلتا وتجمعوا عند مكان قريب من الفرع الكانوبى للنيل ، ومن هناك عزموا على أن يواصلوا زحفهم نحو مصر ، ولكن رمسيس خيب آمالهم ، وهزمهم ؛ وانتقم المصريون لأنفسهم ، فقتلوا كثيرين منهم ، حتى تراكمت جثث القتلى بعضها فوق بعض ، ومرت عليها العجلات وداستها الخيل ، وأسر المصريون



ساحة معبد رمسيس الثالث بالكرنك ، وقد ظهر فيها
الملك على هيئة الأله أزوريس

كثيرين استخدموهم بحارة فى الأسطول المصرى، أو حراسا فى الحصون المصرية واتخذوا نساءهم وأطفالهم أرقّاء لهم ، واستولى رمسيس على ماشيتهم وأهداها إلى كهنة آمون بطيبة .

وقد حاول الليبيون الإغارة على مصر مرة أخرى، ولكن رمسيس ردّهم ، ولم يجرءوا بعد ذلك على دخولها بالقوة .

انتصاره على شعوب البحر :

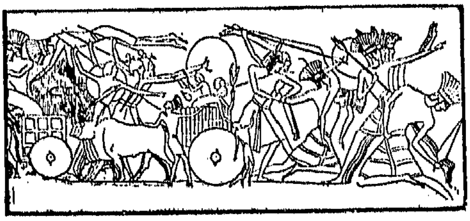
وبعد إغارة الليبيين الأولى بثلاث سنوات، عاد نشاط شعوب البحر المتوسط فتقدموا إلى آسيا الصغرى ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، تحملهم عجلات تجرها الثيران ، واخترقوا ممرات جبال طوروس، وأغاروا على أملاك الحيثيين، ولم يستطع هؤلاء صدهم هذه المرة ، فانهار بذلك آخر حاجز كان يحمى الشام وفلسطين . وانتشر الغزاة فى الشام يسلبون وينهبون ، وزحفوا على فلسطين. وكان بينهم شعب الشرادنة ، والبِلِسْتِ المعروفين عند اليهود بالفلسطينيين ، وهم من الشعوب التى هددت مصر برا ، والغالب أنهم من نسل الكريتيين الذين استوطنوا آسيا الصغرى ، وكان لباس رأسهم المصنوع من الريش لا يختلف كثيرا عن اللباس الذى يضعه الهنود الحمر بأمريكا الشمالية .

وفى الوقت نفسه سارت سفنهم حذاء ساحل الشام ؛ وهكذا تقدم الغزاة نحو مصر متوقعين فتحها بسهولة ؛ ولكن رمسيس بدد آمالهم ، فحصن حدوده



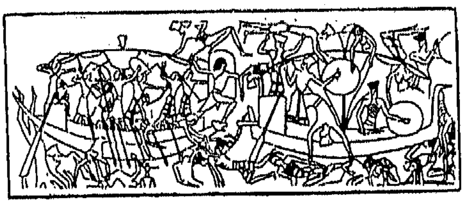
فلسطينى من شعوب البحر

فى الشام ، وأقام الحاميات عند مصبات النيل ، وسار لملاقاتهم ، وهزم قواتهم عند رفح على الحدودالمصرية وعند الفرما (بيلوز) ، الواقعة على بعد إثنين وثلاثين كيلو مترا جنوب شرقى مدينـة بور سعيد ، والفرما ، وانتصر الأسطول المصرى على سفنهم فى معركة حامية ، قرب مصب النيل الغربى ، وأسر كثيرين منهم .



المصريون يهزمون الفلسطينيين

هكذا أنقذ رمسيس الثالث البـلاد من إغارة لم يقل خطرها عن إغارة الهكسوس ، إذ لو أن شعوب البحر نجحوا فى الاستيلاء على مصر لما كان غريبا أن تختفى من التاريخ ، كما زالت إمبراطورية الحيثيين بعد ذلك ببضع سنين (١)



المعركة البحرية — هزيمة الفلسطينيين

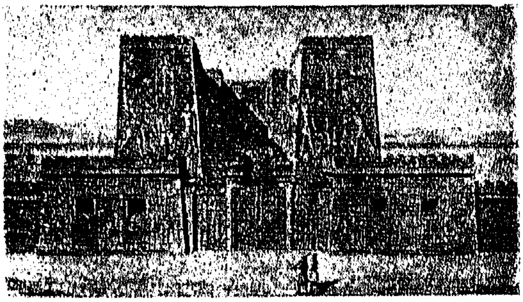
معبد مدينة هابو :

بنى رمسيس الثالث فى طيبة معبدا جنازيا ، يعرف بمعبد مدينة هابو ، لا يزال جزؤه الأمامى فى حالة جيدة ، أما الجزء الداخلى فقد اندثر اندثارا تاما . وقد دوّن رمسيس على جدران معبده هذا رسوما بارزة تمثل حروبه ، من بينها نقش

---

(١) بعد محاولة غزو مصر بسنوات قليلة بدأت شعوب البحر تشن الغارة على مدينة تروادة ، الواقعة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وهذه هى الحرب التى خلدها الشاعر هوميروس اليونانى بقصائده .

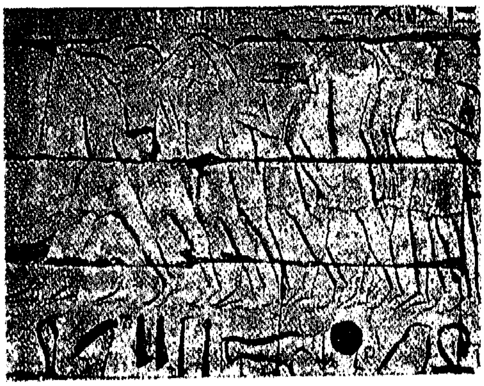
يوضح المعـركة البحرية مع شعوب البحر ، وآخر يمثل الأسرى الفلسطينيين وهم يسيرون مكتوفى الأيدى .



معبد مدينة هابو بطيبة

ورقة بردى هَرِس :

وقد ورد ذكر أعمـال رمسيس الثـالث فى ورقة بردى تعرف بورقة هَرِس طولها ١٣٠ قدما ، وهى أكبر وثيقة وصلتنا من الشرق القديم ، وقد كتبت فى عهد رمسيس الرابع ابن رمسيس الثالث .

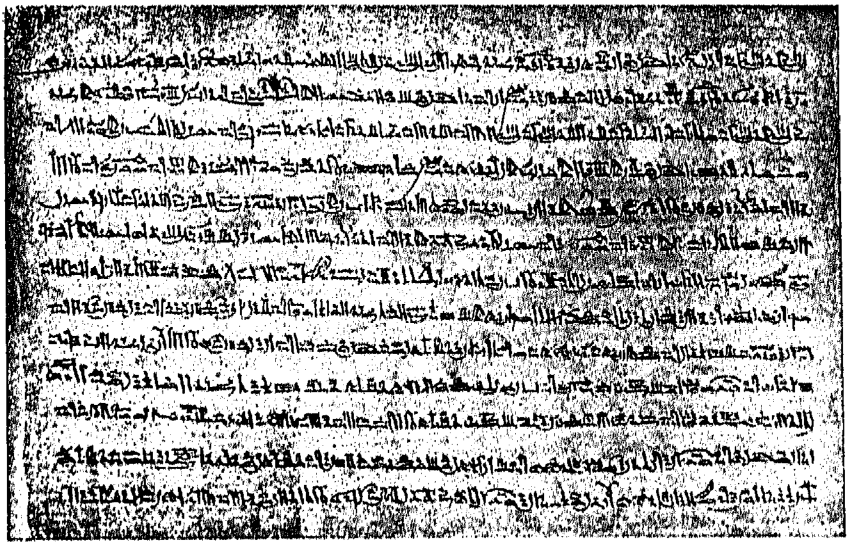


الأسرى الفلسطينيون يسيرون مكتوفى الأيدى

أسباب اضمحلال مصر بعد الأسرة العشرين

١ — ازدياد نفوذ الكهنة :

وعلى الرغم من أن رمسيس الثالث أنقذ مصر من الأخطار الخارجية ، فإنه عجز عن مقاومة ذلك الخطر الذى هدّدها من الداخل ، ونعنى به سلطة الكهنة التى ظلت تزداد يوما بعد يوم ، ولم ير رمسيس بُدًّا من أن يسير على نهج سلفه ، فأغدق عليهم الخيرات ، ويتضح ، من ورقة بردى هَرِس السالفة الذكر ، أن سُبْع الأراضى الصالحة للزراعة تقريبا كانت ملكا لهم ، وكانت أملاكهم كلها معفاة من الضرائب ، فى حين كان العمال المساكين يطالَبون بدفعها من أجورهم اليسيرة ، بحجة أن الدولة فى حاجة إلى المال ، مما ألجأهم إلى الإضراب عن العمل فى كثير من الأحيان .



صفحة من ورقة بردى هَرِس المحفوظة بالمتحف البريطانى ، وهى تصف أعمال رمسيس الثالث

٢ — استخدام الجند المرتزقة :

وفضلا عن ازدياد نفوذ الكهنة وما صحبه من إفساد للنظام ، فقد اعتمد رمسيس الثالث على الجند الأجانب، من متطوعين وأسرى ، ومنهم تكوّن الجزء



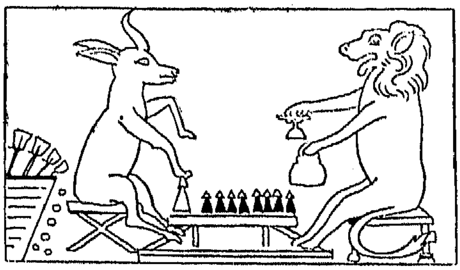
اثنان من الجند المرتزقة الشرادنة

الأكبر من الجيش ، كذلك أحاط رمسيس نفسه بحرس من الأرقاء الأجانب من الشام وآسيا الصغرى وليبيا ، واستطاع هؤلاء أن يرتقوا فى مناصب الدولة ، كما حدث فيما بعد فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، حين استخدم السلاطين عددا من المماليك كان لهم عليهم نفوذ كبير .

٣ — فساد المجتمع المصرى :

من ذلك نرى أن عوامل الانحلال قد أخذت تنخر فى جسم الحكومة المصرية ، فهناك كهنة أثرياء ، وجيش من الجند المرتزقة على استعداد لخدمة من يغدق عليهم الأموال ، وحرس من الأرقاء الأجانب لا يتورعون عن القيام بأى عمل لمصلحتهم الخاصة ؛ أضف الى ذلك انحلالا عاما فى المجتمع المصرى : ظهر فى انتشار جماعات اللصوص لسرقة المقابر الملكية ، وفى استهزاء الناس بفرعون ، حتى مثّلوه فى رسوم مجونية بعيدة عن الأدب ؛ وفى كثرة الدسائس والمؤامرات ،

التي لم يسلم منها الملك نفسه، إذ تآمرت إحدى زوجاته على قتله، ولكن المؤامرة كُشفَتْ وحوكم المتآمرون وعوقبوا عقابا صارما .



رسم مجونى للملك رمسيس الثالث على شكل أسد يلعب الشطرنج

وفاة رمسيس الثالث :

لم يعش رمسيس الثالث طويلا بعد هذه المؤامرة ، وكانت مدّة حكمه إحدى وثلاثين سنة .

الفصل السادس

كهنة طيبة وأمراء تانيس

ضعف خلفاء رمسيس الثالث :

كان ملوك الأسرة العشرين، الذين خلفوا رمسيس الثالث، ضعافا، فانتهز كهنة آمون هذه الفرصة وزادوا من نفوذهم، حتى استفحل أمرهم الى أن استقلوا بالملك .

اضمحلال طيبة :

اتخذ ملوك الأسرة العشرين عاصمتهم فى تانيس بالدلتا ، كما فعل أسلافهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة، فضعف شأن مدينة طيبة، التى مضى على هجر الفراعنة لها مائتا سنة ، ولكنها مع هذا ظلت مدفنا للملوك والأمراء وأقاربهم ، فظلوا ينحتون مقابرهم فى صميم الصخور الجيرية ، وراء السهل الغربى .

سرقة المقابر الملكية :

ولما ضعف ملوك الأسرة العشرين وعجزوا عن صيانة الأمن ، انتهز لصوص المقابر الفرصة وأخذوا فى نهبها وسلبها ، وقد كشفت هذه السرقة فى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس التاسع (١١١٥ ق . م) ، وعوقب المجرمون عقابا صارما .

ومع ذلك لم يمض جيل واحد بعد رمسيس التاسع حتى نهب اللصوص جثث فراعنة مصر العظام مرة أخرى .

انفصال الوجه البحرى :

وبينما كانت مقابر الفراعنة تنهب بلا شفقة ولا احترام ، كانت حكومة مصر الامبراطورية تتصدع فى الداخل والخارج ، ففى الداخل قام فى عهد رمسيس الثانى عشر أمير من تانيس ، (صان الحجر) ، يعرف عند اليونان باسم سمنديس[١] ، واستولى على الدلتا ، وجعل نفسه ملكا عليها .

وكان لانفصال الوجه البحرى عن الوجه القبلى أثرسيء فى طيبة نفسها ، فزاد من عوامل اضمحلالها ، لأن قيام مملكة مستقلة فى الدلتا قطعها عن الاتصال بالبحر المتوسط وتجارة آسيا وأوربا .

نفوذ الكهنة فى الوجه القبلى :

لم يجد رمسيس الثانى عشر بُدًّا من التقهقر إلى طيبة والاحتفاظ بالوجه القبلى والنوبة ، على أن نفوذه فى تلك الجهات كان اسميا ، وكانت السلطة الفعلية فى يد حرحور ، رئيس كهنة آمون بطيبة .

---

(١) اسمه المصرى نسو بنبدد وقد آثرنا استعمال الاسم اليونانى لسهولته .

ضياع نفوذ مصر فى الشام وفينيقيا :

أما فى الخارج فقد زال نفوذ مصر فى الشام وفينيقيا ، ولم يبق لها فى فلسطين سوى نفوذ اسمى ، وليس أدل على ذلك من قصة "ويناموں" الذى بعثه حرحور فى عهد رمسيس الثانى عشر ، إلى مدينة بِبْلوس (جُبيْل) بفينيقيا ، ليحضر خشب الأَرز لبناء سفينة آمون المقدسة ، وقد ترك ويناموں تقريرا وصف فيه رحلته وما صادفه فيها من أخطار ومشاق .

قصة ويناموں ومخاطراته :

خرج ويناموں من مصر ، بعد أن زوّده حرحور بقليل من المـال لشراء الخشب اللازم وأعطاه تمثالا للمعبود آمون علّه يؤثر به فى حاكم ببلوس (جبيل) ويوهمه بأنه يطيل عمره ويهبه الصحة والعافية ، فيتغاضى بذلك عن قلة المـال ، ويمدّه بالأخشاب اللازمة ، وأوصاه أن يذكِّره بمـا كان لمصر من مجد سالف وعزٍّ غابر ، فلما وصل ويناموں إلى إحدى مدن الشام ، فوجىء بسرقة ما معه من مال قليل ، وراح يروى قصته على حاكم تلك المدينة ، وطلب مساعدته ، فرفض إجابة رجائه ، وبعد أن قضى تسعة أيام فيها ، سار إلى ببلوس (جبيل) مارا بمدينـة صور ، واستطاع فى أثناء طريقه أن يستولى على مبلغ من المـال أخذه عنوة من بعض الناس ، ليعوض به خسارته ، ولم يكد يطأ أرض ببلوس حتى أمره حاكمها بتركها ورفض مقابلته ، وهمّ ويناموں بالعودة إلى مصر ، ولكن توسط له موظف كبير فى ببلوس فاستدعاه الحاكم وسأله عن بغيته ، فأخبره أنه جاء يطلب منه خشبا لبناء سفينة آمون العظيمة ، ثم ذكره أن أجداده لبّوا هذا الطلب قديمـا ، فقال الأمير إنهم فعلوا ذلك حقيقة ، ولكنه يرفض الاقتداء بهم ما لم يعطه أجرا ، لأنه لم يعد يعترف لحاكم مصر بالسيادة والسلطان !

حاول ويناموں إقناع الحاكم بأن تمثال الإ ٓله آمون الذى يحمله معه سوف يطيل عمره ويهبه الصحة ، إن هو أجاب ملتمسه ، ولكن الحاكم ألح فى طلب المـال ، واضطر ويناموں أن يبعث ببعض الرسل إلى مصر لتحقيق طلبه ، وعادوا ومعهم بعض أوان من الذهب والفضة ، وأقمشة جميـلة من الكتان

وقراطيس من البردى ، وبعض الجلود والحبال ، وغيرها من منتجات مصر ، وقدّموها لحاكم ببلوس ، فأمر رجاله بقطع الأخشاب اللازمة لفرعون ، وهكذا أصبحت مصر تستجدى من الشام خشب الأرز وتدفع له ثمنا ، بعد أن كانت تأخذه بجزية ، أيام تحوتمس الثالث ورمسيس الثانى ، عند ما كانت جيوشها الظافرة تدخل الرعب فى نفوس السوريين فيسارع الأمراء بتقديم فروض الطاعة والولاء لفرعون !

ولم تنته قصة ويناموں ومخاطراته عند ذلك ، فإنه لم يكد يخرج بسفنه وينجو من إحدى عشر سفينة أرادت اعتراضه والقبض عليه ، لسلبه نقود بعض الناس فى أثناء طريقه بين صور وببلوس (كما ذكرنا) ، حتى هبّت عليه عاصفة أضلته الطريق ، وقذفت به إلى ساحل جزيرة قبرص ، فقبض عليه أهلها ، وهموا بقتله فى قصر ملكتهم ، ولكن حدث لحسن حظه أن رأى ويناموں الملكة خارجة من القصر فى طريقها إلى قصر آخر ، فاعترضها ، ووجد بين حاشيتها رجلا يتكلم المصرية فتوسل إليه أن يشرح أمره لها لتنقذه — ثم قال إن بحارته هم بحارة حاكم ببلوس ، فإذا تعرض سكان قبرص لهم فسوف ينتقم لهم حاكمهم من أهالى قبرص أشد انتقام ، وهكذا استطاع ويناموں بتوسله تارة ، وبتهديده بسطوة حاكم ببلوس تارة أخرى ، أن ينجو هو ورجاله . ويلاحظ أنه لم يلجأ إلى التهديد بقوة فرعون ، لأن هذه أصبحت لا قيمة لها فى تلك الجهات ، على الرغم من أنه لم يمض سوى أربعين سنة منذ هَزَمَ رمسيس الثالث أساطيل شعوب البحر فى معركة بحرية فاصلة .

الملك حرحور

ازدياد نفوذه :

وكما تدل قصة ويناموں على ضعف نفوذ مصر فى الخارج ، فهى تبين أيضا ازدياد سلطة الكهنة ، فان ويناموں ذهب إلى فينيقيا موفدا من قبل رئيس الكهنة ، حرحور ، لا من قبل فرعون ، كما كانت العادة قديما ، والحقيقة أن حرحور قبض على ناصية السلطة فى طيبة ، وأخذ يتلقب بألقاب الفراعنة ، وينقش اسمه على الآثار داخل مستطيلات ، كما فعلوا .

تتويجه :

ثم أقيمت فى طيبة حفلة دينية تسلم فيها حرحور تاج مصر، وبقى رمسيس الثانى عشر بلا حول ولا قوة حتى مات ، وتمادى حرحور فى ادعائه ، فسمى نفسه سيد الأرضين ، فى حين أنه لم تكن له سلطة ما فى الدلتا التى كان يحكمها إذ ذاك سمنديس (كما أسلفنا) .

الأسرة الحادية والعشرون

تأسيسها :

وبعد موت حرحور لم يستطع ابنه الاحتفاظ باستقلاله فى طيبة ، فبسط سمنديس ، ملك الدلتا ، نفوذه على الصعيد ، وأسس الأسرة الحادية والعشرين، وبعد موته تعاهدت الأسرتان، أسرة تانيس وأسرة طيبة ، فارتبطتا برباط متين .

إهمال ملوكها شؤون البلاد :

ظل ملوك الأسرة الحادية والعشرين يحكمون مصر من عاصمتهم فى الدلتا مدة قرن ونصف ، ولم يظهروا ميلا إلى ترقية البلاد ، فاضمحلت مصر فى عهدهم من الناحية الاقتصادية والصناعية ، ولم يقيموا فى عاصمتهم مبانى تستحق الذكر ، فأخذت تانيس فى التدهور ، وأهملوا شأن طيبة فزاد اضمحلالها أيضا .

محافظتهم على جثث الفراعنة :

على أنهم احترموا ذكرى أجدادهم العظام وتباروا مع رؤساء كهنة آمون فى حفظ جثثهم عن عبث اللصوص ، فكانوا ينقلونها من مخبأ إلى آخر خوفا عليها ، إلى أن نقلها آخر ملوك هذه الأسرة إلى مقبرة قريبة من الدير البحرى ، وهكذا بقيت جثث أولئك الملوك بعيدة عن أيدى اللصوص ثلاثة آلاف سنة ، إلى أن هب لصوص طيبة فى أواخر القرن الماضى (١٨٧١) واهتدوا إلى مكانها ، وبدأوا فى نهبها ، فألقت الحكومة القبض عليهم ، وأنزلت بهم العقاب ، كما عوقب زملاؤهم قديما ، وقامت مصلحة الآثار المصرية بنقل تلك الجثث إلى المتحف المصرى بالقاهرة ولها فيه قاعة خاصة .

الفصل السابع

الليبيون — الأسرة الثانية والعشرون

استخدام الليبيين فى الجيش :

أخذ حماس المصريين لخوض غمار الحرب يقل ، بعد أن انقضى قرن ونصف على قيام امبراطوريتهم ، فبدأ يحل محلهم فى الجيش جنود مرتزقة من الأجانب وخاصة من شعوب البحر المتوسط وجزائره ، ومن الليبيين جيرانهم الغربيين ، وكان من هؤلاء حاميات المدن الهامة فى الدلتا ، وأصبحوا عنصرا هاما فى الجيش أيام الأسرة الحادية والعشرين ، وصار منهم قوّاد ورؤساء حربيون .

هجرة الليبيين إلى مصر :

وفى الوقت نفسه أخذت جموع الليبيين تهاجر شيئا فشيئا إلى مصر ، بعد ما رأوا عبث الاستيلاء عليها بالقوة ، منذ هزمهم رمسيس الثالث .

ازدياد نفوذهم :

هكذا كثر الليبيون فى مصر ، من جند مرتزقة ومهاجرين ، ووجدوا فيها بلادا غَنِيَّة ، حباها الله بنيل كريم وأرض خصبة ، فابتاع رؤساؤهم الضياع واستقروا . وقوى نفوذهم فيها .

الملك شيشنق ٩٥٠ — ٩٢٩ ق.م

توليته :

وأخيرا استطاع أحد أمرائهم ، واسمه شيشنق ، أن يتولى حكم مصر ، سنة ٩٥٠ ق م ، إما لضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، أو لوفاته وانقراض ذريته . وأسس شيشنق الأسرة الثانيـة والعشرين ، أى أن الليبيين استولوا على عرش مصر بلا جهد ولا حاجة إلى امتشاق الحسام ، بعد مضى قرنين

منـذ موت رمسيس الثالث ، وظلوا يحكمونها مدة قرنين ، وتطبعوا بالطباع المصرية ، وحافظوا على العادات والألقاب الفرعونية ، وعبدوا معبودات المصريين وقدموا لهـا القرابين .

شيشنق والملك سليمان :

وكان شيشنق يعاصر الملك رحبعام فى فلسطين ، التى أغار عليهـا وعاد بغنائم كثيرة (١) ، وأرسلت فلسطين والنـوبة الجزية إلى مصر ، وشيد شيشنق المعـابد فى الكرنك بجدّد بذلك عهـد فراعنة مصر الأقدمين .

كشف مقابر تانيس "صان الحجر" :


تابوت شيشنق

ظلت مقابر ملوك الأسرة الحادية والعشرين والأسرة الثانية والعشرين مجهولة حتى وُفِّق العلامة الفرنسى مونتيه إلى العثور على بعضها خلال سنة ١٩٣٩ وكانت أول مقبرة كشفهـا ، لملك اسمه شيشنق ، فظن البعض خطأ ، أنها لشيشنق الذى تحدثنا عنه ، والحقيقة أنها لملك بالاسم نفسه ، لم يعثر على أى أثر له من قبل ، ويغلب على الظن ، أنه ابن شيشنق السالف الذكر ، إذ وجد اسمـه منقوشا على بعض حلى صاحب هذه المقبرة ، وقد عثر العلامة الفرنسى نفسه ، فى سـنة ١٩٤٠ ، على مقبرتى بسوسنس الأول وابنه ، من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، والأمل كبير فى أن يوفق إلى كشف بقية مقـابر الأسرتين .

---

(١) حكم فلسطين قبل رحبعام الملك سليمان وقد ورد فى التوراة أنه تزوج من ابنة فرعون الذى كان يحكم مصر قبل شيشنق .

وصف المقبرة الأولى :

أمـا المقبرة الأولى التى كشفها الأستاذ مونتيه فقد وجد فيها مومياء الملك المسمى شيشنق محفوظة داخل تابوت من الفضة على شكل آدمى ، رأسه على شكل رأس الباز ، والمومياء نفسها سليمة ، وقد لُفت فى أستار القماش المصرى القديم ، الذى لا يعرف البلى إليــه سبيلا ، وأحيطت بلآلئ من الزجاج ، وشُدَّ الوسط بحزام من الذهب ، ووضع على رأسها قناع من الذهب كذلك .

ولم توجد مع مومياء هــذا الملك وتابوتها عجلات أو سُرُرٌ وعروش ، كالتى وجدت مع مومياء توت عنخ آمون ، وكل ما وجد معها آنية يحفظ فيها الطعام ، وأخرى تحفظ فيها بعض أحشاء الملك ، وعدد وفير من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار الأخضر ، والمعروفة باسم " أوشبتى " أى المجيبات ، لأنهـا كانت توضع فى القبر لتقوم بخدمة الميت فى الدار الآخرة وتجيــبه إلى ما يطلب ، وذلك وفق معتقدات المصرى القديم .

اضمحلال مصر أيام الليبيين :

وقعت مصر فى فوضى شديدة فى عهد الأسرة الثـانية والعشرين ، فانقسمت إلى عدة ولايات حربية صغيرة ، دب بين أمرائها الشقاق ، ودامت هذه الحال إلى أن انقضت أيام الأسرتين الثالثة والعشرين ، والرابعة والعشرين ، وانتهى الحكم الليبى الذى تقهقرت فيه مصر واضمحلت .

الفصل الثامن

النوبيون والأشوريون

نفوذ كهنة آمون فى النوبة

لما أغار الليبيون على مصر وعجز نسل الملوك الكهنة ، الذين خلفوا حرحور فى طيبة ، عن مقاومة دسائسهم وكبح جماحهم ، تركوهم مسيطرين على البلاد وتراجعوا جنوبا إلى النوبة ، وأقاموا فيها مملكة مستقلة ، عاصمتها نباتا ، وتقع عند الشلال الرابع . وكانت النوبة قد تمصرت تحت حكم الفراعنة تمصرا يكاد يكون تاما ، وانتشرت فيها العبادات المصرية ، وصار لكهنة آمون بوجه خاص نفوذ كبير فيها .

الملك بعنخى

استيلاؤه على مصر ٧٣٠ ق.م :

فلما وضح للنوبيين انقسام الأمراء الليبيين على أنفسهم ، اعتزموا ، تحت تأثير كهنتهم ، نشر سلطانهم على مصر ، وتقدموا بأسطولهم وجيشهم ، يقودهم ملكهم بعنخى ، وكان هذا قائدا رحيما يجرى فى عروقه دم الفراعنة ، لذلك يخطئ من يرى فى إغارة النوبيين تغلب الزنوج الإفريقيين على مصر ، فالنوبة بلد مصرى من قديم الزمان .

استولى بعنخى على مصر سنة ٧٣٠ ق.م.[١] ، وأسس فيها امبراطورية حكمها خلفاؤه ، ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، إلى سنة ٦٦٣ ق.م ، ومن أهمهم شباكه وطهراقه .

---

(١) وصف بعنخى حملته على مصر فى نقوش هيروغليفية دوّنها على لوح ضخم عثر عليه بين بقايا معبده ، الذى أقامه فى جبل بركال عند الشلال الرابع ، واللوح محفوظ اليوم بالمتحف المصرى .

إغارة الأشوريين على مصر

أسبابها :

حاول كل من شباكه وطهراقه إثارة فلسطين وسوريا ضد دولة آشور ، التى أصبحت حينئذ أقوى امبراطورية فى آسيا، حيث مدت نفوذها على جزئها الغربى بأجمعه ، وأصبحت مصر فى خطر منها .

استيلاء الأشوريين على الوجه البحرى :

حنق الأشوريون على مصر هـذا التدخل ، وزحفوا عليها ، بقيادة ملكهم اسرحدون (آشور أخى الدين) ، فاستولوا على منف ، وتنازل لهم طهراقه عن الوجه البحرى ، فولى عليه الملك الأشورى أمراء من قبله ، كان أعظمهم نخاو أمير مدينة سايس (صا الحجر ، بمركز كفر الزيات ، بمديرية الغربية) ، ولكنه ما كاد يعود إلى عاصمته نينوى حتى تآمر الأمراء ضده ، فبدأ يعدّ العدّة من جديد لقمع الثورة التى أشعلوها ، ولكنه مات سنة ٦٦٨ ق.م. ، قبل أن يصل جيشه إلى مصر .

تدمير طيبة :

فلما تولى بعده آشور بانيبال أرسل جنوده إلى الوجه البحرى فاستولوا عليه ثانية، فى عهد الملك النوبى تانوت آمون، وطاردوا النوبيين إلى طيبة، ودخلوها وقتلوا وأسروا كثيرا من أبنائها ، ثم نهبوها وأتوا على ما فى معابدها من تماثيل بديعة وأثاث جميل وأدوات غالية ، ونقلوا جزءا كبيرا من هذه الكنوز إلى عاصمتهم نينوى .

الباب الخامس

العصر الصاوى

الفصل الأول

عصر النهضة المصرية الأسرة السادسة والعشرون

پسمتيك الأول ٦٦٣ — ٦٠٩ ق.م

سوء حال مصر :

بعد أن تم للأشوريين الاستيلاء على مصر أقام ملكهم، آشور بانيبال، الأمير پسمتيك بن نخاو حاكما على سايس (صا الحجر)، وأضاف إليه إقليم منف، وظلت بقية الدلتا مقسمة بين الأمراء الحربيين، إذ حرص الأشوريون على أن تبقى مصر مسرحا للمنازعات حتى تظل ضعيفة فى قبضة يدهم.

استقلال پسمتيك بالمُلْك :

ولكن پسمتيك تألم لحال مصر وعسف الأشوريين بها، وعزم على التخلص من نيرهم والاستقلال بمُلْكها، فلما رأى أن دولتهم قد دبّ فيها الضعف، وشغلت عنه بإخماد الثورات التى شبّت فى أملاكها الأسيوية، والدفاع عن حدودها الأصلية ضد إغارات البابليين وحلفائهم الميديين، قام وطرد حامياتها من البلاد وطاردهم إلى فلسطين، كما فعل أحمس مع الهكسوس من قبل، ثم انتصر على زملائه الأمراء، وتولى عرش مصر وحده، وهكذا جمع السلطة كلها فى يده.

قصة يونانية قديمة عن پسمتيك :

وقد روى اليونان قصصا كثيرة عن اعتلاء پسمتيك عرش مصر، وهى تحوى شيئا كثيرا من الحقيقة. ومن تلك القصص، التى ذاعت بين أهالى سايس (صا الحجر) فى القرن الخامس ق.م.، قصة ملخصها أن مصر كانت مقسمة فى أيام پسمتيك بين اثنى عشر أميرا عاشوا فى صفاء وهناء إلى أن أخبرهم أحد كهنة الإله بتاح، إله مدينة منف، أن الأمير الذى سيُقدِّم الشراب لتمثال هذا المعبود فى قدح من البرونز، سيتولى حكم مصر بأسرها، فدبّ الحسد بين الأمراء وأخذ كل منهم يراقب الآخر، كلما اجتمعوا للقيام بهذا الواجب الدينى فى معبد منف .

وفى ذات يوم اجتمع الأمراء فى المعبد كعادتهم، ووزّع عليهم رئيس الكهنة الأقداح الذهبية التى اعتادوا استعمالها، ثم تبيّن أنه لم يحضر سوى أحد عشر قدحا، وأن پسمتيك هو الذى لم يأخذ قدحه، فنزع الأمير على الفور خوذته المصنوعة من البرونز، وقدّم فيها الشراب لتمثال الإله؛ وحينئذ تذكر رفقاؤه ما أخبرهم به الكاهن، وخشوا أن يستبد پسمتيك بالملك وحده، فنفوه إلى المستنقعات الواقعة على ساحل البحر المتوسط، وأمروه ألا يفارقها، ورضخ پسمتيك للأمر؛ وفى ذات يوم سأل أحد الكهنة أن يخبره بمصيره، فطمأنه وقال له إنه سينتصر على رفقائه بمساعدة رجال من البرونز يقدمون عليه من جهة البحر .

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أتى پسمتيك واحد من خدمه، وذكر له أنه شاهد رجالا من البرونز قد خرجوا من البحر ونزلوا إلى البلد ينهبونها، وظن الأمير فى أول الأمر أن خادمه قد مسّه الجنون، ولكنه عاد فتذكر ما قاله الكاهن وأسرع لمقابلة الوافدين، فألفاهم ملّاحين يونانيين قد تدرعوا بدروع من البرونز وتسلحوا بأسلحة حديدية .

أكرم پسمتيك هؤلاء الأجانب وأدخلهم فى خدمته، واستعان بهم على أقرانه الأمراء الأحد عشر، وظفر بعرش مصر لنفسه، فأنقذها من الفوضى الشديدة التى وقعت فيها من حكم الأمراء وأتباعهم الحربيين، الذين جرّوا عليها الذل والهوان مدّة أربعمائة سنة تقريبا .

إنشاء جيش من الجند المرتزقة :

أدرك بسمتيك فضل القوة فى تحقيق أغراضه ، فعنى بإنشاء جيش قوى لمصر جعل معظمه من الأجانب المأجورين : من يونانيين ، وسوريين ، وليبيين ، وغيرهم .

ونزل الجند الأجانب فى معسكرات خاصة بهم أقيمت فى مدينة ماريا (جنوبى رشيد) وفى مدينة دفنه ، (ومكانها اليوم تل دفنه غربى محطة القنطرة : بمركز فاقوس) ، وفى جزيرة الفيل عند أسوان ، كى تحمى مصر من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب على التوالى .

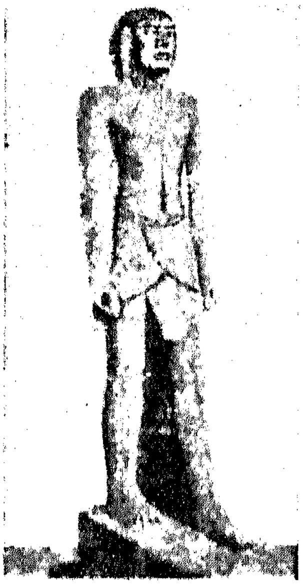
ترقية الإدارة والتجارة :

تطلّب الاحتفاظ بهذه القوة ترقية مالية مصر وزيادة إيرادها ، واستلزم هذ الأمر إدارة حازمة وتجارة نافقة ، فأحسن بسمتيك إدارة البلاد ، وعمل على ترقي تجارة مصر البحرية ، فتقاطرت إليها السفن الفينيقية ، كما شجّع النازحين من اليونان على الاستيطان بالوجه البحرى والاشتغال بالتجارة ، فنزل عدد وفير منهم فى سايس ومنف ، وكسب اليونان كثيرا من اختلاطهم بحضارة القطر المصرى ماد وأدبيا ؛ أما المصريون فلم يميلوا إلى مخالطتهم ، حتى كانوا لا يأكلون ولا يشربو معهم ، ولعل سر ذلك أنهم شعروا بأنهم أقدم حضارة منهم ، ولأن هؤلاء التجا أصبحوا أغنياء بسرعة .

إحياء حضارة الدولة القديمة :

ومهما يكن من شئ فقد عمل بسمتيك طول مدة حكمه على إعادة مجد البلاد التالد فدبّت فيها روح جديدة لإحياء آداب الدولة القديمة وفنونها وحضارتها ، وهكذا بنيت المعابد على طراز معابد الدولة القديمة ، وأخذ الناس يعبدون آلهتها ، وقلّد النحاتو والفنانون نماذجها ، فكان تقليدهم صادقا ، حتى أنه يتعذر على غير الاخصائيي أحيانا أن يفرّقوا بين مشاهد من الدولة القديمة وما وجد من آثار الاسرة الساد والعشرين ، ومن أجل ذلك عرف عصرها بعصر النهضة المصرية ، أو العص

الصاوى ، نسبة إلى عاصمتها "صا الحجر" ، التى كانت مركزا لهذه النهضة ، والتى قامت بها المبانى الجميلة ، واتخذ فيها پسمتيك لنفسه قصرا فخما ، ولكنه مع هذا لم يأل جهدا فى ترميم آثار المدن الأخرى ، سواء فى الصعيد أو الدلتا ، حتى كانت البلاد فى عهده أشبه بمصنع كبير، يواصل العمل فيه البناءون والنحاتون والنجارون وغيرهم ، فانتعشت مصر انتعاشا لم تره منذ عهد رمسيس الثالث ، أى منذ خمسمائة سنة تقريبا .


تمثال من العصر الصاوى كثير الشبه بتماثيل الدولة القديمة

مصر حليفة لآشور :

وقد بلغ من قوة پسمتيك أن لجأت إليه آشور فى ساعة محنتها ، وتحالفت معه ضد هجمات أعدائها الأسيويين : من ميديين و بابليين ، وقاد پسمتيك جيوشه إلى الفرات لمساعدة حليفته ، وانتهز الفرصة واستولى على بعض جهات فلسطين .

الفصل الثانى

نخاو الثانى وخلفاؤه

نخاو الثانى ٦٠٩ — ٥٩٤ ق٠م

هزيمة البابليين له :

ولما مات پسمتيك ، خلفه ابنه نخاو ، فقاد حملة أخرى لمساعدة الأشوريين ، ولكن ملك بابل هزمه عند قرقميش ، وأجبره على عقد معاهدة صلح اعترف فيها باستيلاء البابليين على الشام وفلسطين ، وصمم نخاو بعد ذلك على الاحتفاظ بمملكته وخصص جهوده للإصلاح الداخلى .

ترقية التجارة — مشروع القناة بين النيل والبحر الأحمر :

كان نخاو شـديد الرغبة فى ترقية التجارة المصرية ، لهذا فكر فى إيصال النيل بالبحر الأحمر بقناة ، حتى تزداد المعاملات مع بلاد العرب وغيرها من الممـالك .

وقديمـا اتصل النيل بالبحر الأحمر بترعة من هـذا النوع ، ولكنها كانت قد أهملت وامتلأت بالرمال ، وقد رأينا أنهـا كانت ذات فائدة عظيمة فى عهـد الإمبراطورية المصرية ، إذ عن طريقها أرسلت الملكة حاتشپسوت أسطولها من مدينة طيبه إلى بلاد پنت " الصومال " ، فعاد محملا بخيرات تلك البلاد .

والغريب أن تلك القناة القديمة اتّبعت لمسافة معينة نفس الطريق الذى تسير فيه قنـاة السويس الحالية ، فقد وصلت البحر الأحمر بالبحيرات المرة ، ولكن بدلا من اتجاهها شمالا نحو البحر المتوسط ، اتجهت إلى الغرب مخترقة واديا بين تلال جيرية ، يعرف جزء منـه باسم وادى طميلات ، واتصلت بفرع شرقى لنهر النيل فى الدلتا ، وكان اتساعها يسع سفينتين .

فشل مشروع القناة :

ويذكر هيرودوت أن طول القناة التى أراد نخاو إنشاءها كان مساويا لمسـير أربعة أيام ، وأنه شرع فى حفرها فى ذلك الجزء من سهل مصر القريب من بلاد العرب ، وأنه استخدم عددا كبيرا من الفلاحين ، هلك منهم نيف ومائة وعشرون ألفا ، ولعل هذه الخسارة كانت نتيجة نكبة هائلة حدثت ولم يحدثنا عنها أحد — ومن الجائز أنه نتيجةً لخطأ هندسى غرق الكثيرون منهم بالفيضان .

ويقول هيرودوت إن نخاو أوقف العمل بغتة ، لأن أحد كهنته وافاه بنبوءة مفادها أنه إنمـا يشتغل لمصلحة غيره ، وأن فائدة القناة سـتعود على الأجانب لا على مصر !

ويروى ديودور الصقلى أن المهندسين أشاروا بالكف عن حفر القناة خوفا من غرق مصر ، إذ قالوا إن مستوى مياه البحر الأحمر مرتفع عن سطح الدلتا ،

وظاهر من هذا أنهم كانوا أقل مهارة من زملائهم الذين اختطوا القناة القديمة ، وسواء أكان السبب هو هذا أم ذاك ، فقد أوقف نخاو المشروع ، وفقد كل أمل فى إيصال النيل بالبحر الأحمر .

نخاو والطرق البحرية القديمة :

وجه نخاو عنايته بعد ذلك إلى ترقية التجارة بواسطة الطرق البحرية الموجودة من قديم ، فبنى أساطيل لتمخر البحرين المتوسط والأحمر ، ولما كان الطريق البرى الذى يخترق فلسطين قد سدّه البابليون فى وجه تُجّاره ، أو أنهم على الأقل جعلوه شاقًّا خطرا ، فقد بعث بسفنه من ساحل الدلتا إلى الشام رأسا .

نخاو والفينيقيون :

استخدم نخاو كثيرين من الفينيقيين لقيادة سفنه ، لأنهم كانوا أمهر ملّاحى العالم وقتئذ ، وأكثر جرأة من الملاحين المصريين ، وكان لهم على الملاحة فضل عظيم ، إذ كان الملاحون فى الأزمنة القديمة يجوبون البحار على مقربة من الشواطىء ، فكانت المسافة التى يقطعونها بين مكان وآخر أطول مما لو شقُّوا عباب البحر ، كما أنهم كانوا يسيرون نهارا فقط ، فاذا ما أقبل الليل أرسلوا سفنهم فى ميناء أمين . أما الفينيقيون فقد شقوا البحار ليلا ونهارا ، وكانوا يهتدون فى مسيرهم ليلا بالنجوم ، ولذا أطلق اليونانيون اسم "الفينيقى" على القطب الشمالى الثابت دائما فى مكانه ، لأن الملاحين الفينيقيين اتخذوه مرشدا لهم فى أسفارهم .

بعثة نخاو حول أفريقية :

فكر نخاو فى تشجيع التجارة بإرسال السفن جنوبا من البحر الأحمر على طول الساحل الأفريقى ، ولما كان المصريون يعتقدون أن الأرض يحيط بها المحيط من جميع الجهات ، فقد أراد نخاو أن يكشف ذلك الجزء الذى يحيط بالساحل الأفريقى ، ولعله كان يأمل من وراء ذلك أن يصل إلى مملكة تدر عليه الخير العميم ؛ وشجّعه على المضى فى ذلك السبيل ما علمه من أن السفن المصرية فى عهد الأمبراطورية قامت برحلات طويلة من البحر الأحمر نحو الجنوب .

ويذكر هيرودوت أنه كان لنخاو أسطول عظيم بقيادة الفينيقيين ، وكانت قاعدته فى ميناء على البحر الأحمر ، وأن نخاو أصدر أمره إلى أسطوله هذا بالسفر حول إفريقية والعودة عن طريق بوغاز جبل طارق ، الذى كان يسميه القدماء "عمود هرقل" .

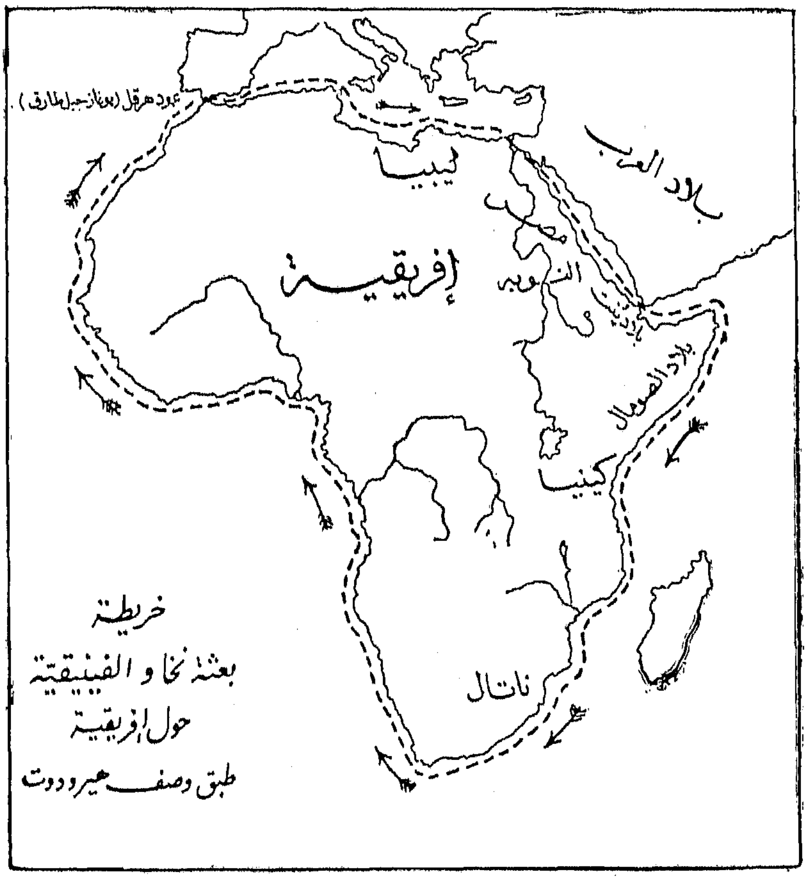
وأبحر الفينيقيون ، وساروا جنوبا ، مارين ببلاد الصومال وكنيا ، إلى ساحل ناتال الحالية ؛ ثم أقلعوا إلى رأس الرجا الصالح ، وساروا حول الساحل الجنوبى ، وواصلوا سبيل العودة متجهين شمالا فى محاذاة ساحل إفريقية الغربى حتى مضيق جبل طارق ، ومن ثم ساروا فى البحر الأبيض المتوسط ، فى محاذاة الساحل الأفريقى ، حتى وصلوا إلى الدلتا .

البعثة تستغرق ثلاث سنوات :

وقد استغرقت هذه الرحلة الطويلة نحو ثلاث سنوات ، ويروى أن الملاحين بعد أن اتجهوا جنوبا وقطعوا مسافة طويلة من البحر الأحمر ، نفذت مؤونتهم ، فنزل الفينيقيون على الساحل الأفريقى وحرثوا الأرض وبذروا الحب وانتظروا حتى حصدوا محصوله ؛ ثم أقلعوا وواصلوا سيرهم حتى نفذت مؤونتهم مرة أخرى ، فأعادوا الكرة ، وهكذا لا بد وأنهم حصدوا ثلاثة محاصيل فى أثناء رحلتهم ؛ وفضلا عن زراعتهم القمح اللازم لخبزهم فقد اشتغلوا أيضا بصيد كثير من الأسماك والحيوان ، وليس هناك ما يدل على حدوث قتال بينهم وبين أهالى تلك البلاد ، بل يحتمل أنهم صادقوهم ومنحوهم هدايا ، وذلك لما هو معروف عن الفينيقيين من معاملة الشعوب الغريبة عنهم بالكرم والحسنى .

طريقة البعثة فى البيع والشراء :

ويذكر هيرودوت كيف كان فينيقيو قرطاجه يتعاملون مع أهالى الساحل الغربى لإفريقية ، فيقول إنهم كانوا عند وصولهم إلى تلك البلاد ينزلون إلى البر ، ويضعون بضاعتهم على الشاطئ ؛ ثم يوقدون نارا يتصاعد دخانها ، ويعودون إلى سفنهم ، فعندما يرى الأهالى الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطئ ويفحصون



خريطة
بعثة نخاو الفينيقية
حول إفريقية
طبق وصف هيرودوت

ماعليه من بضاعة،و يضعون بجانبها ما تساويه فى نظرهم من الذهب،و يتراجعون إلى مسافة بعيدة .

عندئذ ينزل الفينيقيون إلى البر مرة أخرى ، فإذا راقهم ما تركه الأهالى من ذهب ورأوا أنه يكفى كثمن لبضاعتهم أخذوه ورحلوا ، أما إذا رغبوا ثمنا أعلى رفضوا أخذه ، وعادوا إلى سفنهم ثانية ، وانتظروا صابرين ، فيعود الوطنيون ويزيدون على الذهب ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضاء التجا .

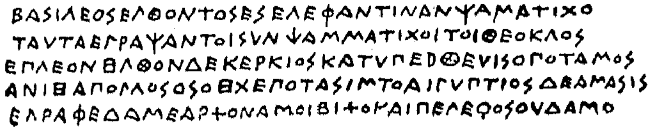
و يقول هيرودوت إن الفريقين من فينيقيين وأفريقيين سلكوا الأمانة فى معاملتهم، فكان الملاحون لا يمسون الذهب حتى يساوى ثمن بضاعتهم، وكان الأهالى لا يقربون البضائع حتى يؤخذ ثمنها .

ولا شك أنه ، بعد انتهاء هـذه البعثة ، تجمع لدى الضباط الفينيقيين كثير من القصص الممتعة عن مخاطراتهم أخذوا يروونها على الملك نخاو وعلى أمراء البلاد .

پسمتيك الثانى ٥٩٤ — ٥٨٨ ق.م

حملته إلى النوبة :

خلف نخاو ابنـه پسمتيك الثانى ، فأرسل حملة إلى النوبة بلغت الشلال الثانى وخلّدت ذكراها نقوش باللغة اليونانية ، دوّنها واحد من ضباطه اليونان على أحد تماثيل رمسيس الثانى فى أبى سنبل ، ولا تزال ظاهرة إلى اليوم ، وهى من أقدم النقوش اليونانية المعروفة فى مصر .



نقوش يونانية عن حملة پسمتيك الثانى على النوبة

فينيقيا :

كذلك قام پسمتيك برحلة إلى فينيقيا ، ورافقه عدد من الكهنة يحملون هدايا للمعابد المصرية القائمة هناك .

الملك أبريس (٥٨٨ — ٥٦٨ ق.م)

نزاعه مع ملك بابل :

حكم پسمتيك الثانى سبع سنوات، ثم خلفه ابنه أبريس، وكانت له آمال عظيمة فى استرجاع فلسطين والشام من الدولة البابلية، فشجع صدقيا، ملك اليهود، على الثورة ضدّ بختنصّر، ملك بابل، وأرسل إلى الشام جيشا بطريق البحر، و بعد أن انتصر فى معركة بحرية، استولى على صيدا، وخضعت له صور، فأصبحت لبنان وفينيقيا تحت حكم فرعون مرة أخرى، ولكن لم يدم ذلك طويلا، فقد أسرع ملك بابل إلى فلسطين، وحاصر بيت المقدس، فسقطت فى يده وخرّبها، وأخذ ملكها أسيرا، ولجأ كثير من اليهود إلى مصر، فأقطعهم أبريس أراضى عند أسوان ونقل بختنصّر من بقى منهم إلى بابل، فبقوا فيها سنوات عدة .

ثورة المصريين ضد أبريس :

لما اعتلى أبريس عرش مصر كان اليونان يزدادون عددا وقوّة فى الدلتا، وكان كثيرون منهم تجارا أو جندا فى الجيش المصرى، وكان الملك أبريس شديد الميل إليهم مما أدى إلى قيام الثورة بين وحدات الجيش، فأرسل الملك أحد أقاربه، المدعو أحمس، لقمعها. وكان أحمس، المعروف باليونانية باسم أمازيس، سياسيا محنّكا (١)، فلما طلبت إليه الفرق الثائرة أن يولى نفسه ملكا عليهم قَبِلَ هذا المركز الرفيع، وحكم هو وأبريس حوالى ثلاث سنوات، ثم تنازعا الحكم، فألّف أبريس جيشا من اليونانيين، ووضع أمازيس نفسه على رأس جيش من المصريين، والتقى الجيشان عند مدينة صا الحجر، فانهزمت الجنود الأجنبية، وسقط أبريس فى قبضة خصمه، ولكن أمازيس أحسن معاملته وأكرم مثواه، ثم قبض المصريون عليه وقتلوه، وانفرد أمازيس بالحكم .

---

(١) آثرنا استعمال اسم أمازيس حتى لا يخلطه القارىء بأحمس الذى طرد الهكسوس .

أمازيس ٥٦٨ — ٥٢٥ ق.م

معاملته لليونانيين :

هكذا تولى أمازيس الحكم بإثارة الشعور الوطنى العام ضد اليونانيين ، وعلّق عليه المصريون آمالا كبارا ، والحقيقة أنه كان يتظاهر بإخضاع اليونانيين ، ولكنه كان يعطيهم فى الواقع كل ما يلزمهم ، مثال ذلك : أنه أصدر أمره إليهم ألا يُنزلوا بضاعتهم فى أية جهة يرغبون فيها من الوجه البحرى ، بل عيّن لهم جهة هى مدينة نُقراطيس فى غربى الدلتا — ومحلها الآن كوم جعيف ، بمركز ايتاى البارود مديرية البحيرة — ومنحهم فيها امتيازات كثيرة ، فشُيدت فيها المصانع ، ونشط فيها التجار والصناع ، وتقدمت المدينة وأثرت ، طول حكم أمازيس ، الذى دام أربعة وأربعين عاما ، ونافست منف ، وصارت من أهم المراكز التجارية فى البحر المتوسط ، وكانت صبغتها يونانية فى كل شىء ، حتى أن حكومتها كانت مستقلة فى شؤونها الداخلية عن الحكومة المصرية ، ومرتبطة بالمدن الإغريقية ، يدلنا على ذلك أن أهلها لما أرادوا إقامة معابد خاصة لهم بها ، سارعت تلك المدن فى تقديم معونتها إليهم .

ليس غريبا بعد هذا أن يكون أمازيس محبوبا من اليونانيين ببلاد اليونان ومن إخوانهم النازلين فى نقراطيس .

قوة أسطوله :

أراد أمازيس ، كأسلافه من ملوك الفراعنة ، أن يستولى على جزء من فلسطين والشام ، ولكن البابليين لم يمكنوه من ذلك ، على أنه استطاع بقوة أسطوله العظيم أن يُشرف على التجارة البحرية ، وأن يخضع جزيرة قبرص و يلزمها دفع الجزية . وهنا يجب أن نلاحظ أن قوته البحرية كانت نواة قوة مصر البحرية فى عهد البطالمة ، حين سيطرت مصر على سواحل البحر المتوسط .

تنقيحه القوانين المصرية :

ومن أعمال أمازيس أنه نقّح القوانين المصرية ، وحتّم على كل ساكن أن يخبر حاكم مدينته كل عام بموارد الثروة التى يعيش منها . فلما زار مصر فى تلك الأيام المشرّع اليونانى سولون ، أخذ هـذه المـادة عن المصريين ونفّـذها فى أثينا عند عودته .

تطلع الفرس إلى فتح مصر :

ولمـا تقدّم أمازيس فى السن ، هدّد مصر من حدودها الشرقية خطر جديد ، ولم يكن مصدر هذا الخطر سوى دولة فارس العظيمة ، التى كانت فى أول أمرها إمارة صغيرة تابعة للميديين ، ثم تغلبت عليهم ، بفضل ملكها كورش ، وتطلعت إلى فتح مصر ، ونجحت فى مشروعها هذا ، فى عهد خليفته قمبيز ، فقضت بذلك على الأسرة السادسة والعشرين ، كما سنرى فى الفصل التالى .

الفصل الثالث

الفرس وفتح مصر

ظهور الدولة الفارسية

أصل الفرس :

ينتسب الفرس إلى المجموعة الآرية ، التى ينتسب إليها أغلب الشعوب الأوربية ، وقد نزحوا من موطنهم الأصلى فى جهات التركستان ، فى القرن السابع ق . م . ونزلوا فى إقليم إنشان ، فى الجزء الجنوبى من هضبة إيران ، وكان قد سبقهم إليها زملاؤهم الميديون ، الذين فاقوهم فى الحضارة ، وكوّنوا لهم امبراطورية قوية امتدّت من الخليج الفارسى إلى البحر الأسود .

اتساع ملكهم :

وفى منتصف القرن السادس ق . م . ، استطاع كورش ملك إنشان أن يسقط الأسرة المالكة فى ميديا ، ويعزل ملكها ويوحّد الميديين والفرس تحت سلطانه ويستولى على الجزء الشرقى من إمبراطورية آشور القديمة .

أمازيس والخطر الفارسى :

دب الذعر فى الأمم الأخرى إزاء هذه الانتصارات التى أحرزها كورش ، وأدرك أمازيس خطره على مصر وكافّة أمم الغرب ، فألّف حلفا مع ليديا ، وهى مملكة إغريقية على ساحل آسيا الصغرى ، وكان ملكها حينئذ قارون ، الذى ضُربت بثروته الأمثال ، وانضم الأسبرطيون وملك بابل إلى هذا التحالف ، وجعلوا غرضهم مقاومة كورش ، ولكنه أثبت أنه أقوى من أعدائه ، فغزا آسيا الصغرى وهزم ملك ليديا ، وأخذه أسيرا ، وضم بلاده إلى الإمبراطورية الفارسية ، وبعد ذلك بسنوات قليلة أرسل جيشا إلى مملكة بابل ، فاستولى على مدينة بابل وخضع لحكم فارس الجزء الغربى من إمبراطورية بابل فى الشام وفلسطين ، فأعاد كورش اليهود إلى فلسطين ، بعد أن قضوا فى بابل مدة طويلة .

الملك قمبيز

طمعه فى غزو مصر :

تولى بعد كورش ابنه قمبيز ، وكان يطمع فى الاستيلاء على مصر ، فأخذ يتحين الفرص لإثارة نزاع مع ملكها أمازيس ، وكان له ما أراد ، وبدأ يُعِدّ العدة لغزو مصر بجيش فارسى قوى ، وفى أثناء ذلك مات أمازيس ، فخلفه بسمتيك الثالث

قمبيز ملك مصر ، ٥٢٥ ق.م :

حكم بسمتيك الثالث بضعة شهور فقط ، ولم يحاول خلال هذه المدّة القصيرة أن يوحّد مملكته ضد الفرس ، لأن المصريين أنفسهم كانوا يكرهون اليونانيين .

تقدّم قمبيز بجيشه وعبر صحراء سيناء، ثم دخل مصر، بخيانة ضابط يونانى دلّه على أحسن طريقة لفتحها ، فقابله جيش من المصريين واليونانيين وغيرهم من الجند المرتزقة من آسيا الصغرى، والتقى الجيشان فى موقعة عند الفرما ،واستماتالمصريون واليونان فى القتال ، ولكنهم لم يقووا على الفرس فتراجعوا إلى منف .

فر بسمتيك الثالث مع فلول جيشه إلى منف ، ولكن سرعان مااستولى الفرس عليها ، وقبل قمبيز أن يحكم بسمتيك مصر من قبله ، فلما بلغه أنه ألّف عصبة ضدّه أمر بقتله وأعدم .

وأعلن قمبيز نفسه ملكا على مصر ، وأخضع البلاد جنوبا حتى طيبة — وقد ذكر الكتّاب اليونانيون أنه أرسل جيشا ليحتل الواحة الخارجة ، ولكنه هلك فى عاصفة من الرمال ولم يسمع عنه شئ .

دارا الأول

إصلاحاته بمصر :

تولى عرش الفرس بعد قمبيز الإمبراطور دارا ، فاهتم بمصر ، وعمل على ترقية تجارتها ، فحفر القناة التى يئس من شقها نخاو ، وتغلب مهندسوه على الصعاب التى واجهت نخاو ، ودخلت السفن الآتية من البحر المتوسط فى النيل ،وسارت فى القناة إلى البحر الأحمر .

حرص المصريين على الاحتفاظ باستقلالهم

قيام المصريين بالثورة :

سقطت مصر فى أيدى الفرس وأصبحت جزءاً من إمبراطوريتهم ، وحاول ملوكهم تقليد الفراعنة ، فتلقبوا بألقابهم ، وكتبوا أسماءهم على الآثار داخل مستطيلات ، كما فعلوا ، وعبدوا الآلهة المصرية ، وقدموا لها الضحايا فى المعابد ، ولكن على الرغم من كل هذا لم يكسبوا قلوب رعاياهم ، فقد كان المصريون طول تاريخهم شديدى الشعور بقوميتهم ، حريصين على الاحتفاظ باستقلالهم ، فقاموا بالثورات مرارا محاولين رد هذه الحرية المسلوبة (١) .

طرد الفرس :

أخمد الفرس الثورات الأولى ، ولكن ، فى عهد دارا الثانى، نجح المصريون فى طردهم ،وأحلّوا محل الأسرة السابعة والعشرين الفارسية أسرات وطنية ، أوّلها الأسرة الثامنة والعشرون ، وأصلها من سايس "صا الحجر ، مركز كفر الزيات مديرية الغربية" ، ثم الأسرة التاسعة والعشرون من منديس" فى ناحية تمى الأمديد بمديرية الدقهلية " ، فالأسرة الثلاثون التى أسسها نختنبو الأوّل ، أمير سمنود .

إعادة فتح الفرس لمصر ، ٣٤٢ ق.م :

ثم حاول الفرس إعادة فتح مصر ، فقابلهم المصريون بمساعدة الجند المرتزقة من اليونان ، وجاهدوا فى سبيل الدفاع عن استقلالهم جهاد الأبطال ، ولكنهم هُزموا أمام جموع الفرس الجرّارة ، سنة ٣٤٢ ق.م ، وفر نختنبو الثانى إلى النوبة ،

---

(١) زار مصر ، حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، المؤرخ اليونانى هيرودوت فأعجب بآثارها ، وكتب تاريخها فى مؤلف رائع وصف فيه رحلاته .

وبفراره سقطت آخر أسرة فرعونية حكمت مصر ؛ وظل الفرس يحكمونها حتى قضى الإسكندر الأكبر على أمبراطوريتهم سـنة ٣٣٣ ق . م ، ودخلت مصر فى دولته .



هيرودوت المؤرخ اليونانى

الباب السادس

الحضارة المصرية القديمة

الفصل الأول

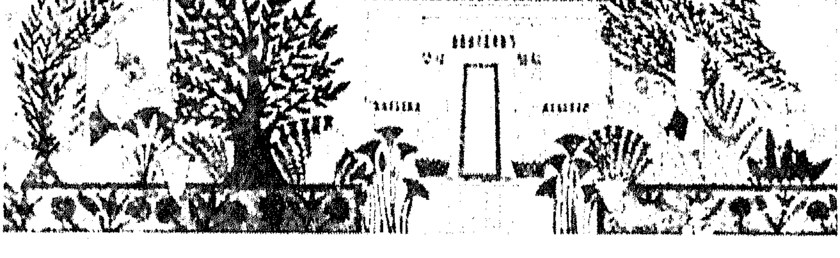
الحياة الاقتصادية

الزراعة

للمدنية المصرية القديمة طابع نيلى زراعى عملى ، نجده ممثلا فى عقائد المصريين وفى فنهم ، وفى لغتهم ، وفى كل مظاهر حضارتهم ؛ وسيتضح كل ذلك فيما يلى :

فضل المصريين على الزراعة :

كانت الزراعة أهم ما اشتغل به المصريون القدماء ، ولهم عليها فضل كبير ، فقد كانوا أوّل أمة زراعية عظيمة فى العالم ، وكان فلاحهم أوّل من اخترع الفأس لحفر الأرض ، والمحراث الخشبى لحرثها ، وأوّل من استعمل الشادوف لريها ، كما كانت حكومتهم أوّل حكومة عُنيت بالرى ونظامه ، لأن حياة مصر وسعادتها



مصريان يستعملان الدالية (الشادوف)

تتوقفان على النيـل ، الذى يفيض كل عام جالبًا معه الغرين فيزيد الأراضى خصوبة ونمـاء ، ثم يأخذ فى الانخفاض فيصعب الرى ، ويتطلب هـذا من الحكومة أن تتعاون مع الفلاحين لتوزيع المـاء عليهم توزيعاً عادلاً ، لذلك عنيت حكومة الفراعنة — كما تعنى حكومتنا اليوم — بحفر الترع والقنوات والإشراف عليها ، حتى ينتج الفلاحون محصولاً وافراً ، ويستطيع كل منهم دفع ما يُفرض عليه من ضرائب .

طريقة الزراعة :

وكانت طرق زراعة الحبوب غاية فى البساطة : فعند انخفاض النيـل يحرث الفلاح الأرض بمحاريث من الخشب تجرها الثيران ؛ ثم يبذر الحبوب ، وتدوسها الغنم أو الخنازير كى تغمسها فى الأرض ؛ ويلى ذلك أسابيع يقضيها الفلاح فى تعهد زراعته ؛ ثم يحصـدها ؛ وينقل حزم القمح إلى الجرن ، حيث تدوسهـا الحمير والمـاشية ؛ ثم يذريها فى الهواء بمذراة من الخشب ، فينفصل التبن عن الحب ؛ ويوضع القمح فى الزكائب ، وينقل إلى مخازن خاصة ، هى بناء من اللّبن فى أعلاه فتحة صغيرة يصب القمح فيها ، وفى أسفله باب لسحب الغلال منه ، حسب الحاجة وكان الكاتب يشرف على هـذه العملية ، فيدوّن فى لفائف من ورق البردى ما يدخل المخازن من زكائب الغلال وما يخرج منها .



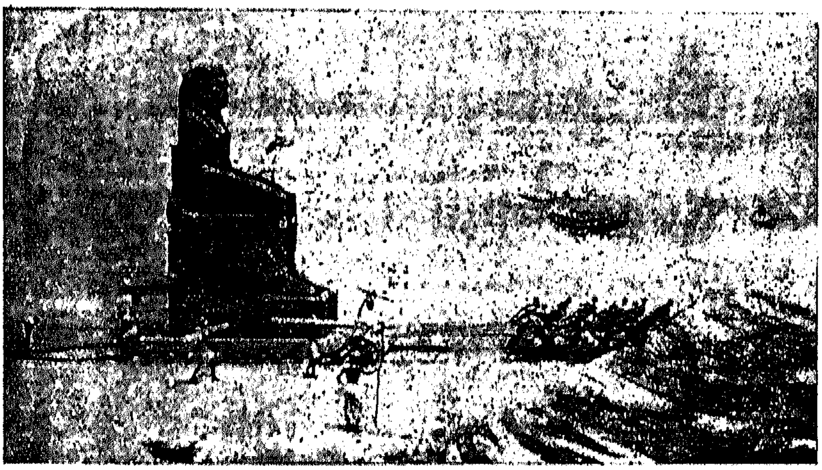
نموذجان للمخازن التى كان يحفظ فيها الفلاح المصرى غلاله
النموذج الأيسر ، وهو من الأسرة الأولى ، يتألف من قدور من الفخار
والأيمن ، وهو من الأسرة السادسة يتفق والكلام المذكور فى المتن .

حيوان المصرى القديم وطيوره :

وكان الفلاح المصرى القديم يعنى بحيوانه و يتفنن فى تدليله ، وأهم هذا الحيوان : البقر ، والغنم ، والحمير ، والكلاب ؛ أما الحصان فلم يعرفه المصريون إلا بعد الهكسوس ، كذلك ظل الجمل مجهولا حتى عهد اليونان . وولع الفلاح بصيد السمك والطيور ، وكانت برك الدلتا ملأى بالبط بأنواعه ، أما الدجاج فلم يعرفه المصريون حتى عهد الدولة الحديثة ، حين عادت إحدى حملات تحوتمس الثالث من الشام تحمل أشياء كثيرة ومخلوقات عجيبة ، من بينها طيور "تبيض كل يوم بيضه".

حال الفلاح المصرى القديم :

وكان الفلاح المصرى القديم مرتبطاً بالأرض ؛ ينتقل معها من مالك الى آخر كأنه جزء منها ، وإذا قصّر بجزاؤه الجَلْدُ ؛ وعليه إذا جاء الفيضان وأصبح العمل فى الحقل مستحيلا ، أن يقوم بعمل آخر فى خدمة فرعون أو حاكم الولاية التى ينتمى إليها ، فينقل الأحجار التى يقطعها العمال من المحاجر ، إلى حيث يريد كل منهما أن يبنى مقبرته أو معابد آلهته .



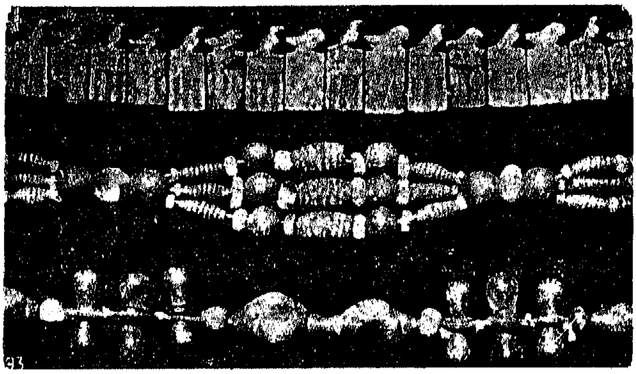
صورة تكوينية لفلاحين يجرون تمثال أميرهم (الدولة الوسطى)

الصـــناعة

تحوى متاحف العـالم الشهيرة عـدداً عظيماً من عجائب المصنوعات المصرية القديمة ، التى تدهش أهل العصر الحـاضر بجمالها ودقتها ، وتشهد بمهارة قدماء المصريين فى مختلف العصور .

الحـلى :

برع المصريون إبان عهد الأسرات فى استعمال الذهب والأحجار الكريمة المختلفة ، كالزمرد والفلسبار واللازورد ، فى صناعة الحلى الكثيرة التى تزينوا بها رجالا ونساء ، ومن أقدم تلك الحلى أساور عثر عليها فى مقبرة أحد ملوك الأسرة الأولى .

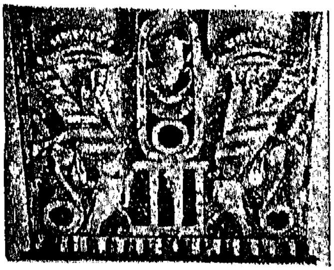


أساور من الأسرة الأولى



تاج من الذهب مطعم بالأحجار الكريمة لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة

ومن أجمل الحلى شكلاً وأتقنها صنعاً ، تلك التى وجدت بجهة دهشور ، وهى لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة ، ويتجلى حسن الذوق فى تطعيمها بالأحجار الكريمة ، ويصعب على أمهر صاغة العصر الحاضر أن يصنعوا أحسن منها .

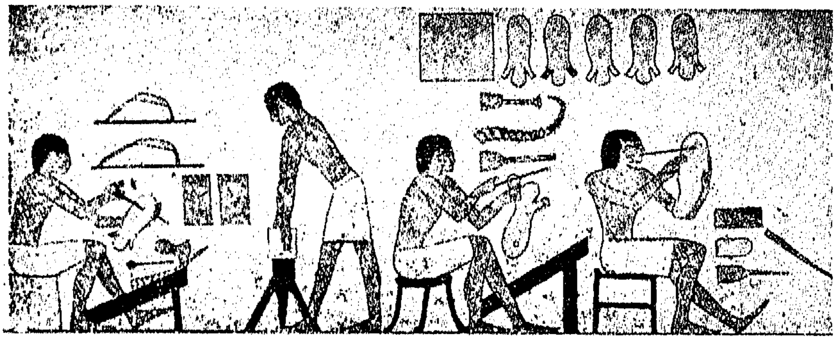


صدرية لسنوسرت الثانى من حلى الدولة الوسطى

ويتمثل كمال الصياغة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة فى الصدريات والأساور والقلائد والخواتم المطعمة بالأحجار الكريمة ، التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون ، وكلها محفوظة فى خزانات خاصة بالمتحف المصرى .

الورق وصناعات أخرى :

كان المصريون القدماء أول من صنعوا الورق فى العالم ، وصدّروه إلى الشام وغيرها من البلاد المجاورة ، فكان مورد ثروة كبيرة لهم ، ومما ساعدهم على ذلك وفرة نبات البردى ، الذى استخدموه فى تلك الصناعة ، ومن هذا النبات أيضًا صنع المصريون أشياء أخرى كثيرة ، مثل : السلال ، والنعال ، والحبال ، وخفاف القوارب .



صناعة الأحذية

النسيج :

ولقد امتاز النساء بإتقان صناعة النسيج ، فأخرج النول المصرى القديم نسيجاً رقيقاجدا يحكى أحسن أنواع الحرير فى الوقت الحالى ، وعلى النول صنع المصريون نوعا جميلا من السجاجيد ، تعلق على جدران القصور ، وتفرش فوق أرضها .

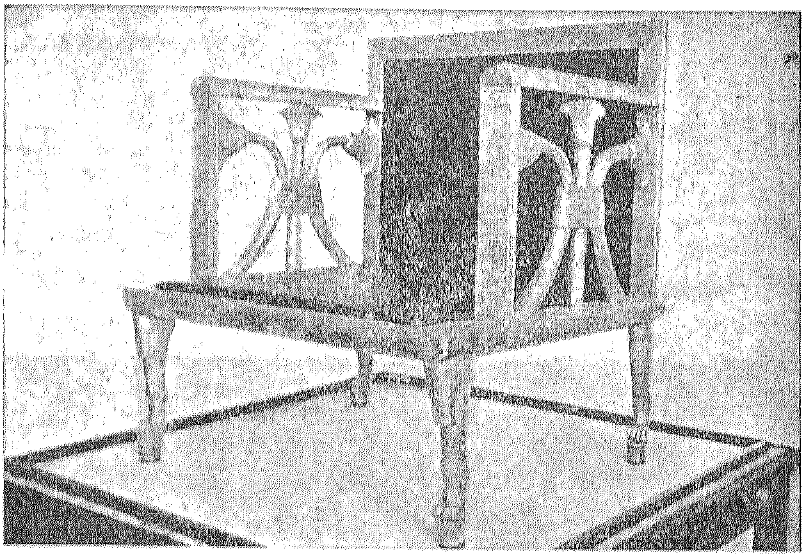


سيدات يغزلن و ينسجن

الأثاث وبناء السفن :

ومن خشب الجميز الذى ينمو بمصر ، وخشب الارز الذى يرد من الشام ، صنع المصريون القدماء توابيت الموتى والأثاث ، من أَسِرَّة ومقاعد وكراسى وغيرها ، وكسوها قشرة من الذهب ، وطعّموها بالعاج والأبنوس ، وفرشوها بوسائد من الجلد الناعم أتقنوا دبغه وصباغته ، ومن أجمل أنواع الأثاث ذلك الذى عثر عليه فى مقبرة توت عنخ آمون ، من عصر الدولة الحديثة ، حين كان الترف مضرب الأمثال .

ومن خشب الأرز أيضًا صنع المصريون سفنهم اللازمة لأسطولهم أو لنقل متاجرهم .

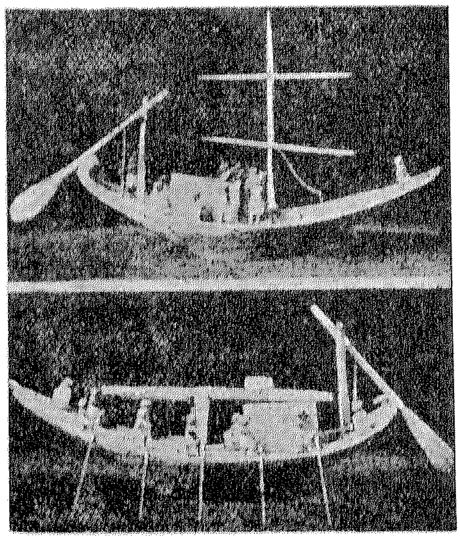


كرسي من الدولة القديمة

التجارة

التجارة الداخلية :

اشتغل المصريون بالتجارة من أقدم العصور ، فكان النيل والترع — وهى أهم طرق النقل الداخلية عندهم — غاصة بالقوارب والسفن ، التى تنقل البضائع والسلع إلى الأسواق .



نماذج لقوارب مصرية قديمة

المقايضـــة :

وكانت المقايضة أساس التبادل بينهم ، وكثيرا ما نشاهد بين النقوش الظاهرة على جدران آثارهم ، رسوما تمثل هذا النوع من المعاملة .



منظر لسوق مصرى قديم

ترى فى الجزء العلوى إلى اليسار زوجة النجار تعرض على بائع السمك صندوقا خشبيا صغيرا مقابل سمكة تود أن تبتاعها ، فى حين تتفاوض زوجة صانع الفخار مع بائع العطور على أن تشترى شيئاً من بضاعته وتعطيه آنيتين من الفخار

أول عملة فى العالم :

ومع أن المقايضة كانت الطريقة الغالبة فى التجارة، إلا أن المصريين استعملوا حلقات من الذهب والنحاس ذات وزن ثابت، فكانت أول عملة عرفها التاريخ . كما أنهم استعملوا أوزاناً من الحجر، وعرفوا كل مستلزمات التجارة والمعاملات ، من دفاتر الحساب والعقود ، واحتاجوا بذلك إلى طائفة من الكتاب حذقوا الكتابة وبرعوا فى المحاسبة .

التجارة الخارجية :

وكان المصريون ملاحين مهرة ، جالوا فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وكانت سفنهم تخرج إلى الشام محملة بمحصولات مصر ، ولا سيما ورق البردى والكتان ، وتعود منها بخشب الأرز والنحاس ، وكذلك تاجر المصريون مع رودس وقبرص وكريت .

وأرسل الفراعنة البعوث من وقت لآخر إلى بلاد پُنْت (الصومال) ، لجلب أشجار المر ، وأنواع الصموغ العطرية ، والبخور اللازم لمعابدهم . وكانت هذه البعوث ، فى عهد الدولة القديمة ، تخترق طريق القوافل ، فتجتاز الصحراء مبتدئة من قِفْط ، مارّة بوادى الحمامات ، الغنى بالذهب وحجر البازلت ، حتى تصل إلى القُصير ، على البحر الأحمر ، فتأخذ السفن منها إلى بلاد پنت . فلما وصل ملوك الدولة الوسطى النيل بالبحر الأحمر ، بترعة اخترقت وادى طميلات ، أخذت السفن تسير فيها من الدلتا إلى بلاد پنت ، وهذا هو الطريق الذى سلكته بعثة حاتشپسوت .

احتكار الحكومة للتجارة الخارجية :

وكانت التجارة الخارجية من أعمال الحكومة وحدها ، فلم يقم بها الشعب شركاتٍ وأفرادا ، كما هو الحال فى عصرنا الحالى ، ولعل السر فى ذلك أن الحكومة كانت محتكرة تجارة الخشب مع الشام ، وبذا احتكرت السفن الكبيرة الصالحة للسير فى البحار .

الفصل الثانى

الفنون

العوامل التى أثرت فى الفن :

كانت مصر مهد الفنون ، وقد تأثر الفن المصرى القديم باعتبارين هامين هما : العقيدة الدينية ، والبيئة التى أحاطت بسكان البلاد .

١ — العقيدة الدينية :

اعتقد المصرى القديم أن الحيـاة ستعود إلى الجسم بعد الموت ، فحرص على تحنيط جثث موتاه فى مدافن منيعة ، زيّن جدرانها بكتابات ونقوش تمثل مناظر مختلفة للميت ،وهو يراقب الخدم فى أثناء قيامهم بخدمته والمحافظة على روحه بعد موته ؛ ووضع التماثيل فى المقابر ، حتى إذا لحق الجثة العطب حلّت الروح فى التمثال ، وإلى هذا الاعتقاد يرجع الفضل فى وجود العدد العظيم من التماثيل المصرية القديمة ، التى يعتبر بعضها أجمل أمثلة النحت فى العالم كله .

كذلك حرص المصرى على إرضاء آلهته ، فبنى لهـا المعابد الضخمة من الحجر الصّلد واهتم بتنميقها وزخرفة جدرانها .

٢ — البيئة :

ولقد تأثر المصرى فى كل ذلك بالبيئة التى أحاطت به ، فالشمس ، التى تشرق عليه بأشعتها الساطعة طوال أيام السنة ، دعته أن يجعل جدران معابده خالية من النوافذ ، واكتفى بالضوء الذى ينفذ إليها من مداخلها المفتوحة ، أو من طاقات صغيرة فى السقف ، أو من ثقوب فى أعلى الجدران ؛ وعلى هذه الجدران الصماء رسم نقوشاً دقيقة قليلة البروز تمثل معتقداته الدينية وأعماله فى الحياة ، ولاحظ أن النقوش الداخلية لا تظهر واضحة فى الضوء المعتم ، فعمد إلى توضيحها بالألوان .

واتخذ المصرى القديم نماذجه كلها من مظاهر الطبيعة كما رآها ، فأقام أسقف مبانيه مثلا على أعمدة شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان ، أو بسيقان اللوتس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات ، كما جعل أساس زخرفته زهرة اللوس وزهرة البردى فأوجد منهما مئات الأشكال الزخرفية المشجرة التى حلّى بها آثاره .

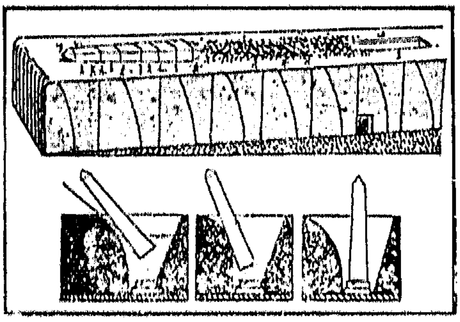
وسنلخص فيما يلى التطورات التى لحقت أهم الفنون فى عصور المدنية المصرية القديمة :

العمارة :

تجلت دقة العمارة ومتانتها ، فى عهد الدولة القديمة ، فى آثار سقارة ،وأهرام الجيزة ومعابدها ، كذلك فى المصاطب الحجرية الضخمة التى بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم .

فلما كانت الدولة الوسطى بنى الملوك أهرامهم من اللّبِن ، لأنهم أدركوا أن استخدام عدد كبير من الأيدى العاملة فى بناء أهرام ضخمة ليس من الأمور الاقتصادية التى تعود على البلاد بالخير . وأقلع أمراء هذا العصر عن إقامة المصاطب الحجرية حول أهرام ملوكهم ، وحفروا مقابرهم فى الصخور ، كما أسلفنا .

وفى عهد الدولة الحديثة كثرت المسلّات والمعابد ، وأصبحت هذه تبنى على مساحة أوسع مما كانت عليه فى أى فترة أخرى ، وذلك لأن الأموال تدفقت إلى مصر من البلاد التى خضعت لها ، وتعتبر معابد طيبة خير مثل لذلك .

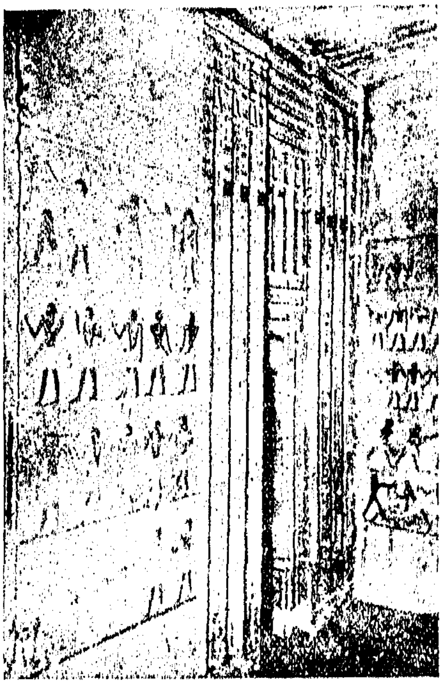


كيف كان المصريون القدماء يقيمون مسلاتهم

النقش والرسم والتصوير :

وكما امتاز عصر الدولة القديمة بضخامة مبانيه ومتانتها ، امتاز كذلك بجمال رسومه ، كما يتبين من النقوش البارزة الظاهرة على جدران مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة ، ولاسيما مصطبة الوزير بتاح حتب ، ومصطبة الأمير تى فى سقارة ، فتشاهد فى الأخيرة رسوم تمثل خدم الأمير يحرثون الأرض ويبذرون الحب ويجمعون المحصول ويتعهدون الماشية والطيور ، كما تمثل النجارين والحدادين فى عملهم ، والأمير واقفا فى قاربه يصطاد أو يتقبل الهدايا .

ويلاحظ على فن الرسم فى هذا العصر أن قواعد المنظور تكاد تكون معدومة فيه ، فاذا أراد الفنان أن يرسم شيئا وراء شىء آخر فما عليه إلا أن يضعه فوقه ، كما كان يرسم الإنسان جانبياً ، ولكنه يجعل كتفيه كأنما ينظر إليهما من الأمام ، وعلى كل حال ، فقد برع المصريون فى الرسم والتصوير



نقوش على جدران مصطبة بتاح حتب بسقارة

كما تدل على ذلك اللوحات الفنية الرائعة الجمال التى تنتسب الى الدولة القديمة ، ومنها لوحة عثر عليها فى إحدى مصاطب ميدوم ، وهى تمثل منظراً بديعاً ملوناً لِست أوزات تبحث عن غذائها ، ولا تزال ألوانها محتفظة برونقها القديم .



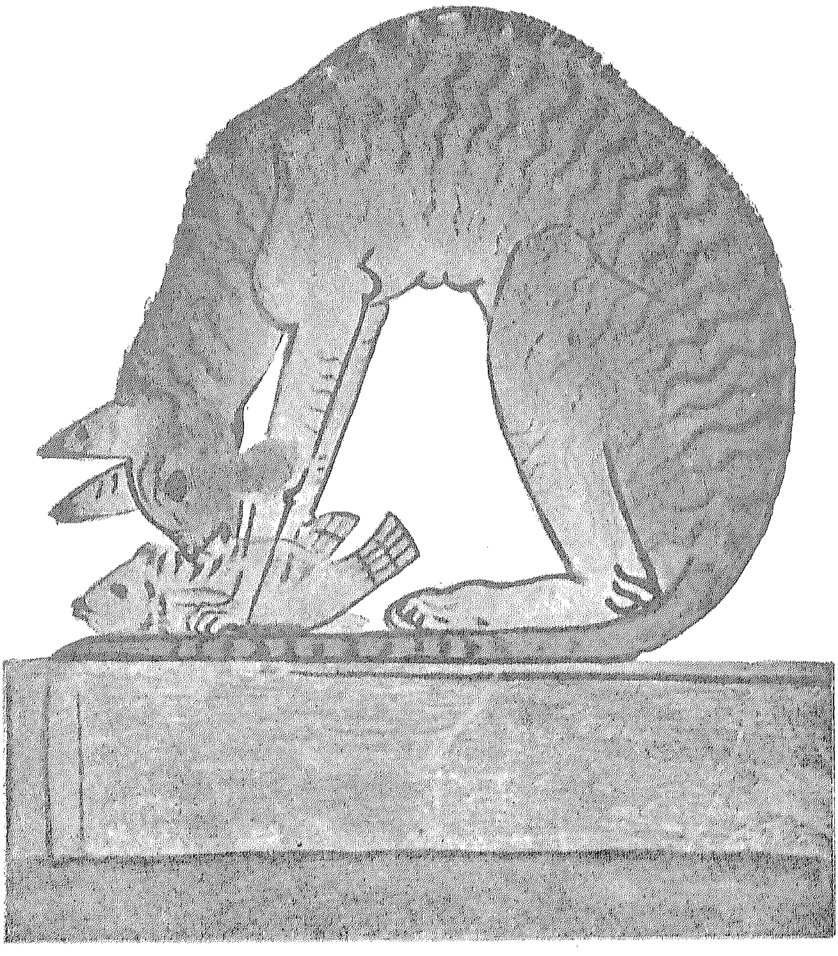
نقوش على جدران مصطبة "تى" بسقارة وترى النجارين يقومون ببناء قوارب



وحة عثر عليها فى إحدى مقابر الأسرة الرابعة بميدوم ، وتمثل ست أوزات تبحث عن غذائها
(المتحف المصرى)

ولقد استعاض أمراء الدولة الوسطى بالتصوير عن النقوش البارزة فأكثروا منه على جدران مقابرهم المحفورة فى الصخور ؛ وتنحصر أهمية هذا التصوير فى أنه يمثل الحياة فى ذلك العصر تمثيلاً صادقاً .

وفى عصر الدولة الحديثة تسابق الفنانون المصريون فى إتقان أعمالهم وإجادتها ، فشاع نقش الجدران وتحليتها بالرسوم ، ونقش فراعنة الدولة الحديثة جدران معابدهم نقوشاً بارزة تمثل حياتهم وحروبهم وانتصاراتهم فى البر والبحر .



قطة تأكل سمكة

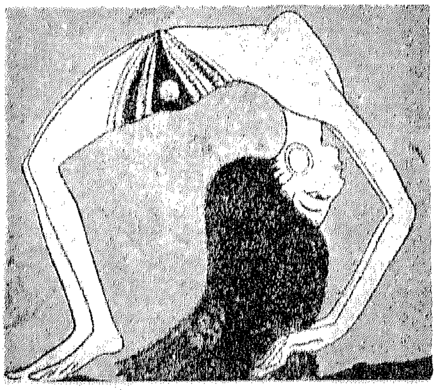
(رسم بإحدى مقابر طيبة)

ولم يقتصر الأمر على جدران المعابد ، بل شمل جدران القصور وأرضها ، فكانت قصور امنحتب الثالث وإخناتون محلاة بالنقوش الجميلة الزاهية ، من أزهار وطيور وحيوانات ، كل فى بيئته الطبيعية .



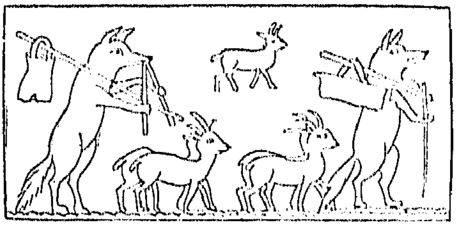
نقوش قصر أخناتون

ومن القطع الفنية الجميلة ، التى تدل على مهارة الفنان فى عصر الدولة الحديثة وعلى أخذه نماذجه من الحياة مباشرة : رسم لفتاة تقوم بألعاب بهلوانية ، وآخر لقطة تأكل سمكة .



فتاة تلعب ألعابا بهلوانية (الأسرة التاسعة عشرة)

ولقد وجد المصريون فى التصوير مجالا واسعاً للتعبير عن روح الفكاهة ، التى امتازوا بها ، ومن هذا النوع : رسم مجونى ، ورد على ورقة بردى محفوظة فى المتحف البريطانى بلندن ، يمثل حيوانات تقوم ببعض أعمال الإنسان، وهو يدل على روح المصريين المرحة ، التى مازالت قوية فينا !



رسم مجونى من عهد رمسيس الثالث

النحت :

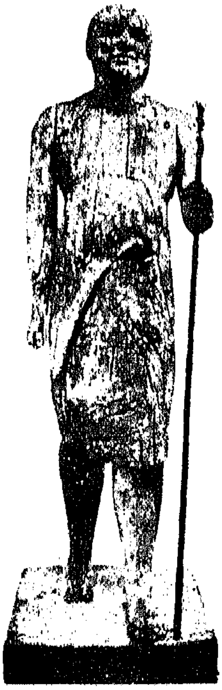


تمثال الأمير رع حتب

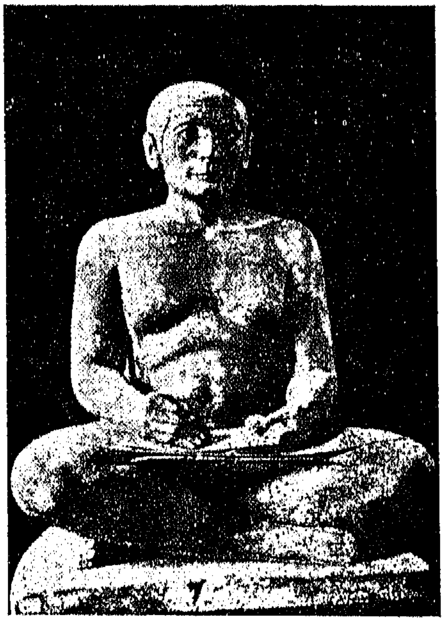


تمثال الأميرة نفرت

نحت المصريون ، فى عهد الدولة القديمة ، تمـاثيل كثيرة من الحجر الجيرى الملون ، وصنعوا بعضها من الخشب وحجر الجرانيت . ومن أهم تمـاثيل هذه الفترة : تمثال الملك خفرع ، المصنوع من حجر الديوريت الأخضر (ص ٣٨) وتمثالان عثر عليهما فى ميدوم ، أحدهما للأميرة نفرت ، والآخر لزوجها الأمير رع حتب الذى كان قائدا ورئيسا للكهنة فى هليو بولس "عين شمس" ، وتمثال شيخ البلد(١) وكلاها محفوظة بالمتحف المصرى ، كذا تمثال الكاتب الجالس القرفصاء المحفوظ بمتحف اللوفر فى باريس .



شيخ البلد — تمثال من الخشب



تمثال الـكاتب — متحف اللوفر

أما تمـاثيل الدولة الوسطى فهى أقل إتقاناً من تمـاثيل الدولة القديمة ، لـكنها لم تخل من مزايا فنية ، كما هو ظاهر فى تمثال رأس امنمحيت الثـالث

(١) أطلق على التمثال هـذا الإسم عمال بلدة سقارة الذين عثروا عليـه فى القرن المـاضى لأنهم رأوا فيه شبها كبيرا لشيخ بلدهم وقتئذ ، ولعله لأحد رؤساء العمال الذين اشتركوا فى بناء أهرام الجيزة .

المصنوع من الزجاج الطبيعى ، الذى يدل على مقدرة الفنّان فى إظهار ملامح الوجه بوضوح ، على الرغم من صلابة المادة التى صنع منها (شكل ص ٦٧) .

ومن التماثيل الجميلة التى تنتمى إلى الدولة الوسطى تلك التى عثر عليها فى معبد سنوسرت الأول الواقع إلى الشرق من هرمه باللشت ، وهى منحوتة من الحجر الجيرى ، وتمثل الملك جالساً .

وصل فن النحت فى ذلك العصر إلى مرتبة عظيمة ، تتجلى فى تمثال الملكة نفرتيتى زوجة إخناتون ؛ وفى تماثيل أخرى صغيرة ، منها تمثال خادم يحمل فوق ظهره جرة ثقيلة .



خادم يحمل جرة (الأسرة التاسعة عشرة)

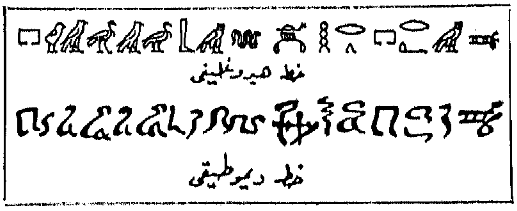
الفصـــل الثـالث

العلوم والاداب

الكتابة

المصريون وفن الكتابة :

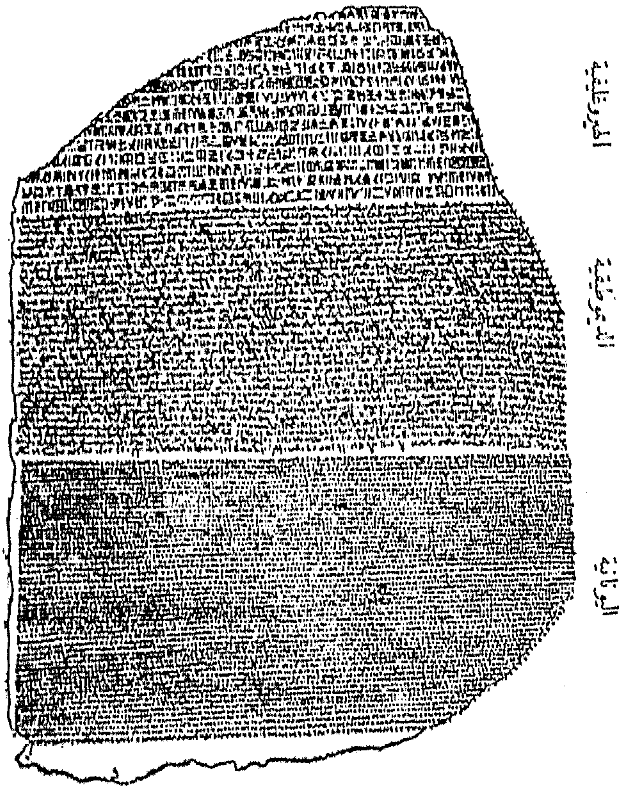
للمصريين القدماء فضل عظيم على العلم ، إذ كانوا أوّل من عرفوا فنّ الكتابة واستعملوا صور الحيوانات والأزهار والطيور وغيرها لتدل على الكلمات ، ثم اختصروا هذه الصور إلى عدد معين تكوّنت منه حروفهم الهجائية ، وتعرف هذه الكتابة بالهيروغليفية أى "الحروف المقدسة"، وكانت تكتب من اليمين إلى اليسار ، أو من اليسار إلى اليمين ، أو من أعلى إلى أسفل ، ولما كانت هذه الكتابة صعبة الاستعمال فى الأعمال العادية فقد اختزلها المصريون القدماء إلى كتابة أبسط منها تعرف بالهيراطيقية ، تكتب من اليمين إلى اليسار ، وبها دُوّنت أغلب الأدبيّات المصرية القديمة . وفى القرن السابع ق . م . اختزلت هذه الكتابة إلى نوع أبسط منها يعرف بالديموطيقية ، التى حلّت محلها الكتابة القبطية ، حوالى القرن الثالث بعد الميلاد .



وعن الديموطيقية أخذ الفينيقيون كتابتهم وجعلوها مكونة من اثنين وعشرين حرفًا ساكنًا ومتحركا ، أخذها عنهم اليونان ،ومن اليونان تعلّمها الرومان ،وبذلك تكون الكتابة المصرية القديمة أساس كتابة جميع الأمم المتمدينة فى الوقت الحاضر .

حجر رشيد :

وقد ظل مدلول الكتابة المصرية القـديمة مجهولاً إلى الربع الأول من القرن المـاضى ، ثم حدث فى أثناء احتلال الفرنسيين مصر ، فى آخر القرن الثامن عشر ، أن عثر أحد ضباط نابليون ، بالقرب من رشيد ، على حجر أسود غير منتظم الشكل ،



حجر رشيد

طوله يزيد على المتر قليلا ، وعرضه سبعون سنتيمترا ، وعلى سطحه الأملس كتابات هيروغليفية وديموطيقية ويونانية ، فلمـا أجلى البريطانيون الفرنسيين عن مصر ، استولوا على هذا الحجر ، وأودعوه المتحف البريطانى بلندن ، وتبين من ترجمـة الكتابة اليونانية أنها تتضمن مديحًا كتبه الكهنة المصريون لمليكهم بطلميوس الخـامس ، اعترافا بفضله (١) وقد عكف بعض العلماء على فك رموز الكتابتين

(١) حكم البطالمة مصر من ٣٢٣ — ٣٠ ق . م .

المجهولتين (الهيروغليفية والديموطيقية) مسترشدين بالكتابة الثالثة التى يعرفونها ، ولكنهم لم يتقدموا فى ذلك كثيرا . وفى سنة ١٨٢٢ وفق إلى حل تلك الرموز العلامة الفرنسى شامبليون ، وذلك بمقارنة أسماء الأعلام فى الكتابات الثلاث .

وعندئذ تسابق العلماء الأجانب فى كشف كثير من نواحى المدنية المصرية القديمة ، وأخذت الجامعات الأوربية والأمريكية توفد بعوثها عاما بعد عام ، لتقوم على دراسة آثار مصر العظيمة ، وتنظم أعمال الحفر والبحث عنها ، وفى جامعتنا اليوم معهد للآثار يعنى بهذه الأعمال .

العلوم العملية

اتضح من دراسة أوراق البردى القديمة أن المصريين القدماء أخذوا بقسط وافر من الحساب والهندسة والفلك ، كما كان لهم شأن خاص فى الطب .

الحساب :

ففى الحساب عرف المصريون الرموز العددية حتى المليون ، وكان يرمز إلى الآحاد بخطوط حتى رقم تسعة ، ويرمز للعشرات بحلقات مفتوحة من أسفل ، من العشرة الأولى الى العشرة التاسعة ، وللمئات بحلزون من المائة الأولى إلى المائة التاسعة أيضا . وعلى هذا كان الضرب فى عشرة عملية سهلة ، إذ ما على المرء إلا أن يحوّل الخطوط ، إلى حلقات أو الحلقات إلى حلزونات ، كذلك استعمل المصريون القدماء الكسور .

الهندسة :

ولم يَقِل تقدّم المصريين فى الهندسة عن تقدّمهم فى الحساب ، فعرفوا بالضبط مساحة المربع والمستطيل والمثلث ، ووصلوا إلى مساحة الدائرة بالتقريب ، وذلك بتربيع $\frac{8}{9}$ قطرها ، وقدّروا حجم متوازى المستطيلات وحجم الهرم الناقص تقديرا صحيحا ، وهذا مما يدعو إلى الاعجاب .

الفلك :

نبغ المصريون فى الفلك ، وكانوا أول أمة فى العالم ابتكرت التقويم السنوى ، فقد لاحظ سكان الدلتا ، الذين عاشوا فى عصر ما قبل الأسرات ، ظهور نجم الشعرى اليمانية (١) فى الأفق الشرقى ، وقت شروق الشمس فى يوم معين من السنة ، ثم حسبوا الفترة بين ظهوره كذلك مرتين ، فوجدوها ٣٦٥ يوماً ، فقالوا إن السنة تتكون من ٣٦٥ يوماً ، وقسموها إلى ثلاثة فصول ، كل منها أربعة أشهر : أولها الفيضان ، وثانيها البذر ، أى الشتاء ، وثالثها الحصاد ، أى الصيف ، وقسموا كل شهر من الاثنى عشر شهراً إلى ثلاثين يوماً ، حفظاً للنظام وتسهيلاً للمداولات ، ثم جعلوا الأيام الخمسة الباقية فترة عطلة وأعياد . وقد دلت الأبحاث الفلكية الحديثة على أن هذا العمل العظيم تم فى عام ٤٢٣٦ ق.م .

المصريون القدماء لم يعرفوا السنة الكبيسة :

ويظهر من هذا أن المصريين ، فى ذلك الزمن البعيد جداً ، لم يعرفوا السنة الكبيسة ، فكانت سنتهم تنقص كل عام ربع يوم ، وبمرور الزمن ارتبك نظام الفصول فى التقويم ، فلم تعد توافق الفصول الحقيقية إلا بعد مرور ١٤٦٠ سنة ، ثم ارتبك النظام مرة أخرى ، وهكذا . ومن الملاحظات الطريفة فى هذا الموضوع ما جاء فى كراسة تلميذ عاش أيام الأسرة التاسعة عشرة ، إذ كتب عبارة نقلها عن أديب قال فيها : " هَلُمَّ إلى يا إلهى آمون ، وأنقذنى من السنة التى اختل نظامها ، فلم تعد الشمس تشرق بأشعة متوهجة ، حتى حلّ الشتاء محل الصيف وتراجعت الشهور ! " .

التقويم المصرى القديم أصل التقويم الحالى :

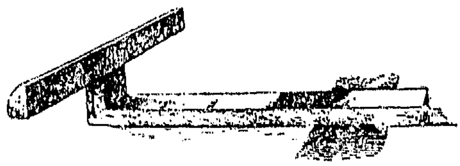
ومهما يكن من شىء ، فالمهم أن نلاحظ أن التقويم المصرى القديم ، الذى اخترع فى القرن الثالث والأربعين ق.م . ، هو التقويم الحالى الذى ورثه العالم بعد ستة آلاف سنة ، مع تعديل طفيف .

---

(١) كان لهذا النجم شأن خاص عند المصريين القدماء عموما ، فقد كان ظهوره عندهم يدل على قرب فيضان النيل ، ولذا اتخذوه أساسا للتقويم .

اقدم ساعات العالم — المزولة :

ولقياس الزمن ، اخترع المصريون القدماء المزاول لمعرفة الوقت نهاراً ، والساعات المائية لمعرفته ليلا . ويتكوّن أبسط أنواع المزاول من قضيب خشبي

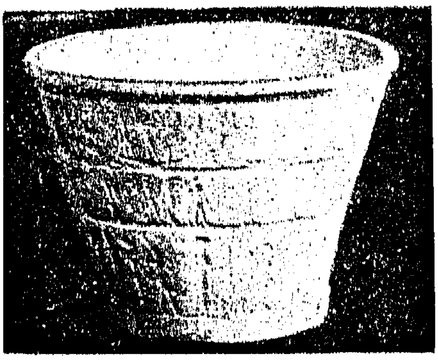


المزولة المصرية القديمة

عليه خطوط تدل على الساعات ، وفى أحد طرفيه كتلة خشبية يعرف الوقت بسقوط ظلها على خطوط القضيب ، ولذلك توضع بحيث تكون فى الشرق صباحًا وفى الغرب مساء .

الساعة المائية :

وتتكوّن الساعة المائية من إناء يُملأ إلى حافته بالماء ، ويتقطر الماء ببطء من ثقب صغير فى أحد جوانب القاعدة ، فينخفض سطحه إلى العلامات المنقوشة بداخل الإناء ، فتدل تلك العلامات على الساعات فى مختلف الشهور . وفى المتحف المصرى ساعة من هذا الطراز ، مصنوعة من المرمر ، عثر عليها فى الكرنك ، وتنتسب إلى عصر أمنحتب الثالث ، من الأسرة الثامنة عشرة ، وقد ظل هذا النوع من الساعات مستعملاً فى المعابد المصرية إلى ما بعد عهد الإسكندر الأكبر بزمن طويل.



ساعات مائية من الأسرة الثامنة عشرة

الطب — الوصفات والتعاويذ السحرية :

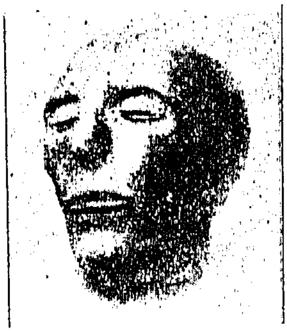
كان الطب المصرى القديم — كما هو ثابت مما عثر عليه من أوراق البردى المختلفة — مجموعة من الوصفات والتعاويذ السحرية ، ومن هذه الوصفات التى عرفها المصرى القديم أدوية بسيطة لا يزال استعمالها شائعاً حتى اليوم : فزيت الخروع مثلاً من المسهلات التى أشار بها المصريون واستعملوها . وقد تأثرت فائدة هذه "الأدوية" باعتبارين غريبين : أولهما ، الاعتقاد الخرافى بأن الدواء لا يكون فعّالاً إلا إذا حوى مادة قذرة ، كروث البهائم ، وثانيهما ، الاعتقاد الراسخ فى السحر ، فكان كل دواء تقريبا يقترن تناوله بتعاويذ سحرية .

مؤلف مصرى قديم فى الجراحة :

ومع كل هذا فقد ترك المصريون القدماء مؤلفًا هامًا فى الجراحة ، كتبوه على أساس علمى صحيح . والظاهر أنه كان من الكتب المستعملة فى مدارس الطب عندهم ، وهو يدل على أن الجراحين المصريين شخّصوا كثيراً من الحالات تشخيصًا صحيحًا وعرفوا طريقة علاجها ، ومن المحتمل أن يكون لقدماء المصريين فضل السبق على اليونان فى هذا الميدان .

التحنيط :

ولقد برع المصريون فى فن التحنيط ، حتى أصبح فى عصر الدولة الحديثة ميسوراً للفقراء ، ووصل تحنيط جثث الفراعنة إلى أعلى درجة من الإتقان فى عهد الأسرة الحادية والعشرين . وكانت أحشاء الميت تنتزع عند تحنيط جثته ، وتحفظ فى قدر خاص عليه غطاء يمثل رأس أحد الآلهة .

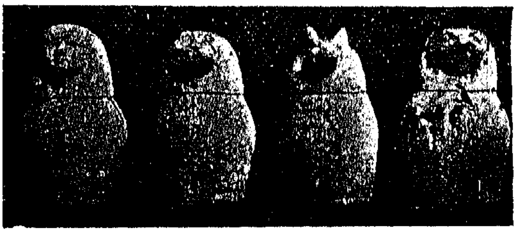


رأس سيتى الأول محنطة

وليس أدل على مقدرة المصريين القدماء فى هذا الفن ، من موميات[1] الملوك والأمراء

(١) الجثث المحنطة .

التى أخرجت من قبورها وما زالت تحتفظ بشكلها البشرى احتفاظاً مدهشاً بعد آلاف الأعوام ، حتى أن الإنسان ليرى الاظافر وشعر الجلد والراس باقية كما كانت فى اثناء الحياة ! وقد حاول العلماء أن يكشفوا سر هذا الفن العجيب ، ولكنهم أخفقوا .



قدور كانت تحفظ فيها أحشاء الميت

الأدب

موضوعه :

ترك المصريون القدماء تراثاً أدبياً مجيداً، نقشوه على الأحجار ودونوه على أوراق البردى ، عالجوا فيه موضوعات دينية ودنيوية ، فمن شرح عقائد قديمة ، إلى حِكَم خالدة ، وأمثلة رائعة ، إلى قصص بعضها حقيقى وقع للكُتّاب أو لمعاصريهم ، وبعضها خرافى يَنمُّ عن خيال خصب ، وتصوير بعيد المدى ، إلى أناشيد رصينة الأساليب . وكان تلاميذ المدارس يحفظون كثيراً من هذه الأدبيات عن ظهر قلب ، وينسخونها مراراً فى كراساتهم المصنوعة من ورق البردى ، ليجيدوا صناعة الكتابة والإنشاء ؛ ولهذه الكراسات الفضل فى الاحتفاظ بأحسن أنواع الأدب المصرى القديم ، لأن أغلب أوراق البردى التى عثر عليها هى من تلك الكراسات نفسها .

١ — الأدب الدينى

نصوص الأهرام :

وأقدم ما جاء فى الأدب الدينى هى تلك النقوش الهيروغليفية الظاهرة على جدران الأهرام فى سقارة ودهشور والتى تعرف بنصوص الأهرام .

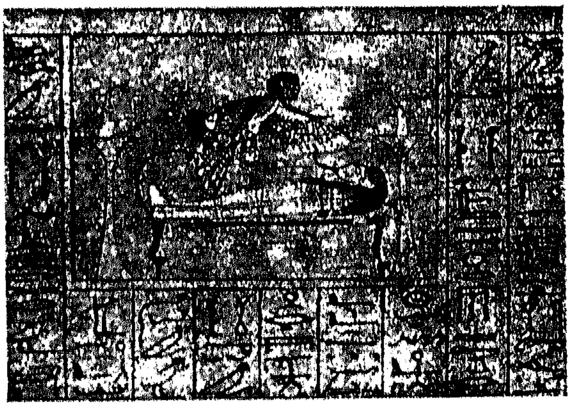
وقد رأينا أن الملك أوناس ، احد ملوك الأسرة الخامسة ، كان اوّل من دوّن هذه النصوص على هرمه القائم بسقارة ، وعرفنا الغرض منها وفق معتقدات المصرى القديم (ص ٤٨) .

أغنية أخناتون :

ومن أحدث ماتركه المصريون من هذا النوع من الأدب، الأغنية التى وضعها إخناتون لإلهه "آتون"، وفيها يتحدث عن العبد و إخلاصه لإلهه القوى الواحد، وقد مرّ بنا بعض هذه الأغنية فى الكلام عن ثورة أخناتون الدينية (ص ٩٤) .

كتاب الموتى :

على أننا نجد أعظم ثروة أدبية دينية للمصريين القدماء فى كتاب الموتى ، وهو يتكوّن من لفائف من ورق البردى كانت توضع فى التابوت إلى جانب الميت وتحوى تعاويذ سحرية اعتقد المصرى القديم أنها تحفظ الروح من الأخطار التى تهدّدها فى الدار الآخرة ، فتمنع عنها نهش الثعابين والأخطار السامة ، وتقيها شر الأرواح الشريرة، عند ما تزور الجثة فى القبر . و يصحب معظم هذه التعاويذ رسوم جميلة ملوّنة ذات قيمة فنية كبيرة .



من كتاب الموتى — زيارة الروح للجثة

٢ — الأدب الدنيوى

نصائح بتاح حتب :

أما الأدب الدنيوى فأقدم ما ورد فيه نصائح للحكيم بتاح حتب ، وزير الملك إسيسى من ملوك الأسرة الخامسة ، وقد ذكرنا بعض أمثلة منها (ص ٤٧)

وصايا آنى :

ومن أحدث ما كتب فى هذا النوع من أدب السلوك وصايا ، يرجع عهدها إلى الدولة الحديثة ، تركها حكيم ، اسمه آنى ، لابنه — وإليك أمثلة منها :

”لا تجلس وغيرك واقف، ولا سيما إذا كان أكبر منك سناً ، ولو كنت أرفع منه منزلة ومقاماً . هلاك المرء فى لسانه فاحذر أن تضر نفسك . لا تردّ على رجل وهو غاضب ، بل ابتعد عنه . وتكلم بلطف مع من خاطبك بألفاظ جارحة ، فالكلمات الرقيقة تهدئ حِدَّته “ .

قصة سنوهى :

وتحوى لفائف البردى قصصًا طريفة عن الأسفار والرحلات فى عهد الدولة الوسطى ، نذكر منها قصة الأمير سنوهى ، الذى فرّ إلى سوريا بعد وفاة الملك أمنمحيت الأوّل (ص ٦٣) ، وفى سوريا تزوج سنوهى من ابنة رئيس إحدى قبائل الشام، فمنحه أرضًا خصبة ، وقطيعًا كبيراً من الماشية . ومرّت سنوات عدة وهو بعيد عن وطنه ، فحنّ إلى العودة إلى مصر ، وخاف أن يدركه الموت وهو غريب عنها ، فكتب إلى سنوسرت يطلب عفوه ويستأذنه فى العودة إلى بلاده فعفا عنه فرعون وسمح له بالرجوع ، وما كان أشدّ دهشة الملك حين رآه وقد تغير شكله وأطال لحيته ، على غرار ما كان يفعله أهل سوريا ، فرحّب به وعيّنه موظفًا فى بلاطه ، ولم يفت سنوسرت أن يرسله إلى الحلاق ، فأزال لحيته ووضع سنوهى على رأسه شعراً مستعاراً ، كما كان يفعل الأمراء المصريون القدماء .

قصة البحار الغريق :

ولم تكن قصص الأسفار كلها من هذا النوع الذى تناول الأحداث التاريخية بل كانت هناك قصص أخرى خرافية ، نذكر منها قصة البحار الغريق ، وملخصها أن بحاراً ركب سفينة كبيرة فيها مائة وخمسون ملاحا من نخبة المصريين ، الذين لهم قلب جسور كقلب الأسد ، وبينما كانوا مجدّين فى الاقتراب من البر ،

اشتدت الرياح، وهاجت الأمواج، فغرقت السفينة ، وهلك من فيها ، أما هو فألقته موجة على جزيرة وجد فيها ما يقتات به ، ثم سمع صوتاً كصوت الرعد، ولمح ثعباناً هائلا يقترب منه ، وبعد محادثة قص فيها البحرى قصته ، أقام مدة مع الثعبان ضيفاً مكرما ، ثم أتت سفينة حملته إلى بلاده ، واستحالت الجزيرة عند مغادرته إياها إلى لجة من الماء .

وهذه القصة تشبه قصة السندباد البحرى الواردة بين أساطير ألف ليلة وليلة ، وتشبه أيضاً قصة روبنسون كروزو الشهيرة فى الإنجليزية . ومع أن حكاية البحار الغريق هى قصة خرافية بحتة ، إلا أن مؤلفها صوّر حياة الملاحين والملاحة فى البحر الأحمر ، أيام الدولة الوسطى ، تصويراً صادقاً دقيقاً .

قصة القائد تحوتى :

وفى عهد الدولة الحديثة أنتجت الحروب الأسيوية قصصاً رائعة عن انتصارات الفراعنة وقوادهم ، نذكر منها قصة قائد ما كر من قواد تحوتمس الثالث اسمه تحوتى ، ويروى عنه أنه لما أراد أن يستولى على مدينة يافا ، خدع حاكمها بأن أدخل جنده إليها مُختبئين فى زلع محمولة على حمير ؛ وهذه قصة شبيهة بقصة على بابا والأربعين لصًّا ، الواردة بين أساطير ألف ليلة وليلة .

الشعر :

أما فى ميدان الشعر فقد نظم الشعراء القصائد الرّنانة فى وصف انتصارات المصريين ، وأجادوا بصفة خاصة وصف معركة قادش ، وامتدحوا الشجاعة النادرة المثال التى أبداها رمسيس الثانى فيها .

وقد نُقشت هذه القصائد الخاصة بمعركة قادش على كثير من جدران معابد رمسيس ، وعثروا على قصائد أخرى نسخها على قرطاس بردى كاتبٌ مصرى قديم، يُدعى بنتاءور، فظن البعض أنها من نظمه، والحقيقة أنه نسخها فحسب .

الفصل الرابع

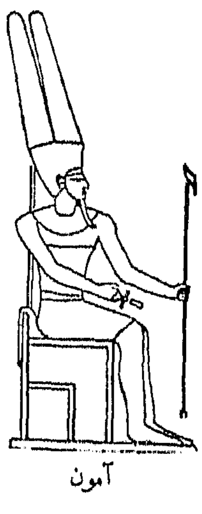
المعتقدات الدينية

المصريون قوم يخافون الله :

كان المصرى القديم يعتقد اعتقاداً راسخًا فى وجود إله يشرف على أعماله وأفكاره ويحاسبه عليها ، ولم يكن يقوم بأى عمل دون أن يذكر اسمه ، أو يتوسل إليه أن يرشده إلى الطريق القويم ليسلكه ، لذلك عاش عيشة صالحة ، وكانت تعاليمه من أنبل التعاليم وأطهرها ، وهذا ما دعا هيرودوت إلى قوله المأثور " المصريون قوم يخافون الله " .

تعدّد الآلهة :

وأهم ما نلاحظه على ديانة المصريين القدماء هو تعدُّدُ آلهتهم ، إذ كان لكل بلد إلهها الخاص الذى يحميها من الشر ، وكان يحدث بين حين وآخر أن تنتشر عبادة إله من هذه الآلهة المحلية ، عند ما يعظم شأن البلد التى يعبد فيها ، مثال ذلك : ما حدث فى أوائل الدولة القديمة ، حين انتشرت عبادة رع ، إله عين شمس ؛ وفى أيام الدولة الحديثة ، حين سادت عبادة آمون ، إله طيبة .


آمون

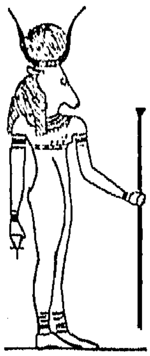
بيْد أن تعدّد الآلهة اختفى مدة قصيرة أيام الأسرة الثامنة عشرة ، حين تحمس أخناتون لنشر ديانة آتون (قرص الشمس) التى كانت وحدانية خالصة كما رأينا (ص ٩٢ — ٩٤) .

آلهة فى شكل حيوان :

اعتقد المصريون القدماء أن الآلهة كانت تزور الأرض دائماً لتراقب أعمال الإنسان ، فتسكن أجسام حيوانات شتى ، وبذا أصبحت أغلب الحيوانات مقدسة فى نظر المصريين : فابن آوى مثلاً يمثل أنوبيس ، إله التحنيط ، والبقرة ، أقدس الحيوانات ، تمثل الإلهة حتحور ، إلهة النساء والجمال والحب والموسيقى . كذلك كان للعجل ، المعروف بالعجل أبيس ، مركز خاص فى العبادة ، وكانوا يختارونه من بين مواليد البقر ، باجتماع عدة أوصاف فيه : كسواد جلده ، ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل على جبهتـه ، وأخرى على جانبه الأيمن فى شكل هـلال . وكان يوم الاهتداء إليه يوم سرور عام ، كما كان يوم موته ابتداء حزن شامل ، يستمر حتى يعثر القوم على عجل آخر تتوافر فيه جميع الصفات المطلوبة . وكانوا يحتفلون بدفن العجل أبيس احتفالاً رهيباً فى مقبرة عظيمة منحوتة فى الصخر ، فى سقارة ، تعرف بالسرابيوم . ولا يزال بها عدد من توابيت العجول ، مصنوعة من الجرانيت والبازلت ، يرجع أقدمها إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين .



أنوبيس



حتحور فى شكل سيدة برأس بقرة



مدفن العجول بسقارة

حيوانات نجسة :

وكانت هناك بضعة حيوانات اعتبرها المصرى نجسة ، كالخنزير ، لا يمسها أحد سوى رعاتها ، فإذا لمس أى رجل، ولو بطرف قميصه، خنزيراً ، وهو فى طريقه ، أسرع على الفور إلى النهر ليغتسل ، فينزل فيه بملابسه حتى يُطَهِّر نفسه مما لحقه من رجس .

وكانت الثعابين والأفاعى تعتبر بصفة عامة آفات يجب القضاء عليها ، وكان بعضها مُقَدَّسًا ، كالحيَّة ، التى كانت تنقش صورتها على أبواب معظم المعابد المصرية ، كما كانت تزين تاج فرعون .

طيور مقدسة :



تحوت

كذلك كانت هناك طيور قدَّسَها المصريون ، من أهمها : الصقر (الباشق) ، وأبو منجل (إيبس) ؛ وكان الصقر رمزاً للإله حوريس ، وأبو منجل رمزاً لتحوت ، وهو إله العلم والحكمة[1] الذى اخترع الكتابة ووضع اللغة والأدب ، وذلك وفق عقيدة المصرى القديم ، وكان تحوت فى الأصل إله مدينة الأشمونين (مركز ملوى بمديرية أسيوط) ، وهى التى سمّاها اليونان "هرموبوليس" ومعناها مدينة الإله هرميس ، إله الفن والعلم عند اليونان والرومان .

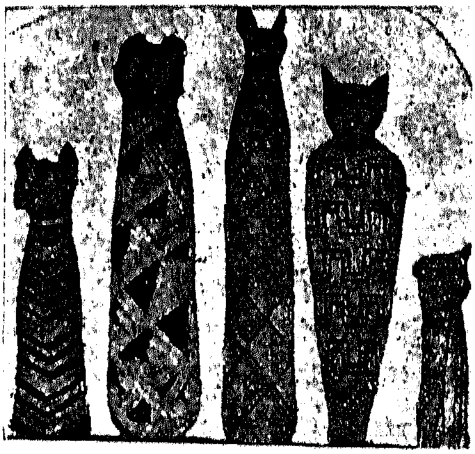
وقد ظل الاعتقاد بقدسية الحيوانات سائداً إلى آخر التاريخ المصرى القديم . وكان قتل كل حيوان مقدس جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، فإذا حدث القتل عفواً ، جاز أن يُكتفى بفرض غرامة على القاتل .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد لذاتها كآلهة ، إلا فى آخر التاريخ المصرى ، حين دخلت البلاد فى دور انحطاطها .

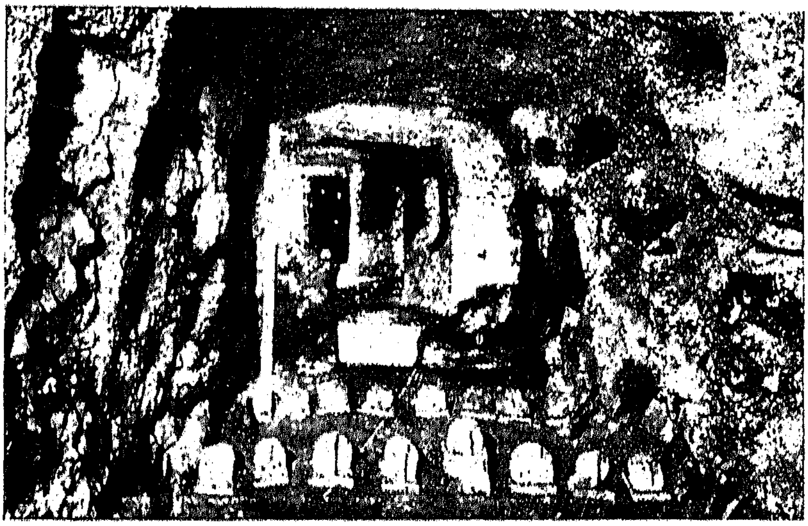
(١) اتخذت جامعة فؤاد الأول رسم تحوت المرسوم هنا شارة لها .

مدافن المعبودات :

وكان لهذه الحيوانات حُرَّاس يقومون على خدمتها و يُقَدِّمون لها الطعام، الذى يأتى به الناس ، فإذا ماتت دفنت بعد تحنيطها باحتفال رهيب ، فى مقر عبادتها الرئيسى . فمثلاً كان العجل أبيس يدفن فى السرابيوم بسقارة، والقطط فى مقبرة خاصة بمدينة بوبسطة (بجوار الزقازيق) والطيور والقردة المقدسة، التى ترمز للإله تحوت، فى القسم الغربى من هرموبوليس (تونة الجبل)، كما كشفت عن ذلك أخيرا بعثة جامعة فؤاد الأول للبحث عن الآثار .



قطط محنطة



مدافن الطيور والقردة المقدسة التى ترمز للإله تحوت بتونة الجبل مركز ملوى

رع وأُزريس :

وكان أعظم الآلهة المصرية شأنًا وأوسعها عبادة إلهان هما : "رع" ، إله الشمس التى تسطع بأشعتها المنيرة فى سماء مصر الصافية ، "وأُزريس" إله الموتى ، الذى يحاسب الناس على أعمالهم يوم ينتقلون من الدار الفانية إلى الدار الباقية .



رع



أزريس

أسطورة أُزريس :

ولقد نسج المصريون حول أزريس أسطورة من أطرف الأساطير المصرية القديمة ، فقالوا إن أُزريس نزل من السماء على هيئة إنسان ، كى يُعلِّم الناس السلام ، ويُرشدهم إلى الحياة معًا فى مودة وصفاء ، فأحبُّوه حتى حقد عليه أخوه ستْ ، وأخذ يدبِّر له مكيدة يتخلص بها منه . فصنع تابوتًا يسعه تمامًا ، وزخرفه بالجواهر والأحجار الكريمة ، ودعاه إلى وليمة كبيرة حضرها كثيرون ، وأعلن أنه سيمنح هذا التابوت لمن يكون على قدِّه ، فقام كل من المدعوين يجرب حظه ، ولكن على غير جدوى ، ثم قام أزريس ودخل الصندوق ، ولم يكد يمُدُّ جسمه فيه حتى أسرع المتآمرون وأغلقوه عليه ، ثم أَلقَوا به فى النيل ، فحمله التيار إلى البحر المتوسط ، وما زالت الأمواج تتلقفه حتى ألقت به عند مدينة ببلوس (جُبيل) بفينيقيا(١) . فلما علمت زوجته إزيس بما حدث له ، حزنت عليه وبكته بكاء مرا ، وجدّت فى البحث عنه حتى وجدت التابوت ، وعادت به إلى الدلتا ، ولكن قبل أن تتمكن من فتحه فاجأه " ست " وقطع جسم أخيه قطعا عددها

---

(١) ورود اسم ببلوس فى أسطورة ازريس يدل على قدم علاقة المصريين بفينيقيا .

اثنتان وسبعون ، ثم ألقى بكل منها فى مقاطعة من مقاطعات مصر ، التى بلغ عددها إذ ذاك مثل هذا العدد تماماً .

لم يَفُت ذلك فى عَضُدِ إزيس ، وركبت قارباً لتجمع تلك الأشلاء ، وعاونها فى جمعها تحوت ، إله العلم والحكمة ، وأختها نفتيس ، زوجة ست ، وأنوبيس ، إله التحنيط ، ولما جُمِعَت الأشلاء كلها قرأت عليها بعض التعاويذ السحرية ، فدبَّت الحياة فيها من جديد ، إلا أن أُزريس رفض أن يعود إلى حكم هذا العالم ، وفَضَّل أن يبقى فى العالم الآخر (مملكة الأموات) . ونظراً لما قاساه وما لحقه من آلام ، اختارته الآلهة الأخرى ليكون قاضى الموتى ، فأصبحت مهمته : محاسبة أهل الدنيا ، ووزنَ أعمالهم ، وإصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو الجحيم .


نفتيس

وكان لازريس من إزيس ابن ، اسمه حوريس ، قام ليثأر لأبيه ، فحارب عمه ست وانتصر عليه ، فكان بذلك منقذ الإنسانية .

الأسطورة وتعليل فيضان النيل :


إزيس ترضع حوريس

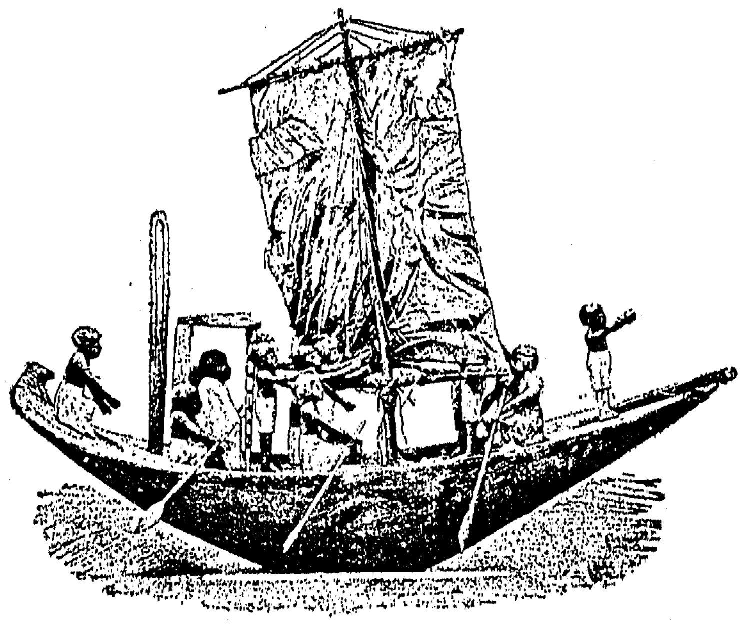
ومما هو طريف فى هذه الأسطورة ما جاء فيها من أن إزيس ، فى أثناء بكائها حزناً على ما حدث لزوجها ، سقطت من عينيها دمعة فوق نهر النيل ، ففاض على الفَوْرِ ، وظلَّ يفيض عاماً بعد عام ، وهكذا فسَّر المصريون القدماء هذه الظاهرة الجغرافية التى نشاهدها اليوم[1]

(١) جاء التفسير العلمى لفيضان النيل فى وثيقة واحدة ، دُوِّنت فى السنة السادسة من حكم الملك النوبى طهراقة ، الذى حكم من سنة ٦٩٠ إلى سنة ٦٦٤ ق . م . ، حيث ذكر أن النيل فاض ، وأن فيضانه كان نتيجة سقوط أمطار غزيرة على بلاد النوبة .

أبيدوس مقر أزريس :

وكان المصريون القدماء يحتفلون بدفن أُزريس فى فصل الخريف ، حين تبذر الحبوب فى جوف الأرض ، ثم يحتفلون بعودته إلى الحياة فى فصل الربيع حين تورق الأشجار وتخضر .

وتخيلوا مقبرته فى أبيدوس ، المعروفة بالعرابة المدفونة (مركز البلينا ، مديرية جرجا) ، وكان لزاماً على كل مصرى أن يحج إلى هـذا القبر مرة فى حياته على الأقل ، وتطلّع كلّ فرد أن يشيد قبره على مقربة منه ، ولهذا زادت المقابر فى أبيدوس زيادة كبيرة ، ولا سيما منذ ابتداء الدولة الوسطى ، حين شاعت عقيدة أزريس ، وكان كل من يعجز عن بناء مقبرته فى أبيدوس يكتفى بإقامة شاهد له هناك ينقش عليه اسمه تبركاً بهذا الإلٰه .



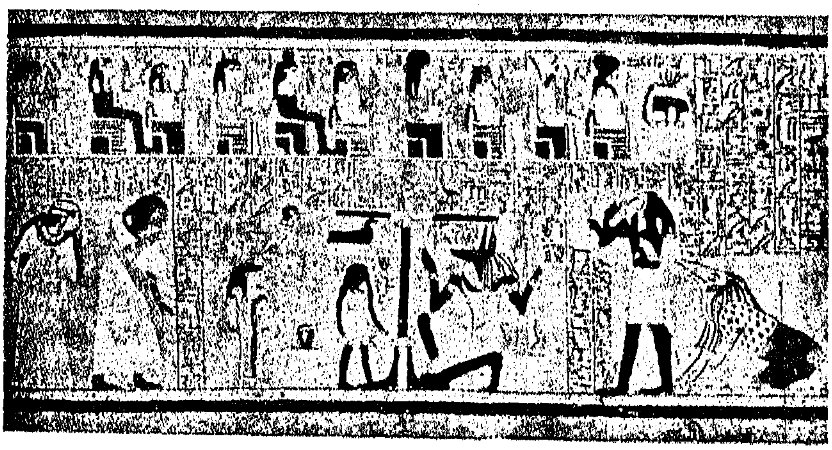
أنموذج لقارب من القوارب التى استعملت لنقل الموتى إلى أبيدوس

أثر أسطورة أُزريس :

جعلت هـذه الأسطورة المصرى القـديم يعتقد أن كل من يحسن فى دنيـاه ويلاقى المتاعب ويتحمل الآلام ، مثل أُزريس ، يعود إلى الحيـاة مرة أخرى ويتمتع بالنعيم ، وهـذا هو أصل العقيدة فى خلود الروح ، وفى أن هناك حيـاة أخرى يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسىء على إساءته .

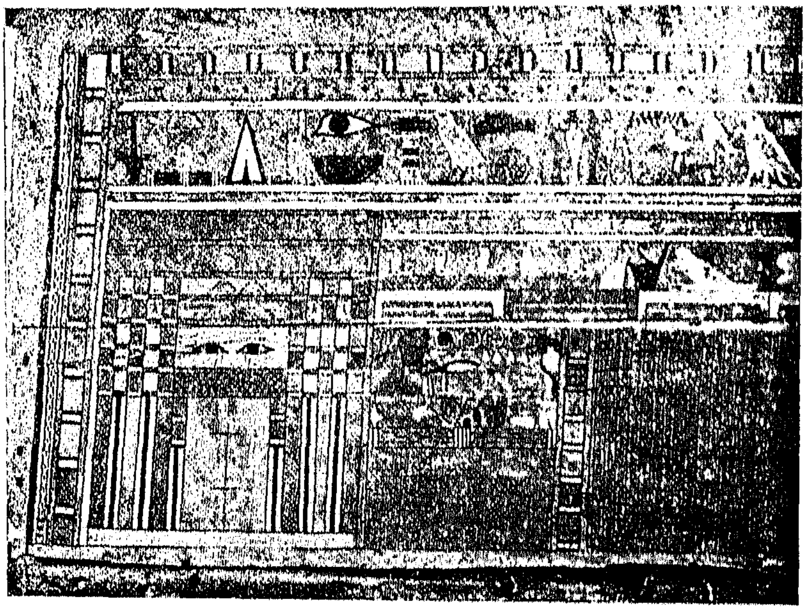
محكمة أُزريس ويوم الحساب :

اعتقد المصرى القـديم أن أزريس هو إله الموتى الذى سيحاسبه على ما أتاه من أعمال فى حياته ، وقد تصـوّر هذا الحساب فى محكمة قوامها اثنان وأربعون قاضـيا ، يرأسهم أزريس ، يسأل كل منهم الميِّت عن الآثام التى ارتكبها فى دنياه : كالسرقة والقتل والكذب ، فيتبرأ من كل منها على التوالى ، وللتأكد من صدق الميت ، يوضع قلبه فى كفة ميزان ، ويوضع فى الكفة المقابلة ريشة تمثل الصدق ، فإن رجحت كفة الريشة ، كان ذلك دليلاً على أن الرجل



يوم الحساب وفق عقيدة المصرى القديم : وترى الإله انوبيس يشرف على الميزان والإله تحوت واقفاً يدون النتيجة

من البررة الأطهار ، فيسير إلى النعيم الأبدى الذى سمّاه المصريون "حقول السلام" وإن ثقلت كفة القلب ، كان ذلك برهاناً على أن الرجل من الأشرار ، فينقض عليه وحش يكون متربصا أمام الميزان ، فيغتاله ، ويُلقى به فى هوة سحيقة .



تعاويذ لحماية الميت مرسومة على داخل تابوت

الديانة والسحر :

ومن الغريب أن المصريين ، على الرغم من إيمانهم بعدالة هذا الحساب ، اعتقدوا أن تلاوة التعاويذ وتدوينها على تابوت الميت ، أو على جدران قبره ، أو على لفائف من البردى تدفن معه ، تنفعه أمام محكمة أُزريس ، فتخفف من عذابه وتدخله الجنة . وهذا هو الغرض من كتاب الموتى ، كما رأينا .

الفصل الخامس

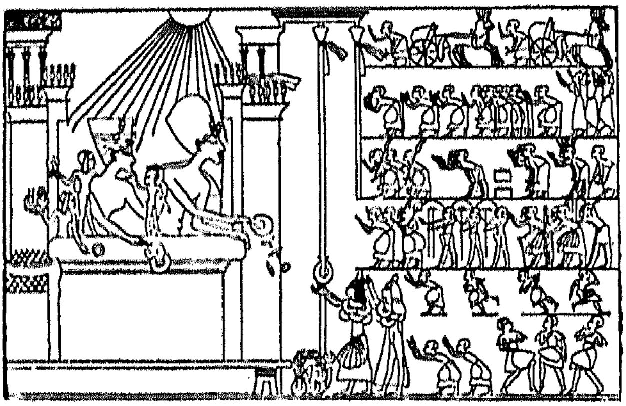
النظم الحكومية

الحكومة العليا

الملك "فرعون" :

لم يعرف المصريون القدماء نظام المجالس النيابية ، فلم يكن عندهم مجلس نواب أو مجلس شيوخ ، أو غير ذلك من النظم الديموقراطية ؛ وإنما كان فرعون هو صاحب السلطة المطلقة فى البلاد ، يحترمه المصريون ويقدسونه ، ويعتبرونه من أبناء الآلهة ، فيطيعونه طاعة عمياء .

وكان الملك يستقبل رعيته أيام الأعياد ، أو يتقبل الجزية فى فناء فسيح أو بهو متسع ، وهو جالس على العرش . ولكن أمنحتب الثالث بدأ تقليداً جديداً ، فكان يظهر أحياناً فى شرفة قصره ، كى يستعرض الهدايا التى يحملها إليه السفراء



إخناتون وزوجه يطلان من شرفة قصرهما ، يوزعان الهدايا على الكاهن آى وزوجه وهذا تقليد بدأه أمنحتب الثالث

من مختلف الأصقاع ، أو ليتقبل ولاء الأمراء ، أو ليمنح ضباطه الأكفاء ما يُنْعِم به عليهم من أنواط وقلائد وقفازات من الذهب الخاص .

ثم أصبح هذا التقليد الجديد عادة ثابتة عند خلفائه فكان إخناتون مثلاً يظهر فى شرفة قصره ، متكئاً على وسائد ، وحوله أفراد عائلته .

الوزير :

ولما كان فرعون لا يستطيع الإشراف على جميع شئون المملكة وَحْدَه ، فقد استعان بموظف كبير ، هو الوزير ، وقد ظهر هذا المنصب لأول مرة فى عصر بناة الأهرام .

وزيران فى عهد الدولة الحديثة :

وفى عهد الدولة الحديثة ، حين تكونت امبراطورية واسعة الأرجاء ، وزادت أعمال الحكومة زيادة كبيرة ، اضطر الفراعنة أن يعيِّنوا وزيرين : أحدهما للوجه القبلى ، ومقره طيبة ، ويمتد نفوذه من الشلال الأول إلى أسيوط ، والثانى للوجه البحرى ، ومقره هليوبوليس (عين شمس) ، ويبدأ إشرافه من أسيوط إلى البحر المتوسط .



محبرة كاتب وأقلامه فى عصر الإمبراطورية ويلاحظ أن المصريين لم يشقوا أقلامهم كما نفعل بأقلامنا البوص ، بل كانت تُبرى أطرافها بَرْياً مائلاً ثم تُنَسَّل الألياف حتى تصير كالفرشة

موظفون آخرون :

ويعاون الوزير فى عمله رؤساء الإدارات وعدد كبير من الوكلاء والكتبة ، وكان للكاتب حينئذ مركز سام ، بلغ من شأنه أن المدرسين حببوا هذه الوظيفة إلى تلاميذهم ، وكان على من يريد أن يصبح كاتباً أن يتقن الكتابة والقراءة والحساب .

الحكومة المحلية

فى عهد الدولتين القديمة والوسطى :

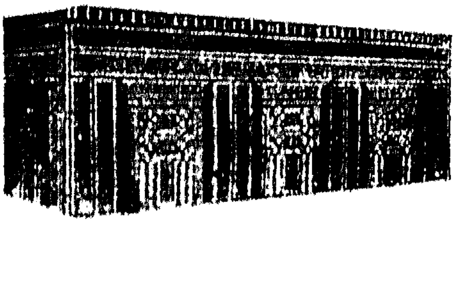
كانت حكومة البلاد فى عهد الدولة القديمة فى يد إدارات محلية، تشرف عليها الحكومة العليا ، فكان يرأس كل ولاية حاكم يتمتع بحرية كبيرة داخل حدودها ، وكان حكام الولايات يتوارثون الحكم فيها ، بعد موافقة الملك ، لأن الأرض نظريا كانت كلها ملكاً له .

ومتى كان فرعون قوياً أمكنه أن يضع حداً لمطامع حكام الأقاليم ، أما إذا كان ضعيفاً ، فان تلك السلطة الكبيرة تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها ؛ ولهذا السبب يرجع سقوط الدولة القديمة فى نهاية الأسرة السادسة ، وإغارة الأسيويين على الدلتا . ولقد ظهر خطر ذلك النظام جلياً فى عهد الدولة الوسطى ، حين أخذ أمراء الإقطاع ينحتون مقابرهم فى الصخور بولاياتهم النائية و يقطعون صلتهم بفرعون .

فى عهد الدولة الحديثة :

فلما بدأ عصر الدولة الحديثة ، تنبه الفراعنة إلى خطر النظام القديم ، فقسموا كل ولاية أقساماً يحكمها موظفون يعتمدون اعتماداً تاماً على الحكومة العليا .

وكان الوزير يبعث رسلاً يجوبون الولايات ، ويرفعون إليه تقارير مسهبة عنها مرة كل ثلاثة شهور ، فكانوا بذلك حلقة اتصال بين الإدارات المحلية و بين الحكومة العليا ، وهكذا لم يعد لحكام الأقاليم أى نفوذ سياسى .

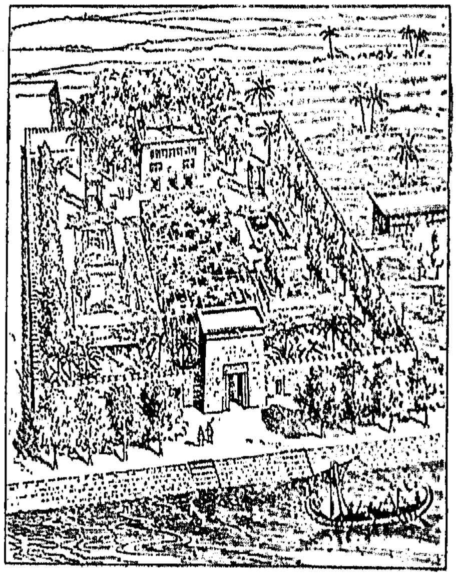


الفصل السادس

الحيـاة العامة

المسكن

بنى المصريون القدماء منازلهم من اللَّبِن والخشب ، وكان بيت الفلاح بسيطا لا يختلف عن كوخ زميله فى الوقت الحالى، أما منزل الغنى فكان كبيراً ، مفروشاً بأفخر الأثاث ، ومحاطاً بحدائق جميلة ، بها برك صناعية ملأى بالأسماك .



بيت نبيل مصرى قديم

الملابس

ملابس الرجال :

كان المصرى يرتدى فى الأحوال العادية إزاراً قصيراً من نسيج الكتّان الرقيق يصل إلى ما بعد ركبتيه بقليل ، ويلبس فى مناسبات أخرى فوق هذا الإزار قميصاً أطول يصل إلى عقبيه ، وقد يكون هذا فى بعض الأحوال لحمايته من البرد ، ولذا

كان يصنع من نسيج أكثر سمكا ، ولكن لم يكن ذلك شرطاً أساسياً ، فـ
ما كان يصنع من كتان رقيق جداً ، يُظهِر القميص الذى تحته ، كما يتضح
الرسوم الظاهرة على جدران المقابر .

ومن الملابس التى كان يلبسها الغنى فى الحفلات قميص الصيد ، وهو قميص
الكتان ذو ثنيات ، يُربط جانباه إلى الأمام ، و بينهما ميدعة مثلثة الشكل مصنوع
نسيج القميص نفسه ، و يلبس الرجل فى قدميه نعالاً مصنوعة من البردى أو من الج

النساء :

أما المرأة فكانت ترتدى ملابس بسيطة من الكتان الأبيض ، هى مهلهل ،
غير مكم ، يكسو الجسم من الثديين إلى القدمين ، و يُثَبَّتُ فوق الكتفين بشر
من النسيج نفسه ، وكانت تلبس فوقه قميصا آخر به خيوط من الحرير و
فى الولائم والحفلات . ولقد امتازت الملابس فى الدولتين القديمة والوسـ
ببساطتها ، أما فى الدولة الحديثة فقد تعددت الأزياء ، بسبب الثروة العـ
التى درّتها على مصر إمبراطوريتها العظيمة .



أزياء المصريين القدماء

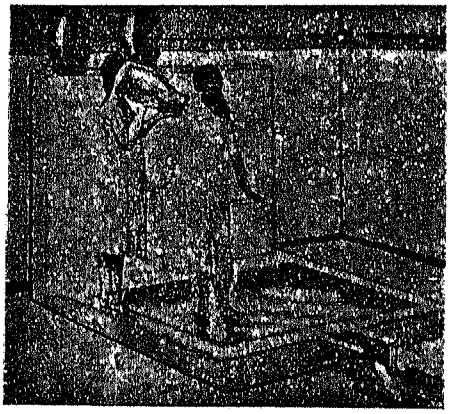
واعتاد المصرى القديم أن يقص شعره قصيراً أو يحلقه بالموسى ، وأن
على رأسه فى الحفلات الرسمية شعراً مستعاراً . أما المرأة فكانت تترك شـ
مُرسلاً إلى الأمام فى ضفيرتين على كتفيها .



شعر مستعار

ملابس الأطفال :

وكان الأطفال لا يثقلون أنفسهم بالملابس : فالأولاد يلبسون قميصا قصيرا ، والبنات يلبسن قميصًا طويلاً ، ويضع الأولاد خصلة طويلة من الشعر ، ويكتفى البنات بخصلة قصيرة ، وكثيراً ما كان يخرج الأولاد عراة الأجسام حفاة الأقدام ،



صورة تكوينية لحمام مصرى قديم والحمام ذاته قائم
بين بقايا بيوت تل العمارنة

أعمال القوم فى البيوت

النسج :

لم تكن الحياة فى البيت المصرى القديم حياة كسل وخمول ، فكان النساء يغزلن الكتّان وينسجنه على مغازل وأنوال أولية ، ولا تزال بعض هذه المنسوجات موجودة ، وهى لا تقل جمالاً وجَوْدَةً عن المنسوجات الحالية .

الطهى والخبز :

وكان العمل يقوم على قدم وساق لإعداد الطعام فى مطبخ البيت : فالنساء يطحنّ القمح بحجر على لوح حجرى كبير ، ويعجنّ الأرغفة فى أشكال مختلفة من الشعير والشوفان ، ويَخْبِزْنَها فى فرن من الفخار أو اللّبِن .



نساء يعجن وخلفهنّ زميلاتهن يضعن الخبز فى الأفران

صُنع الجعة والنبيذ :

كذلك كان يأخذ صُنّاعُ الجعة الكعك المصنوع من الشعير ، ويكسرونه فى الماء ، ثم يضغطونه ، بعد أن يتخمر ، فى مناخل رفيعة ، و يعصرونه فى أوان كبيرة ، ويعبىء غيرهم العصير الناتج فى قدور خاصة .



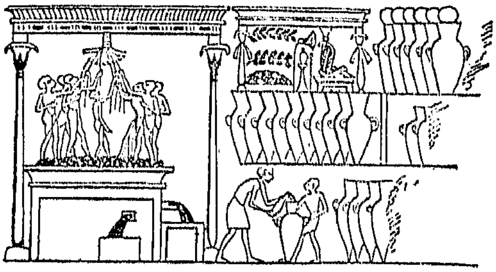
امرأة تعجن

أما النبيذ فالراجح أنه لم يكن يصُنع فى المطابخ ، بل قرب الكروم نفسها ، فكان العنب يُحمل فى سلال ، و يوضع فى مكبس ، هو لوح كبير من الحجر له سطح مُجَوَّف ، ثم يدوسه رجال يمسكون حبالاً مربوطة إلى عمود أفقى مثبت فوق رؤوسهم ، و بعد أن يصب النبيذ فى قدر ، توضع بقايا العنب فى قطعة من القماش أو فى زكيبة يلف طرفاها لفاً عكسيا بقطعتين من الخشب يقبض على



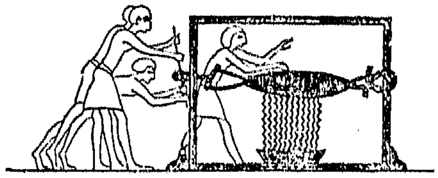
صناعة الجعة

كل واحدة منهما رجل ، وبهذه الطريقة يعصر العنب عصراً جيداً ، ثم يصب



مكبس لعصر العنب

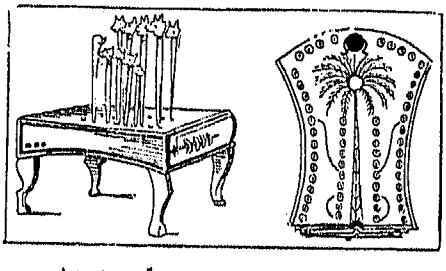
العصير فى قِدْرٍ يُختم بالطين ، كما يفعل الفلاح اليوم بقدر عسله وجبنه ، ويبصم الغطاء بخاتم عليه اسم صاحب الكرم أو الموظف المسئول عنه .



عصر العنب فى الزكيبة

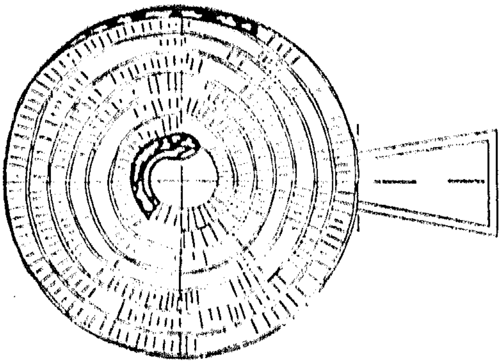
وسائل التسلية :

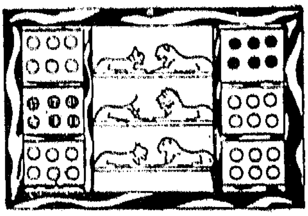
وكان المصريون إذ أرادوا تسلية هادئة ، يلجأون إلى ألعاب منزلية شتى يلعبونها بقطع ولوح خشبي أشبه بالشطرنج ، ومن أبسط الألواح التى عثر عليها وأقدمها لوح عليه رسم فى شكل ثعبان ملتف حول نفسه ، وهناك ألواح أخرى



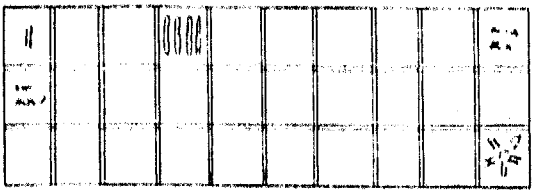
لعبة من ألعاب الدولة الوسطى تشبه الشطرنج

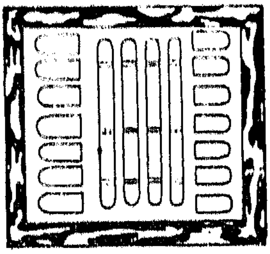
مقسمة إلى مربعات عددها أربعة وعشرون أو ثلاثون، تتحرك عليها القطع طبقا لقواعد نجهلها، وهى شبيهة باللعبة المعروفة اليوم باسم السيجة، التى لا يزال يلعبها كثيرون من أبناء الصعيد.





لوح عليه ثعبان ملتف وإلى يمينه قطع اللعب الخاصة به





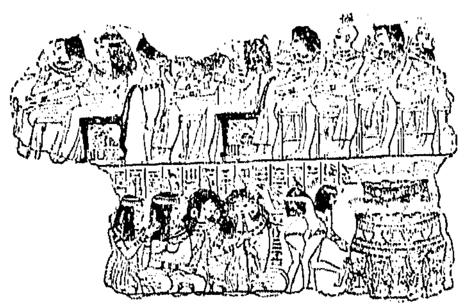
لعبة تشبه لعبة السيجة

كذلك ولع المصرى بالطبيعة والمعيشة الخلوية، فكان يخرج هو وزوجته وأطفاله، أيام المواسم والأعياد، للنزهة فى النيل، ولصيد السمك والطيور بالشص والشباك والعصى، ولقطف أزهار السوسن واللوتس.



غنى مصرى يصطاد الطيور مع زوجته وابنته

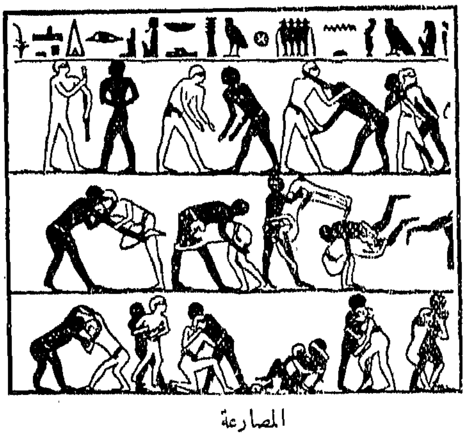
واعتاد المصرى القديم إقامة الولائم ، فكان الجار يدعو جيرانه ليقضوا معًا يومًا سعيداً ، ونرى على جدران كثير من المقابر رسومًا تمثل الضيوف من رجال ونساء ، جالسين فى هدوء ، يشاهدون ما أعِدّ لهم من وسائل التسلية والسمر ، يشمون أزهار اللوتس ويحتسون النبيذ ، وفى أثناء ذلك تعزف فرقة موسيقية على العود والقيثارة أنغامها الشجيّة ، ويقوم المغنون بدورهم ويصفقون بأيديهم تصفيقًا منتظمًا ، ويعرض الراقصون والراقصات حركات



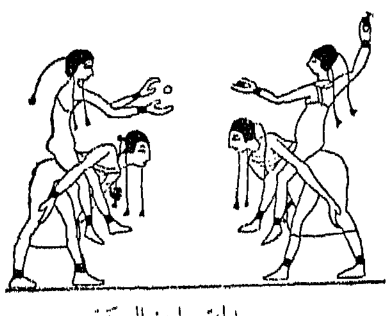
وليمة مصرية

بسيطة بالأذرع والأرجل والجسم ، ويلاحظ أن الموسيقا والرقص لم يكونا من وسائل للتسلية فحسب ، بل استعملا بكثرة : فى الحفلات الدينية والجنازية .

ويظهر من الرسوم التى كشفت للآن أن المصارعة كانت أكثر الألعاب الرياضية انتشاراً . ولم تقتصر الرياضة على الرجال ، بل أخذ النساء بقسطهن فيها .



المصارعة



سيدات يلعبن الكرة

الباب السابع
مصر والإسكندر

الفصل الأول
الحضارة اليونانيـــة

تمهيد :

كانت لليونان حضـارة عظيمة ، ازدهرت فى القرون الأولى قبل الميـلاد ، وأخرجت النابغين فى الشعر والأدب ، والفلسفة والحكمة ، والفن والتـاريخ ، والخطابة والتشريع ، أمثال : هوميروس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاليس ، وهيرودوت ، و بركليس ، وسولون ، وغيرهم .

مميزات الحضارة اليونانية

ارتباطها بالبحر المتوسط :

وتمتاز هذه الحضارة بأنها لم تكن محصورة فى إقليم معين ، فلم تقتصر على بلاد اليونان وحدها ، بل شملت أحوال أولئـك اليونان الذين انتشروا على سواحل البحر المتوسط ، ولهـذا كانت متصلة اتصالاً وثيقًا بتاريخ ذلك البحر ، وقد اقتضت طبيعة شبه جزيرة اليونان هذا الارتباط ، إذ أنها أرض ضيقة الرقعة ، كثيرة الجبال ، والوديان الصغيرة ، والسهول الضيقة . تشتهر جبالها بأنها قاحلة جرداء شديدة الانحدار ، ولهذا كانت عائقاً كبيراً للمواصلات بين السهول والوديان ، وكان لذلك أثران هامان : أولهما ، اتجاه اليونانيين نحو البحر المتوسط وانتشارهم على سواحله وفى جزائره ، وثانيهما ، انعدام الوحدة السياسية .

قيام المدن :

هذه الظروف الجغرافية التى اختصت الطبيعة بها بلاد اليونان ، جعلت من الصعب قيام دولة واحدة فيها ، وإنما أعدتها لتكون مقرا لجماعات مستقل بعضها عن بعض ، إذ وَلّدَتْ تلك الظروف حب الحرية فى اليونانيين، ولعلّهم رأوا أن قيام دولة واحدة لايتفق مع الحرية ، وأيّدهم فى ظنهم هذا مارأوه من الاستبداد فى الدول الشرقية .

هكذا نشأت ببلاد اليونان مدن مستقل بعضها عن بعض فى إدارة شؤونها الداخلية والخارجية : كأثينا ، واسبرطة ، وطيبة ،وغيرها ، تتمتع كل واحدة منها بدستور خاص ، ومجالس خاصة ، وحكام من أبنائها ، وكانت روح المنافسة وأسباب التباعد بين هذه المدن أقوى من عوامل التقارب والاتحاد، فالأثينى مثلا يعمل دائما من أجل مصلحة مدينته ، مضحّيا فى سبيل ذلك أحيانا بمصالح المدن الاخرى .

الوحدة اليونانية :

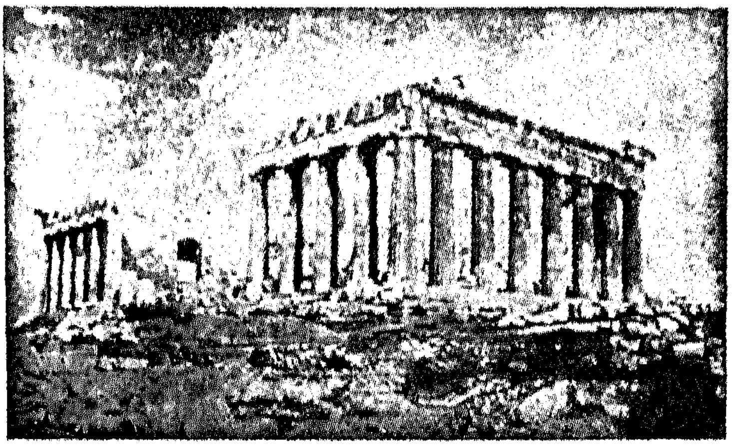
وعلى الرغم من معيشة اليونان فى مدن مستقلة على هذا النحو ، فإنهم كانوا يشعرون أنهم ينتمون الى أمة واحدة، ويُكَوِّنون جسما واحدا يشعر بشعور واحد، وقد مرت بهم أزمات أدّت إلى اشتراك مدنهم المختلفة فى جهود واحدة .



معبد البارثينون كما كان

ويدل على تلك الوحدة وجود لغة واحدة يتكلمها جميع اليونان ، وإن تعدّدت لهجاتها ، وديانة واحدة يدين بها الجميع ، فكانت لهم آلهة أطلقوا عليها أسماء واحدة فزوس إله الرعد ، و إفروديتي إلهة الجمال ، وأپولو إله الضوء والزراعة ، وهكذا ، واعتقدوا أن آلهتهم تسكن فوق جبل فى شبه جزيرة اليونان ، اسمه جبل أُلِمْبُوسْ.

وكانت لهذه الآلهة معابد يحج إليها اليونان من جميع الجهات للتعبد فيها والاسترشاد بكهنتها فيما يُقْدِمُون عليه من الأمور ، وكان سَدَنَتُها يدَّعون القدرة على علم الغيب . ومن أشهر تلك المعابد معبد دِلْفِى للأله أپولو ، ومعبد الپَارْثِينُونْ القائم على تل الأكْرُپولِيس ، الذى يشرف على أثينا .



معبد الپارثينون فى حالته الراهنة

الألعاب الأولمبية والمباريات :

وكانت تقام فى هذه المعابد مسابقات فى الألعاب الرياضية ، مثل : المصارعة ورمى القرص ، والجرى ، والقفز ، وسباق العجلات ، واستعمال الرماح والسهام ، كما كانت تقام مباريات عامة فى الموسيقا ، والشعر ، والرقص ، وغير ذلك ، ومنذ عام ٧٧٦ ق.م . أصبحت تلك الألعاب دورية ، تقام كل أربع سنوات ، فى سهل

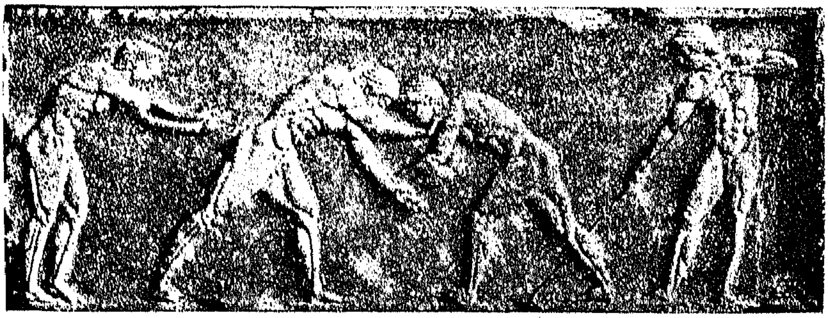
أولمبيا باليونان، ومن ثمّ سُمّيتْ بالألعاب الأولمبية[1]، وقد بلغ من عظم أمرها عند اليونان أنهم كانوا يؤرخون الحوادث بها .



قاذف القرص

وكان لكل يونانى الحق فى الاشتراك فى هذه الألعاب والمباريات ، وكانت كل مدينة ترسل أحسن لاعبيها الرياضيين وفنانيها ، وتتقاتل على إحراز قصب السبق فى المضمار المتنافس فيه ، وتقيم للفائزين من أبنائها التماثيل بجوار تماثيل الآلهة .

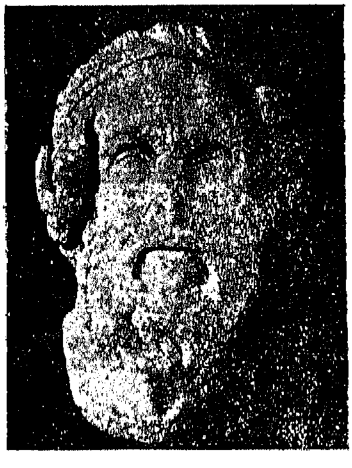
(١) هذا هو أصل الألعاب الأولمبية ، التى تقام الآن بين الدول لتوثيق روابط الصداقة والتفاهم وتشجيع الرياضة بينها .



من آداب اليونان ، ترى إلى اليمين رجلا يلعب الجلة ، وفى الوسط اثنين يتصارعان
و إلى اليسار آخر يحاول القفز

الأشعار الهوميرية : الألياذة والأوديسية :

ومما قوّى روح الوحدة بين اليونان ، رغم الاختلافات المحلية ، الملحمتان المنسوبتان لهوميروس وهما : الإلياذة والأوديسية ، وتتناولان سرد حوادث ووقائع حربية قام بها اليونان فى القرون السحيقة ضد سكان ترواده ، فى الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، ووصف طبيعة البلاد التى مرُّوا بها ، بعد عودتهم من حصار تلك المدينة . وفى هذه الأشعار الهوميرية جاء الكثير من أخبار الأولين وأحوالهم ، وأساليب حروبهم ، ووصف سفنهم ، و بلادهم ، ونظم الحكومة عندهم ، وهى لذلك تراث اليونان جميعًا يحفظها خاصتهم وعامتهم .



هوميروس

لذلك كله شعر اليونان أنهم شعب واحد ، على الرغم من استقلال مدنهم بعضها عن بعض ، واتخذوا لأنفسهم اسمًا واحدًا . وهو " الهيلينيين " ، وكانوا فى نظر أنفسهم هم المتحضرون ، ومن عداهم من الخلق هم البرابرة .

الفصل الثانى

الإسكندر الأكبر

(٣٣٦ — ٣٢٣ ق . م)

ظهور مقدونيا :

ظهرت ، فى خلال القرن الرابع قبل الميلاد ، على هامش العالم اليونانى قوة جديدة هى مملكة مقدونيا ، ولم يكن أحد يتوقع فى أول الأمر أن تلك المملكة ستتمكن ، فى مدة قصيرة ، من بسط سلطانها على المدن اليونانية و إقامة إمبراطورية من أعظم ما رأى التاريخ ، ونشر لواء الحضارة اليونانية فى أقطار الشرق .

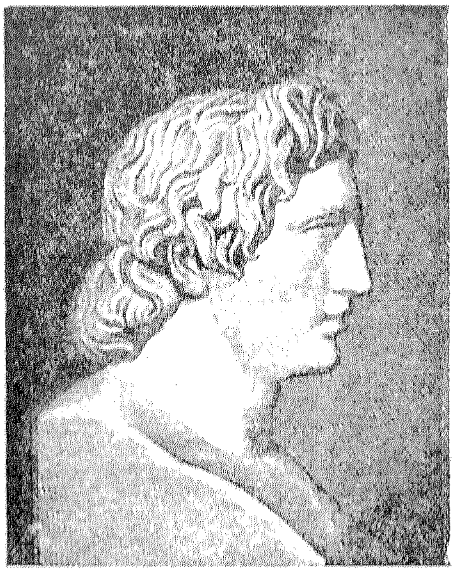
فيليب المقدونى :

تولى فيليب عرش مقدونيا ، وكان قد وقف فى أيام شبابه على أحوال المدن اليونانية ، ودرس فنون الحرب على أقدر قواد عصره ، ووجّه عنايته ، بعد أن أصبح ملكا ، إلى تنظيم حكومة مملكته ، و إلى تدريب جيش قوى . ولما تمّ له ذلك أخذ فى التدخل فى المنافسات القائمة بين المدن اليونانية ، وكان غرضه من ذلك أن يُوَحِّد هذه المدن فى حِلْف تتولى مقدونيا زعامته ؛ وأن يوجِّه قوة اليونان متحدين نحو الفتح الخارجى ، ولكن فيليب قُتِل قبل أن يتم تحقيق هذا المشروع الخطير .

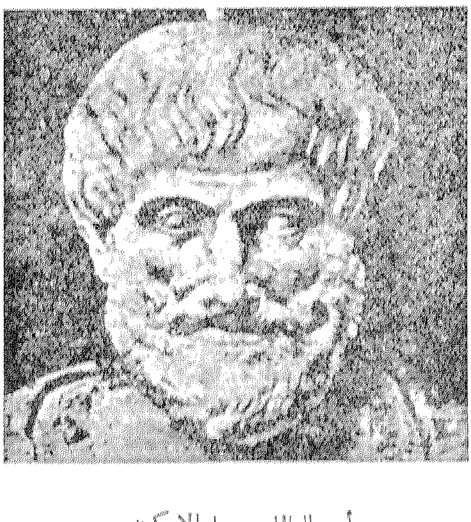
نشأة الإسكندر :

وخلفه على عرش مقدونيا ابنه الإسكندر ، وله من العمر عشرون سنة ، وكان فيليب قد عهد بتربية الأسكندر إلى الفيلسوف اليونانى المعروف ، أرسطاطاليس ،

وقد استطاع المُرَبي أن ينفذ الى قلب تلميذه ويُشْرِبَهُ حب الثقافة اليونانية ، فشبَّ الإسكندر يونانيًّا حقًّا فى أفكاره وآماله .



الإسكندر الأكبر



أرسطاطاليس معلم الإسكندر

الإسكندر يخضع المدن اليونانية :

واستصغرت المدن اليونانية شأن الملك الشاب، وحاولت التملص من السيطرة المقدونية ، ولكن الإسكندر تغلب عليها بسرعة مدهشة ، وأنزل ببعضها أقسى ألوان العقاب ، جزاء استخفافها بأمره . أما الأثينيون فقد أخذهم باللّين، تقديراً منه لما كان لأسلافهم من يد على الحضارة اليونانية .

إمبراطورية الإسكندر

قهر الدولة الفارسية :

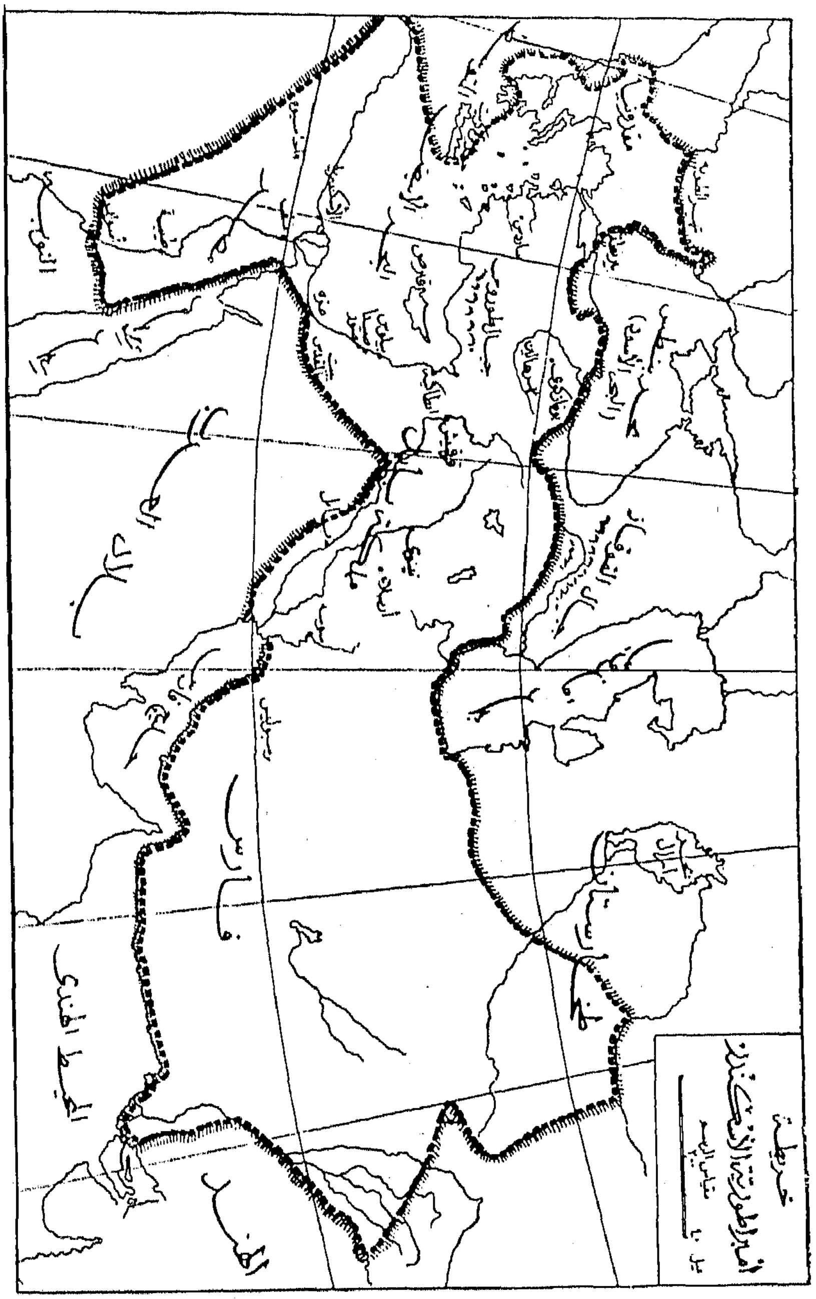
تأهب الإسكندر للفتح الخارجى ، بعد أن انتهى من أمر العالم اليونانى، وكان لابد لمواصلة الفتح، وإنشاء الامبراطورية اليونانية التى يحلم بإقامتها ، من قهر الدولة الفارسية ، الباسطة سلطانها على أقطار الشرق القديم ، والتى حاولت وقتا ما إخضاع المدن اليونانية ومحو استقلالها وحريتها .



الإسكندر ممتطياً جواده

الإسكندر ودارا الثالث :

ولم تكن الدولة الفارسية عدُوًّا يستهان بأمره : فأرضها واسعة ، وجنودها عديدون بواسل، إلا أن الملك الجالس على عرشها إذ ذاك — وهو دارا الثالث — كان قليل الحيلة فى الحرب ، يسرع إلى قلبه الجزع ، فى الأوقات العصيبة .



تقدم الإسكندر، فى سنة ٣٣٤ ق.م . وعبر مضيق الدردنيل إلى الأناضول ، وكانت أقاليمه إذ ذاك تحت السيادة الفارسية ، ولكن دارا ترك أمر الدفاع عن تلك الأقاليم لحكامها ، ولم يتحرك إلا بعد أن فرغ الإسكندر من إخضاع الأناضول .

موقعة إسُوسْ :

ولما تلاقى الفرس والمقدونيون عند إسوس ، فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى ، غادر دارا الميدان، عندما اشتد القتال، وظن جنوده أنه قتل، فدبَّ اليأس إلى قلوبهم ، ووقعت بهم الهزيمة .



موقعة إسُوسْ — رسم على " المزايكو " وجد بالاسكندرية ثم نقل الى مدينة بمبياى بايطاليا

خطط الإسكندر بعد إسُوسْ :

كان أمام الاسكندر ، بعد انتصاره فى إسُوسْ، إحدى خطتين : إما تعقب فلول الفرس إلى قلب دولتهم فى العراق وفارس ، أو انتزاع سوريا ومصر من الحكم الفارسى ، قبل أن ينقضَّ على فارس نفسها . وقد اختار الخطة الثانية

لمزاياها ، وذلك لأن فقدان الفرس سوريا ومصر يضعفهم إضعافاً بيّناً ، و يحرمهم قواعدهم البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، كذلك يغنم هو ما يفقده أعداؤه فترجح كفته ، عند ما يغزوهم فى عقر دارهم .

الإسكندر فى مصر

دخوله البلاد :

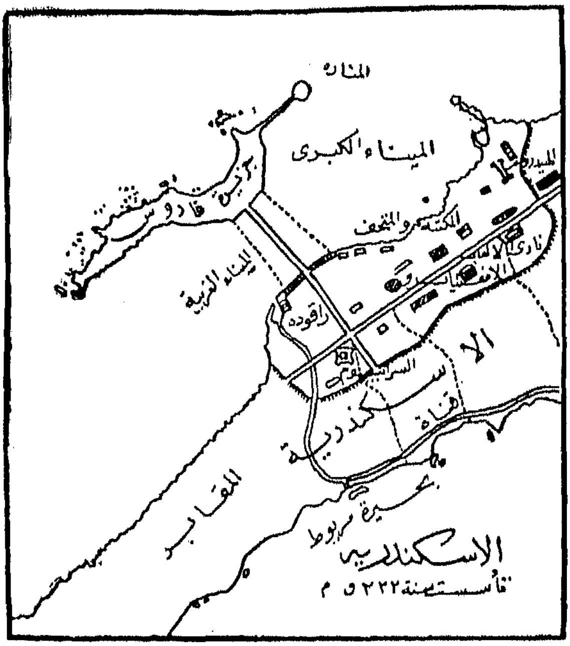
مضى الأسكندر فى تنفيذ هـذه الخطة ، فاستولى على مدن الساحل السورى ودخل مصر ، عام ٣٣٢ ق . م .

ولم يكن هـذا أول عهد مصر باليونان ، فقد عرفتهم — كما رأينا — جنوداً وتجّاراً ، منذ زمن طويل ، ولم يكن دخول الأسكندر أرضها لرفع النير الفارسى عنها أوّل عمل من نوعه ، فقد تمكّن اليونان والمصريون ، قبل قدوم الأسكندر بثمانين سنة ، من إجلاء الفرس عن وادى النيل ، ولم يسترد الفرس ذلك الوادى إلا قبيل ظهور الاسكندر .

تأسيس مدينة الإسكندرية :

رحّب المصريون بمقدم الإسكندر ، واستقبلوه استقبال المنقذ أينما سار ، فدخل منف ، ومنها ركب مركبًا فى النيل إلى مصبه الغربى ، حيث قيل إنه أُعجب بحسن موقع قرية صغيرة يسكنها بعض صيادى السمك ، تسمى راقوده "راكوتيس" تجـاه جزيرة فاروس (شبه جزيرة رأس التين والأنفوشى) ، فى بقعـة بين البحر المتوسط ومريوط ، فأمر بأن تؤسس مدينة عظيمة سُمّيت الأسكندرية ، فاختطها المهندس دينوكراتيس Deinocrates على شـكل مستطيل ، وجعـل شوارعها مستقيمة متقاطعة ، وأكبرها الشارع الكانوبى (محله الآن شارع فؤاد الأول) الممتدّ من الشرق للغرب ، وعرضه مائة قدم ، ووصّـل المهندس المدينة بجزيرة

فاروس المواجهة لها بجسر ، فتكون بذلك مرسيان : شرقى وغربى ، وكان للمدينة مرسى ثالث فى بحيرة مريوط[1] .



زيارة الإسكندر واحة سيوه :

وعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها الإسكندر فى مصر ، فإنه وجد ، فى أثناء إقامته فى مدينته الجديدة ، وقتا كافيا للقيام برحلة شاقة إلى واحة سيوة ، وقدّم القرابين لمعبد الإله آمون القائم هناك ، ولهذا أعلن الكهنة أنه ابن المعبود ، ووضعوه فى مصاف الفراعنة .

كذلك طبع الإسكندر مصر بطابع خاص ، هو خليط من العناصر المصرية واليونانية ، وهو الطابع الذى لم تُزله عنها إلا الفتح العربى ، فى القرن السابع بعد الميلاد .

(١) عند موت الإسكندر ، سنة ٣٢٣ ق . م ، لم يكن بناء المدينة قد تقدّم كثيرا ، فقام ملوك البطالمة من بعده بتنفيذ المشروع بكل همة ونشاط ، كما سنرى فى الباب التالى .

التغلب على فارس وغزو الهند :

سار الإسكندر بعد ذلك للنضال مع فارس ، وهزم دارا الهزيمة الحاسمة عند أربل (أربلاء) فى العراق ، ودخل العواصم الفارسية واستولى على نفاسها ، ولم يكتف بذلك ، بل أمعن فى الفتح إلى أن بلغ سهول الهند الشمالية ، ولم يحمله على العودة إلا ما نال جيشه من الإعياء .

أغراض الإسكندر :

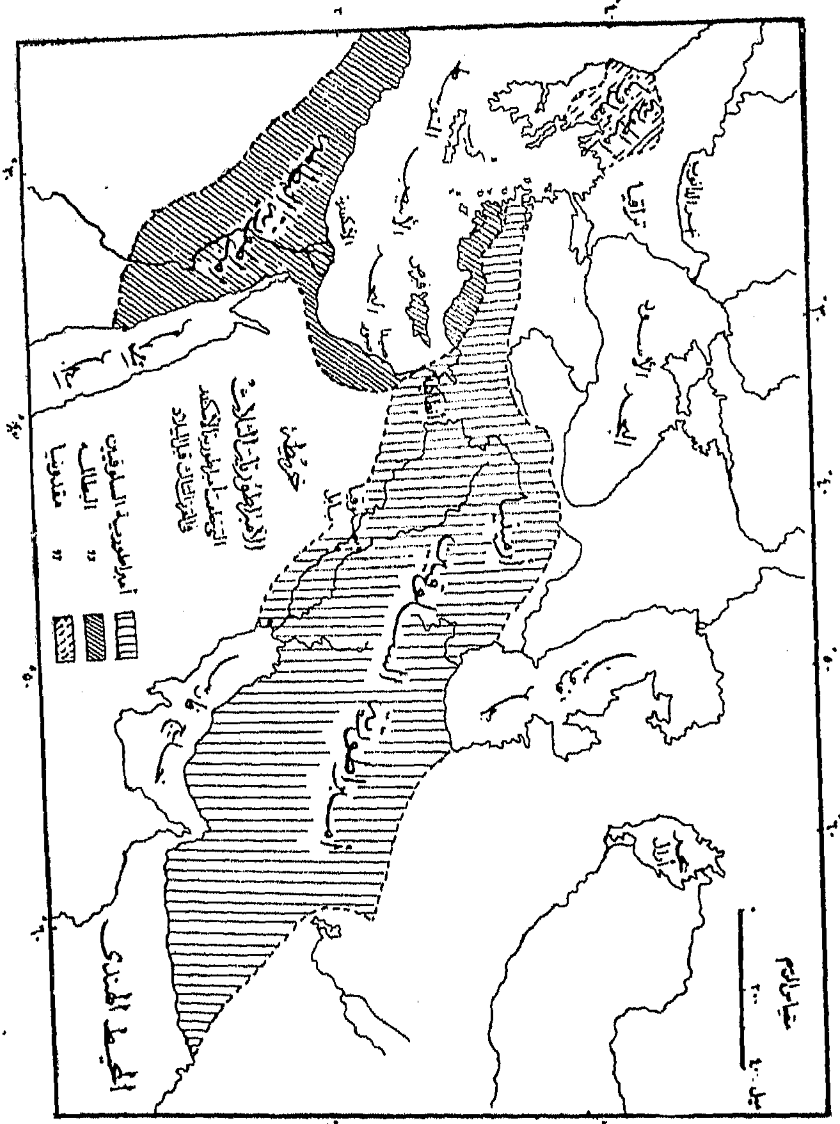
اتخذ الإسكندر بابل عاصمة لإمبراطوريته، وكان يرمى إلى تكوين إمبراطورية يونانية أسيوية ، وقد اتخذ لتحقيق المزج بين العناصر المختلفة ، تشجيع التزاوج بينها ، كما أنه رأى أن خير وسيلة لنشر الحضارة اليونانية فى الأقطار الأسيوية ، هى إنشاء المدن على النمط اليونانى .

وفاته :

ولكن الزمن لم يمتدّ بالإسكندر لتحقيق خططه وأحلامه ، إذ وافته المنية فى بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وهو فى الثالثة والثلاثين .

أثر الإسكندر الأكبر :

على الرغم من أن الإسكندر قضى أيام حكمه كلها فى الحروب ، وأن حياته انتهت قبل أن يكشف عن جميع نواياه ، فقد أثّر تأثيرًا عميقًا فى تاريخ العالم ، وأكسبت فتوحه اليونان سلطانًا لم يُتَح لهم قبل أيامه ، إذ دخلت تحت حكمهم أمم شرقية لم تعرفهم قبل ذلك إلا جنوداً تستخدمهم أو تجارًا تعاملهم . وصحب انتشار سلطان اليونان تأسيس مراكز للحضارة اليونانية فى مواطن الشرقيين ، وفى هذه المراكز أثرت الحضارة اليونانية فى الحضارات الشرقية ، كما أنها تأثرت بها .


خريطة

الباب الثامن

مصر فى عهد البطالمة

(٣٢٣ — ٣٠ ق٠م)

الفصل الأول

أهم الملوك البطالمة

تقسيم دولة الإسكندر بعد موته :

خلّف الإسكندر ولدًا صغيـرًا وأخًا غير شقيق ، فاقتسم قواده ملكه ، واستقر الرأى بعد الاضطراب على تقسيم هذا الملك بين انتيجونوس ، وقد اختص بمقدونيا ، و بطلميوس ، وقد آثر مصر على غيرها ؛ وسلوقس ، وقد وضع يده على ما كان للفرس فى الأناضول وسوريا والعراق وفارس الأصلية .

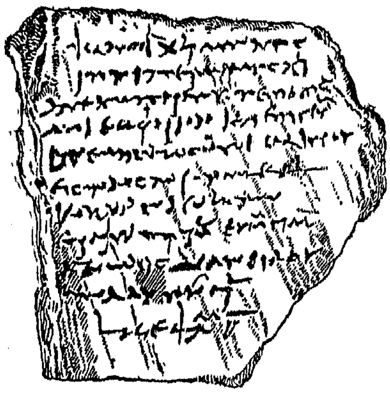
وقامت بذلك ثلاث دول يونانية عظيمة ، يبدأ تاريخها بموت الإسكندر ، و ينتهى عند ما استولى الرومان عليها كلها .

تأسيس دولة البطالمة :

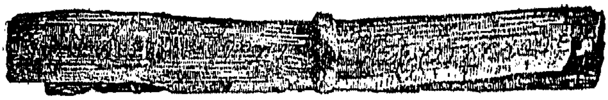
وقد تنافست الدول الثلاث فيما بينها منافسة عنيفة ، واشتبكت فى حروب بريّة و بحرية عديدة ، كما أنها تباينت فى خططها السياسية وطرق الحكم تبعًا لتباين ظروفها ، ولن نتولى الكلام عن ذلك ، بل نقتصر على الدولة التى استقلت بمصر ، وهى دولة البطالمة ، وقد أنشأها بطلميوس بن لاجوس ، الذى حكم مصر ما يقرب من عشرين عاما باسم وريث الإسكندر ، ثم رأى فى سنة ٣٠٥ ق . م . أنه خليق بأن يلقب نفسه "ملك مصر" فكان له ما أراد .

وضوح تاريخ البطالمة :

ولم يكن البطالمة أول ملوك من أصل أجنبي جلسوا على عرش مصر ، فقد سبقهم إلى ذلك — كما رأينا — الهكسوس والليبيون وغيرهم ، ولكن كانت دولة البطالمة أول دولة أجنبية استطعنا أن نعرف تفصيل تاريخها ، وأن نقف على خططها الداخليه والخارجية فى شىء كثير من الوضوح ، إذ خلّف عصرها وثائق عديدة ، نقشت على الجدران أو سُطّرت على ألواح الخشب أو أوراق البردى أو قطع الفخار (الشقافة Ostraca) كما وصل إلينا الكثير من مؤلفات شعرائه ومؤرخيه وعلمائه .



قطعة من الفخار عليها كتابة يونانية



خطاب من البردى مطوى ومعد للإرسال

قواعد حكم البطالمة :

وقد دلّت هذه المادة التاريخية الوافرة على أن هذه الدولة وضعت قواعد للحكم الداخلى ، وخططًا للسياسة الخارجية ، سارت على منوالها الدول الأجنبية ، التى خلفتها فى مصر ، وهى دول القياصرة الرومان ، والسلاطين العرب ، والترك .

سياستهم الداخلية :

ففى السياسة الداخلية ، كان أساس الحكم تقسيم الرعية إلى وطنيين وأجانب ، فعرفت مصر منذ أيامهم نوعاً من الأجانب يعيش فيها جيلاً بعد جيل ؛ كما أن البطالمة وجّهوا جهودهم نحو تنظيم استغلال موارد مصر الزراعية والصناعية والتجارية تنظيما دقيقاً جرى مجرى الأمثال ، وكان القصد الأوّل والأخير من هذ الاستغلال ملء خزينة الملك ، ونحو هذا القصد اتجهت الدول اللاحقة .

سياستهم الخارجية :

وفى سياستهم الخارجية سعى البطالمة لتحقيق أغراض هى نفس ما وضعه حكام مصر اللاحقين نصب أعينهم ، فقد أدركوا أن دولتهم لن تكون غنية آمنة إلا بضم ما عدّوه ''الملحقات الطبيعية'' لمصر ، و بخاصة طرابلس الغرب من جهة وفلسطين من الجهة الأخرى ، فعملوا على امتلاك تلك الأقاليم ليزيدوا فى مناعة ملكهم وليستوردوا منها ما لا يجدونه فى مصر من المعادن والأخشاب ؛ كما أنهم عملوا على نيل السيطرة على طرق التجارة البرية والبحرية المتقابلة فى مصر ، وتأمين المواصلات التجارية فى البحر المتوسط ، باتخاذ قواعد لنفوذهم فى جزائر كريت وقبرص والأرخبيل ، وعلى سواحل الأناضول وسوريا .

بطلميوس الأول ''سوتر''

أعماله الداخلية :

شُغلَ بطلميوس الأول (سوتر) [1] طول حكمه بوضع هذه القواعد وتنفيذها وكان يسير فى عمله بخطى متزنة ، فنظم الحكومة ، وأتم بناء الإسكندرية على ما رسمه مؤسسها ، واتخذها مقرًّا للحكم ، وأسس بها دار الفنون والمكتبة العظيمة .



بطلميوس الأول

دار الفنون :

وكانت ''دار الفنون'' بناء فخماً يقوم فى ساحة كبيرة تكتنفها الأشجار الباسقة و يحيط بها ردهات يتوسطها بهو فسيح مقسم أجزاءً ، كان الأساتذة يحاضرون فيه طلابهم فى الطب، والفلك والرياضة وغير ذلك ، و يعيشون معهم فى الدار على نفقة الملك .

---

(١) ومعناها المخلص ، وهو لقب كان أهل جزيرة رودس أول من أطلقه عليه اعترافا بفضله عليهم .

مكتبة الإسكندرية :

وعلى مقربة من دار الفنون قامت "المكتبة" ، حيث كان النساخون يعكفون على نقل المخطوطات القديمة ، والطلاب ينتفعون بمؤلفات الأجيال السالفة ، وهكذا كانت دار الفنون والمكتبة بمثابة " جامعة " يؤمها قادة الفكر وطلاب العلم من أنحاء العالم اليونانى .

حروب بطلميوس الأول :

على أن هـذه الإصلاحات الداخلية لم تمنع بطلميوس من القيام بحروب شتى استرد بها جزيرة قبرص ، و بعض البـلاد فى فلسطين ، وأصبح لأسطوله السيادة فى البحر المتوسط ، ممـا أدى إلى نمو التجارة المصرية فيه .

تنازله عن المُـلْك وموته :

واستمر بطلميوس يحكم مصر إلى أن بلغ من العمر اثنين وثمانين عاما ، فتنازل عن الحكم لابنه بطلميوس الثانى ، ومات بعد ذلك بعامين ، تاركاً له ملكاً وطيد الأركان .

بطلميوس الثانى " فيلادلفوس "

صفاته :

جنى بطلميوس الثانى "فيلادلفوس" (١) ثمار غرس أبيه ، فكان أقوى ملوك عصره وأغناهم ، وكان رجل سياسة أكثر منه رجل حرب وَلِعَ بإقامة المهرجانات ، فكان يجوب شوارع الإسكندرية على عرش من الذهب ، يتقدمه جمع من الكهنة اليونان والمصريين ، و يتبعه عدد من الحيوانات والطيور الغريبـة ، وكان الأهالى يخرجون لمشاهدة موكبه الفخم كأنهم فى يوم عيد .



بطلميوس الثانى

---

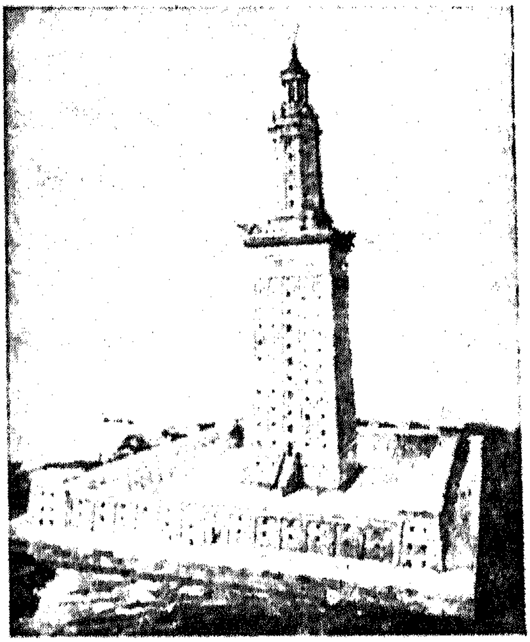
(١) هـذا اللقب اتخذته فى الأصل أخته وزوجته أرسينوى ، ومعناه المحبة لأخيها ، ثم أطلق على الملك نفسه لشدة حبه لها .

أهم أعماله — تنشيط التجارة :

وجه بطلميوس فيلادلفوس عنايته إلى ترقية التجارة ، فكان من أعماله تجديد القناة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر ، و إعادة طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ، فنشطت تجارة مصر فى البحار الشرقية ، مع بلاد الحبشة والعرب والهند ، كما نشطت فى البحر المتوسط .

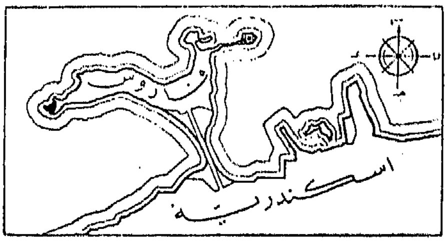
منارة الإسكندرية :

ولهداية السفن أقام بطلميوس فى الطرف الشمالى الشرقى من جزيرة فاروس منارة ارتفاعها مائة متر ، كانت عبارة عن برج مكوّن من ثلاثة أدوار : أوّلها مربع الشكل ارتفاعه ستون متراً و به نوافذ كثيرة ، وثانيها مثمن الأضلاع ، ارتفاعه



منارة الاسكندرية

ثلاثون متراً ، أما ثالثها فمستدير ، توقد فيه نيران تنعكس على مزايا من المعدن ، فتراه السفن ليلاً على مسافة بعيدة من الشاطئ . ولقد اشتهرت تلك المنارة فى الشرق ، ووصفها العرب ، واعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع ، وظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، حين دمّرها زلزال شديد ، ومكانها الآن قلعة قايتباى .



جزيرة فاروس

عناية فيلادلفوس بالزراعة :

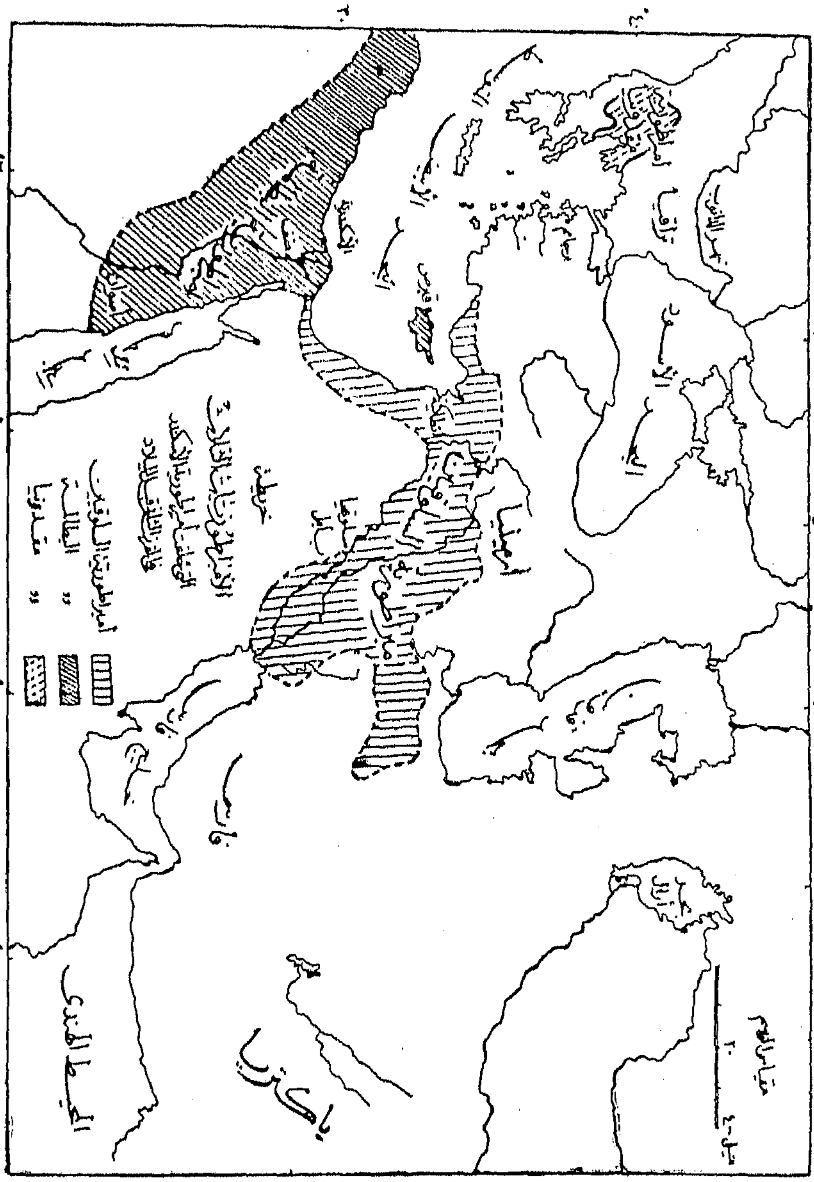
عُنى بطلميوس فيلادلفوس بالزراعة وما يتعلق بها : فمسح الأرض ، وأكثر من غرس الكروم ، وشجر الزيتون ، والنباتات الزيتية ، وأشجار الفاكهة ، كما أنه أَوْلَى مسائل الرى والصرف أكبر عناية ، لا سيما فى إقليم الفيوم ، فجفّف جزءاً كبيراً من بحيرة موريس . ولما تطلب ذلك أموالاً كثيرة فرض على الفلاحين ضرائب باهظة . كذلك اهتم بطلميوس بتحسين أنواع الحيوان والطير ، وفى أيامه استُخدم الحصان كوسيلة للنقل ، وجُلِب الجمل إلى مصر .

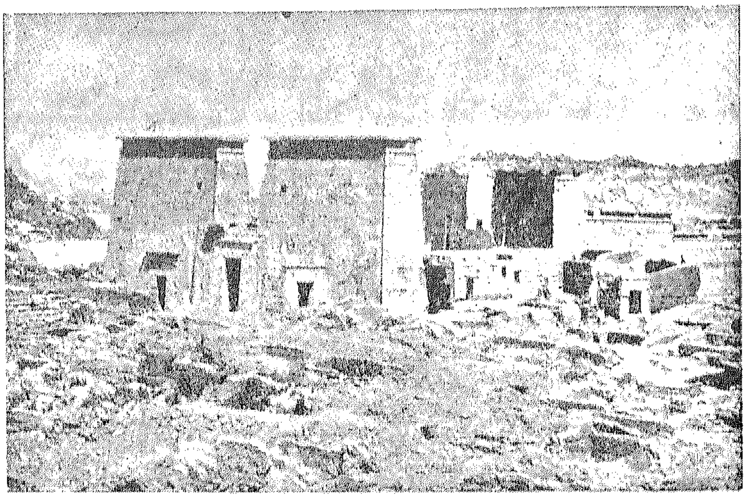
مبانيـــه :

وعُنى بطلميوس الثانى بالعمارة : فشيَّد الهياكل للمعبودات المصرية ، ومن أشهرها جزء من معبد فِيَلَه (قصر أنس الوجود) بأسوان ، كما أنه وسع مكتبه الإسكندرية ودار الفنون بها ، وشيّد فى الحى الملكى من المدينة مقبرة عظيمة نقل إليها جثة الإسكندر ، وكان بطلميوس الأوّل قد نقلها من بابل الى منف[1] .

وكان يرمى من وراء ذلك كُلِّه إلى استرضاء الشعب المصرى واكتساب حبه ، وليس هناك ما يدل على أنه سخّر أفراده فى إقامة تلك المبانى .

(١) يُرَجّح البعض أن قبر الاسكندر قائم تحت جامع النبى دانيال ، وقد أقام البطالمة مقابرهم حوله


خريطة
الأمبراطوريات الثلاث
التي خلفت امبراطورية الاسكندر
في القرن الثالث قبل الميلاد
أمبراطورية السلوقيين
" البطالمة
" مقدونيا
مقياس الرسم
البحر الأسود
البحر الأبيض
قبرص
أرمينيا
فارس
خليج فارس
المحيط الهندي
باكتريا
بحر أرال
تراقيا
نهر الدانوب
الاسكندرية
انطاكية
بابل
أسوان

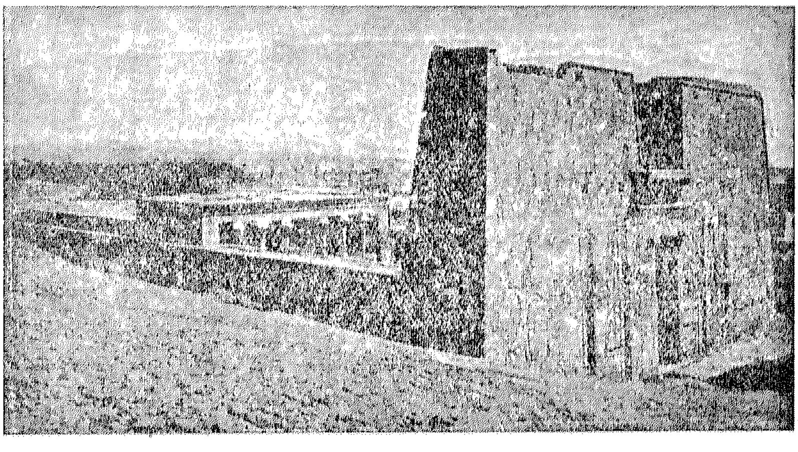


معبد فيلة

بطلميوس الثالث

توسيع أملاكه :

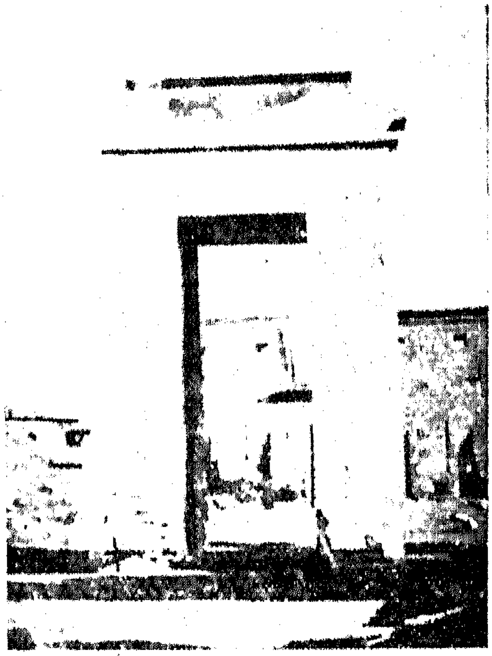
تولى بعد بطلميوس الثانى إبنه بطلميوس الثالث ، وكان ذا أطماع واسعة ، فحارب الدولة السلوقية فى الشام ، وعبر الفرات ، ومدّ رقعة أملاك مصر حتى شملت ، إلى جانب الشام ، طرابلس و برقة و بلاد النوبة .



معبد ادفو

مبانيـــه :

ولم تشغله هذه الحروب عن إقامة المبانى : فأقام معبداً عظيما فى أدفو، وشيّد بوابة لا تزال قائمة إلى اليوم ، تجاه معبد الكرنك .



بوابة بطلميوس الثالث بالكرنك

تدهور دولة البطالمة :

ولكن البطالمة الأخَر لم يكونوا على شاكلة الأول ، فأخذت دولتهم فى التدهور شيئاً فشيئاً ، إلى أن استولى الرومان على مصر، فى أيام الملكة كليوبطرة المشهورة آخر حكام تلك الأسرة ، كما سنرى فيما بعد .

الفصل الثانى

حضارة مصر فى عهد البطالمة

الحكومة :

على الرغم من أن البطالمة كانوا يمثلون الحضارة اليونانية فى الشرق ، فقد كانت حكومتهم حكومة مطلقة ، متعددة الدواوين ، كثيرة العمال ؛ فاتخذوا لأنفسهم كل ماادّعاه الفراعنة من السلطان المطلق ، وسيطروا على كل الموارد ، وكرهوا النظم السياسية اليونانية ، ولم ينشئوا فى مصر مدناً على النمط اليونانى ، يحكم أهلها أنفسهم بأنفسهم ، ولم يوجد فى عهدهم إلا الإسكندرية وثلاث مدن أخرى[1] ، وحتى فى هذه المدن كان لموظفى الحكومة الإشراف التام على شؤونها .

واعتمد البطالمة على جهود رعيتهم من وطنيين وأجانب لحفظ كيان دولتهم ، وخصّصوا العنصر الوطنى لإنتاج الثروة الزراعية والصناعية ، ولم يتركوا له من الرياسات إلا الرياسة الدينية ، ومن الآمال إلا الأمل فى الآخرة ، وخصّصوا العنصر اليونانى للحرب والحكم ، وكانت المناصب ، إلا أحقرها ، مقصورة عليه .

السياسة الاقتصادية :

اعتبر البطالمة أرض مصر كلها مِلْكهم وحدهم ، وقسّموها ، ورتبوا استغلالها على الوجه الآتى :

(أ) احتفظ الملوك لأنفسهم بالأرض التى كان يملكها الفراعنة والأشراف المصريون ، ووزعوها بين الفلاحين يزرعونها ويؤدون ما عليها من المال للخزانة ، وسخّروا هؤلاء الفلاحين ، فوق ذلك ، فى تطهير الترع وإقامة الجسور .

(ب) وخصص الملوك قسماً من الأرض للمعابد ، يزرعه الفلاحون ويؤدون ما عليه من المال للخزانة ، لا للمعابد مباشرة ، حتى لا تكون بين الكهنة والفلاحين علاقة ، وأخذت الحكومة على نفسها القيام بما يلزم المعابد والشعائر الدينية .

---

(١) هى مدينة پاراتونيوم ، ومحلها اليوم مرسى مطروح ، ونقراطيس التى سبق الاشارة اليها ، وبطوليمايس هرميو ، وموقعها الآن قرية المشاة ، بمركز جرجا .

(ج) ووزع الملوك قسما من الأرض على جنودهم من اليونان ، على شرط أن يقوموا بالخدمة الحربية ، وأن يؤدوا عن أرضهم مالًا قليلًا .

(د) وكان الملوك يهبون كبار موظفيهم ضيعات كبيرة ، على سبيل المكافأة وإظهار الرضا ، أو لإصلاح الأراضى البائرة .

نظام الاحتكار :

لم يقف الأمر عند الاستيلاء على الأرض ، بل عمد الملوك إلى ما يُعرف باحتكار بعض الأشياء ، وكان الاحتكار يشمل أصنافاً مصنوعة فى مصر نفسها ، وأخرى مستوردة من الخارج ، ومن النوع الأول : الورق المصنوع من البردى ، وكذلك المناجم ، والمحاجر ، والملّاحات ، والزيت ؛ ومن النوع الثانى : العاج ، وريش النعام ، وغير ذلك من المحصولات الإفريقية .

وفيما يلى مثل يبين طريقة الاحتكار :

كانت الحكومة تقرر كل عام مقدار ما يجب زراعته من النباتات الزيتية وتستولى من الفلاحين على جميع المحصول ، وذلك بالثمن الذى تراه ، ثم تتولى عصر الزيت فى مصانعها ، وتقوم ببيعه فى أنحاء البلاد ، بالثمن الذى تريده ، ولا تسمح باستيراد زيت من الخارج ، أو ببيع زيت غير زيتها فى الأسواق .

وهذا يدل على تفنن البطالمة فى ملء خزائنهم بالأموال ، فلا غرابة إذا تعدّدت الضرائب فى عهدهم ، بحيث لم يترك مورد من الموارد ، مهما كان تافها ، إلا وفرضت عليه ضريبة .

تنشيط التجارة الخارجية :

نشطت التجارة الخارجية أكبر نشاط ، إذ استغل البطالمة موقع مصر الجغرافى الفريد ، وجلبوا الحاصلات من أواسط إفريقية وبلاد الهند والعرب وممالك البحر المتوسط ، واهتموا بالطرق التجارية التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، فحفروا فيها الآبار ، وعيّنوا الجند لحراسة سابليها ، كما أنهم أعادوا الترعة القديمة التى تصل خليج السويس بالنيل ، عن طريق البحيرات المرّة .

كثرة موظفى الحكومة :

وقد استلزمت هذه السياسة الاقتصادية الإحصاء الدقيق والسجلات الوافية حتى لايضيع على الحكومة شيء ، فأدّى ذلك إلى استخدام عددٍ كبيرٍ من الموظفين .

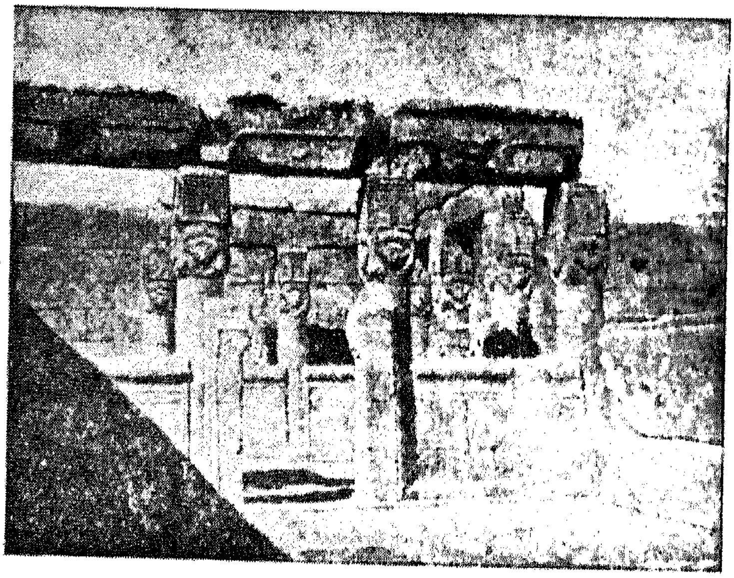
أثر سياسة البطالمة الاقتصادية :

ومما لا ريب فيه أن سياسة البطالمة الاقتصادية حققت غرضها القريب ، فملأت خزائن الملوك بالمال ، ولكنها كانت فى النهاية نكبة على البلاد ؛ فالاستغلال المنظم لا بأس به ، على شرط أن يكون عُمَّالُ الحكومة على جانب من الكفاية والنزاهة يضمن عدم إرهاق الناس بالباطل ، ووصول المال المجموع لخزانة الحكومة ، وعلى شرط ألا يشتط الحكام فى قتل الصناعة والتجارة الحرة ، وقد ثبت من تاريخ مصر أن الشرطين لم يتحقَّقا فى أيام البطالمة ، ولا فى أيام غيرهم ، ممن جاراهم فى هذه السياسة .

المصريون واليونان تحت حكم البطالمة

ترك الرياسة الدينية للمصريين :

قدمنا أن البطالمة اعتمدوا على المهاجرين اليونان ، فكوَّنوا منهم جيشهم واختاروا منهم كبار الموظفين ، وخصَّصوا أبناء البلاد المصريين ، لإنتاج الثروة ،



معبد دندره

ولم يتركوا لهم من الرياسات إلا الرياسة الدينية ، فأصبح الكهنة المصريون ، فى ذلك العهد ، الحفظة الوحيدين على تُراث الحضارة الفرعونية ، وشيّدوا المعابد فى دندرة ، وأدفو ، وكوم امبو ، وغيرها ، وشجّعوا على توحيد العبادات اليونانية والمصرية ، ولكن البطالمة احتاطوا بجَرّدوا الكهنة من النفوذ والتدخل فيما ليس من شأنهم .

مركز اليونان الممتاز :

أما اليونان فانهم كوّنوا الطبقة الممتازة ، ولشعورهم بذلك استمروا مدة طويلة مبتعدين عن المصريين ، ولم تقم بينهم علاقة الحاكم بالمحكوم ، وحلّت اللغة اليونانية محل المصرية فى دواوين الحكومة ، واشتغل اليونان بعلومهم وآدابهم على طريقتهم ، وعلّموا أبناءهم فى مصر تعليما يونانياً صرفاً ؛ ولكن سرعان ما تغلب الكل على الجزء ، وفعلت البيئة المصرية فعلها ، فأخذ التقارب بين العنصرين يزداد ، وكثر التزاوج بينهما ، وخصوصاً بعد أن قلّت الهجرة من بلاد اليونان ، وبعد أن أخذ البطالمة بسياسة التقرب من المصريين ، وهى سياسة اضطروا إليها ، لمّا وجدوا أن عدد اليونان لا يكفى لتغذية جيشهم ، فجنّدوا المصريين ، وكسب جيشهم المصرى واقعة رفح ، عام ٢١٧ ق . م . ، ضد السوريين ، وزادت قوة الجيوش المصرية شيئاً فشيئاً ، ولولا دخول الرومان مصر ، فى سنة ٣٠ ق . م . لضاع ما كان لليونان من مركز ممتاز بهذه البلاد .



صدار من الخرز كان يلبسه الجنود فى عصر البطالمة

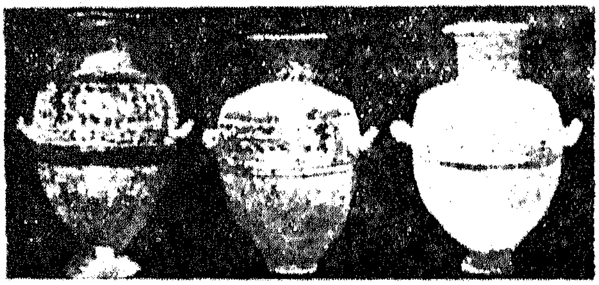
الإسكندرية فى عصر البطالمة

عاصمة الملك :

اتخذ الملوك البطالمة الاسكندرية عاصمةً لهم ، وأقاموا فى الحى المطل على المرسى الشرقى ، فبنَوا فيــه قصورهم وغرسوا حدائقهم ، واتخذ الفقراء مساكنهم فى الأحياء الغربية من المدينة ، وعلى مقربة منهـا قام معبد السرابيوم العظيم ، الذى شيده بطلميوس الأول للمعبود سرابيس .

مقابر الإسكندرية — حرق الجثث :

و بنيت المقابر فى جهتين من المدينة ، إحداهما فى الشرق ، وكانت خاصة باليونان والأجانب ، والأخرى فى الغرب ، وكانت خاصــة بالمصريين و بعض اليونان . وعلى الرغم من أن تحنيط جثث الموتى كان لا يزال مستعملاً بمصر إلى ذلك الوقت ، فقد شاعت عادة إحراق الجثث ، ووضع الرفات فى آنيــة جميلة من الفخار ، اشتهرت بصناعتها مدينةالإسكندرية حينئذ ، وفى متحفها اليوم عدد كبير منها ، عُثر عليه فى جهات الحضرة والشاطبى والابراهيمية .



آنية لحفظ رفات الموتى

توزيع المـاء فى المدينة :

وكانت هنالك ، فى موضع ترعة المحمودية الحالية تقريباً ، ترعة تجلب للمدينة ماء النيل ، وتوزعه على الأحياء المختلفة فى قنوات عديدة ، يتجمع ماؤها فى صهاريج خاصة .

الإسكندرية والحضارة اليونانية :

صارت الإسكندرية مركزاً رئيسياً للحضارة اليونانية ، وتركزت الحركة الفكرية فى دار الكتب ودار الفنون ، واشتغل العلماء بتصحيح المؤلفات اليونانية القديمة ، وبالتأليف فى العلوم المختلفة ، فظهر منهم فى الأدب : الشاعر ثيوكريتس. وفى الرياضيات : إقليدس ، الذى ألف كتباً قيّمة فى الهندسة والجغرافيا ، وايراتوستنيس ، الذى قاس طول محيط الكرة الأرضية .

البطالمة والحضارة المصرية القديمة :

بدأ انحلال الحضارة المصرية القديمة بالعهد الصاوى — اى بتغلغل النفوذ الأجنبى فى البلاد — ثم جاء العهد البَطْلَمِىّ فأتم الإجهاز على مصر القديمة . وعلى الرغم من أن البطالمة اتبعوا خطة التسامح الدينى ، وحافظوا على مظاهر المَلَكِيَّة الفرعونية ، إلا أنهم ، هم ويُونَانُهم ، قوّضوا دعائم القومية المصرية وتركوها ، كما قيل ، جسماً بلا روح ، ومعبداً بلا إله .



الباب التاسع

مصر فى العصر الرومانى

الفصل الأوّل

نموّ سلطان روما

تأسيس روما :

تأسست روما فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، فى الجهة الشمالية من إقليم لاتيوم Latium ، على المرتفعات الواقعة على ضفة نهر تيبر ، بالقرب من مصبه ؛ وبعد أن استقر المقام بالمستعمرين الأوّل ، أخذت تظهر مزايا موقع روما الطبيعى ، وما لبثت أن تدرّجت من قرية صغيرة إلى عاصمة للأقليم كله ، ثم أخذت تبسط حكمها على أجزاء إيطاليا الأخرى ، وبعد أن تم لها هذا أخضعت ممالك العالم القديم حول البحر المتوسط .

حكومة روما :

كانت روما فى أول أمرها ملكية ، وظلّت كذلك ما يقرب من قرنين ونصف قرن ، ثم طرد الرومان الملوك وأقاموا حكومة جمهورية ، ابتدأ عهدها فى سنة ٥٠٩ ق.م. ، وانتهى فى سنة ٣١ ق.م. وكانت شئون الحكم فى النظام الجمهورى فى يد موظفين ينتخبهم أهل المدينة لسنة واحدة ، وأهم هؤلاء : القنصلان ويتوليان معًا السلطة التنفيذية والقيادة فى الحرب ، وإلى جانبهما موظفون للشؤون القضائية والمالية وغيرها .

مجلس الشيوخ "السناتو" :

وبمرور الزمن أخذ مجلس الشيوخ ، أو السناتو ، يهيمن على أصحاب المناصب واختص بمسائل السياسة الخارجية ، وأدار دفتها بحكمة وحنكة ، وعظم في عهده شأن روما إلى أن تم لها السيادة على كل إيطاليا ، وبدأت حروبها وفتوحها الخارجية ، ومن أهمها : الحروب الطويلة بين روما وقرطاجة ، وبينها وبين بلاد اليونان وآسيا وسوريا ، والحملات العديدة في أسبانيا وإفريقية الشمالية .

الحروب البونية :

وتعتبر الحروب بين روما وقرطاجة ، وهي المعروفة بالحروب البونية أو الفينيقية (١) ، من الأدوار الحاسمة في تاريخ نمو سلطان روما ، وقد تعرضت في خلالها لخطر شديد ، ولكنها ثبتت وخرجت ظافرة . وكان وقوع هذه الحروب أمرًا لابد منه ، إذ أن قوة قرطاجة كانت عقبة تحول دون اتساع سلطان روما خارج إيطاليا .



هانيبال ، القائد القرطاجي

وقد قامت الحرب في دورها الأول بسبب تنافس الدولتين على الاستئثار بالنفوذ في جزيرة صقلية ، ثم اتسع نطاقها وأصبحت أمر حياة أو موت وفي الدور الثاني من الحرب ظهر البطل هانيبال ، القائد القرطاجي .

(١) نسبة إلى فينيقية ، موطن مؤسسي قرطاجة (تونس الحالية) ، التي كانت مدينة تجارية امتد نفوذها على سواحل القسم الغربي من البحر المتوسط ، وبخاصة في صقلية وأسبانيا .

هانيبال وسبيو .

استطاع هانيبال بمقدرته الحربية الفائقة ، أن يزحف من أسبانيا ، ويعبر جبال الألب ، ويُغير على إيطاليا من الشمال ، فعل كل هذا بسرعة كبيرة شلّت حركات الرومان ، فانتصر عليهم فى مواقع حربية هامة ، ولكنه فشل فى الاستيلاء على مدينة روما ، وتمكنت الحكومة الرومانية من إرسال القائد سيبيو إلى أسبانيا فاستولى على مستعمرات قرطاجة فيها ، وبعد أن تم له ذلك أغار على ساحل إفريقية الشمالى ، مما اضطر هانيبال إلى الجلاء عن إيطاليا والإسراع إلى إفريقية للدفاع عن وطنه .

موقعة زاما و هزيمة قرطاجة :

وفى موقعة زاما ، سنة ٢٠٢ ق.م . ، انتصر سيبيو على هانيبال انتصاراً حاسماً واضطرت قرطاجة إلى عقد معاهدة روما ، التى كان من شروطها : أن تسلم



جندى رومانى

أسطولها وتتخلى عن مستعمراتها ، وألاّ تُقدِمَ على حرب إلا بأذن من روما ، ومعنى هذه الشروط زوال قوة قرطاجة وضياعَ استقلالها ، وكان يصح أن يقف الأمر عند هذا الحد ، لولا تصميم فريق من زعماء الرومان على محو قرطاجة من الوجود ، وفعلا تم ذلك فى نهاية الحرب البونية الثالثة ، عام ١٤٦ ق . م .

روما أقوى دولة فى البحر المتوسط :

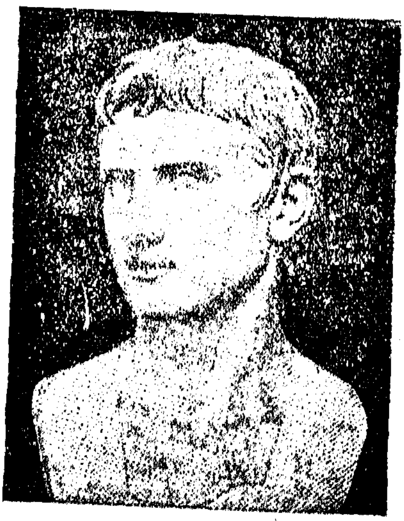
وكانت روما فى تلك الأثناء تعمل على إخضاع جميع الممالك المطلة على البحر المتوسط ، وجعله بحرًا رومانيًا صِرْفاً ، فأخضعت مقدونيا ، والمدن اليونانية والأناضول ، ثم أخذت توجه مطامعها نحو مصر ، فاستولى عليها أكتافيوس ، بعد انتصاره فى موقعة اكتيوم البحرية ، سنة ٣١ ق . م . كما سنرى .

الفصل الثانى

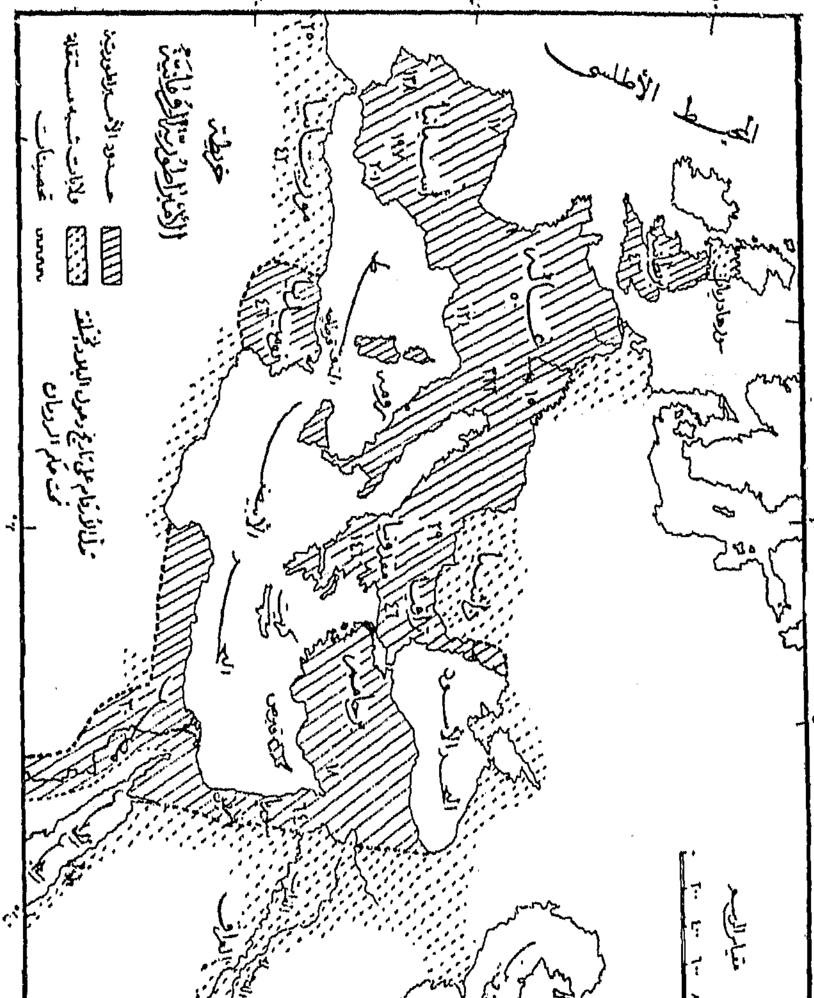
الإمبراطورية الرومانية

اكتافيوس وإنشاء النظام الامبراطورى :

عاش اكتافيوس ، بعد انتصاره فى موقعة اكتيوم ، أربعة وأربعين عاماً ، قضاها فى وضع نظام سياسى للدولة الرومانية ، هو النظام الإمبراطورى ، وقد نجح نجاحاً باهراً ، حيث أخفق غيره من الزعماء السياسيين ، ويرجع السر فى نجاحه إلى أنه عنى بمظاهر النظام الجمهورى وتجنب الظهور بمظهر الحاكم المطلق والتلقب بألقاب الملكية ، واكتفى بتلقيب نفسه " اجسطوس " أو صاحب الفخامه ، وبأن تكون فى يده حقيقة السلطان لامظهره .



اجسطوس ، أول أباطرة رومة

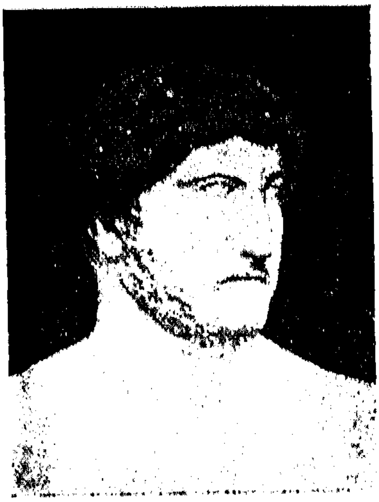

المحيط الأطلسي

أجسطوس وسياسة الإصلاح :

استخدم أجسطوس سلطته فى تنظيم شئون الدولة الإدارية والمالية والحربية والاجتماعية ، ونال نظام الحكم فى الولايات أكبر نصيب من عنايته ، فعُنِىَ بضبط جبايتها وإصلاح مرافقها العامة ، كما أنه اهتم بتأمين حدود الدولة ، وكانت على عهده تشمل : نهر الرين فى الغرب ، والطونة فى الشمال ، والفرات فى الشرق ، والصحراء الكبرى فى الجنوب . وعمل على أن يصد عنها غارات المغيرين من الأمم والقبائل المتبربرة ، التى كانت تقطن فيما يتاخمها .

وكان عهده فى الجملة عهد طمأنينة سادت العالم الرومانى الواسع الأرجاء ، وفى هذا الهدوء التام كان مولد السيد المسيح عليه السلام .

بعض خلفاء أجسطوس :


الإمبراطور هادريان

واشتهر من خلفاء أجسطوس : الإمبراطور تراچان ، الذى آثر اتباع سياسة التوسع الحربى ، فأضاف إلى الدولة الأرض التى نعرفها الآن باسم رومانيا ، كما ضم إليها أرمينيا والجزيرة ولكن خليفته ، الإمبراطور هادريان ، فضَّل اتخاذ خطة التخلى عن بعض هذه الفتوح ، وجعل الفرات الحد الشرقى للدولة ، وكان هادريان مولعاً بالتجول فى الولايات ، يترك أينما حل ما يدل على عظم همته .

الاضطراب بعد عهد هادريان

إغارات المتبربرين :

هاجمت القبائل المتبربرة الحدود ، محاولةً الاستقرار فى الأراضى الرومانية ، فشُغل الأباطرة طول الوقت بمقاومة تلك القبائل ، تارة بالسياسة وطوراً بالحرب ، ولكنهم لم يقووا فى النهاية على صد غاراتهم ، فسقطت ولايات الدولة فى الغرب تحت حكم المتبربرين .

الارتباك الداخلى :

وكذلك عم الارتباك داخلية البلاد، وذلك لأسباب أهمها : تدخل ألوية الجند الرومانى فى شئون الحكم عامة وفى عزل الأباطرة وتنصيبهم خاصة ؛ وانتشار المسيحية فى ولايات الدولة انتشاراً قوض الأسس التى قام عليها العالم الرومانى : إذ أن النصرانية حاربت الوثنية ، وأبى الرومان المسيحيون أن يجاروا مواطنيهم الوثنيين فى تقديس الأباطرة وعبادة تماثيلهم فى المعابد ؛ كما أن المسيحية أنكرت الرق ، الذى كان عماد النظام الاقتصادى الرومانى ، ودعت إلى إنكار الذات و إلى المساواة فى مجتمع ساد فيه السعى إلى القوة والجاه ، فلا عجب أن كانت المسيحية عاملاً من عوامل انحلال العالم الرومانى .

الأباطرة والمشكلة الدينية :

واجه الأباطرة المشكلات الثلاث : إغارات المتبربرين ، والفتن العسكرية ، والمسيحية ، بمختلف الوسائل ، وظنوا أنهم يستطيعون حل مشكلة المسيحية باضطهاد معتنقيها ، ومحو المسيحية بمحو المسيحيين ، ولقد صدر هذا عن فكرة سياسية ، لا عن مجرد قسوة ، إذ أَخَذَ بخطة الاضطهاد أكرم الأباطرة خُلُقاً وأوسعهم فكراً .

وقد بلغ الاضطهاد أشده فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ ميلادية)، ولكنه لم يأت بالغرض المقصود منه ، بل زاد المسيحيين تمسكاً بدينهم ، إلى أن أصبحوا فى أيام قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٨ م.) أكثر عدداً من الوثنيين ، فرأى هذا الإمبراطور أن يعتنق دين الكثرة، وأن يعترف به ديناً من أديان الدولة .

ضعف شأن الوثنية على توالى الزمن ، وأصدر الإمبراطور ثيودوسيوس مرسوماً ، فى سنة ٣٨٠ م ، يحتم اعتناق المسيحية ويحرم عبادة الأوثان ، ويغلق معابدها . ولكن هذا لم يحل المشكلة الدينية ، إذ انقسم المسيحيون فِرَقاً ، واشتد الخلاف بين الفرق اشتداداً صحبه اضطراب فى الأمن ، مما اضطر الأباطرة إلى التدخل بين الفرق ومناصرة بعضها على البعض الآخر ، وانفصمت بذلك عروة الوحدة الدينية تماماً .

الأباطرة وتأمين الدولة :

أما مشكلة تدخل الجند فى الحكم، وما يتبع ذلك من ثقل الأعباء على الإمبراطور فقد عالجها "دقلديانوس" بإقامة ثلاثة أباطرة آخرين بجانبه ، و بإحاطة شخص الإمبراطور بمظاهر الملكية القديمة ، حتى تعظم هيبته ، فلا يجسر إنسان على مسه بسوء، ولكن لم يؤد هذا إلى المقصود منه، فتجدد النزاع على العرش ، ولم يستتب الأمر نوعاً ما إلا بانتصار قسطنطين .

انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى دولتين :

رأى قسطنطين أن يبتعد عن روما، وجندها المضطرب، وموقعها الذى يهدده المتبربرون فى الغرب ، فاتخذ عاصمته فى المدينة ، التى عرفت باسم القسطنطينية (استانبول الحاضرة) ؛ وبذلك انقسم العالم الرومانى إلى غربى وشرقى ، وكان مركز الأول روما ، والآخر القسطنطينية ، ولكل منهما بيئته وتقاليده، وما لبث أن انقسم سياسياً إلى دولة رومانية غربية ، ودولة رومانية شرقية ، وذلك منذ موت ثيودوسيوس، فى سنة ٣٩٥ م .

نهاية الدولتين :

لم تعمر الدولة الغربية طويلا ، بل سقطت فى أيدى المتبربرين ، ولم يجلس على عرش روما امبراطور بعد سنة ٤٧٦ م .

ولكن الدولة الشرقية ، التى أصبحت مصر جزءاً منها منذ انقسام الدولة ، قُدِّر لها بقاء أطول ، فظلت قائمة إلى أن محاها السلطان محمد الثانى عند ما فتح القسطنطينية ، فى سنة ١٤٥٣ م .

الفصل الثالث

مميزات الحضارة الرومانية

سيادة الطمأنينة :

ضمت الإمبراطورية الرومانية شعوباً مختلفة وحضارات متباينة ، ولكن على الرغم من ذلك تمتع أفرادها جميعاً بالطمأنينة طول عهد الأباطرة ، فكانوا يتنقلون بين أرجائها آمنين ، يخضعون لحكومة واحدة وقانون واحد ، ولهم بعض ما للرومان أنفسهم من الحقوق ؛ وذلك يدل على حكمة الساسة الرومان .

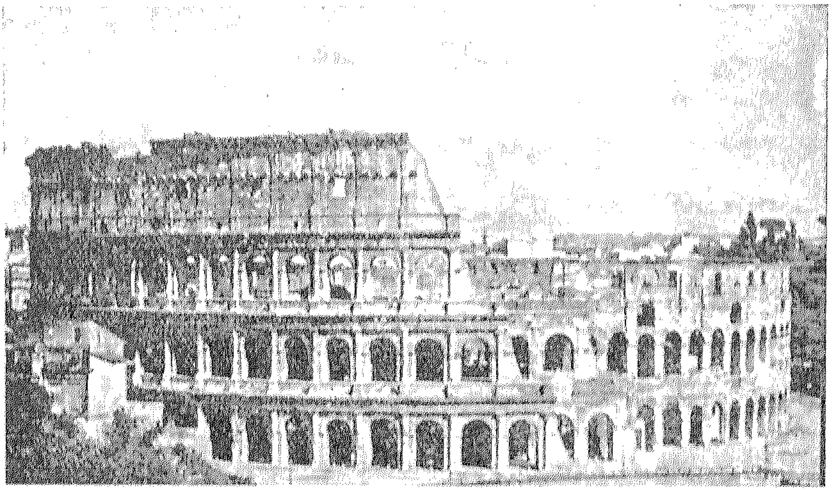
القانون الرومانى :

وكما اشتهر الرومان بحكمتهم السياسية امتازوا كذلك بقدرتهم على سَنِّ القوانين ولا يزال قانونهم عنصراً هاماً من عناصر المدنيـة الحالية ، فقد اتخذته كثير من الدول أساساً لقوانينها .

اتصال الحضارة الرومانية بحضارة اليونان :

ومما ميز الحضارة الرومانية اتصالها بالحضارة اليونانية ومحافظتها عليها ، فشغف متعلمو الرومان بدراسة اللغـة اليونانية والعناية بآدابها ، وفضَّل بعضهم التخاطب باليونانية على اللاتينية ، لغتهم الأصلية ، واتخذ أغنياؤهم معلمين لأبنائهم من اليونان .

ولكن على الرغم من ذلك ، ظهر بين الرومان من أبناء الكتابة باللغة اللاتينية : فألَّف شيشرون كُتُباً فى الخطابة والأدب لا تزال أنموذجاً يُحتذى ، كما وضع ليفى تاريخاً مسهباً لروما ، ونَظَم هوراسَ وفِرجيل أشعاراً خالدة .



الكلوزيوم — ملهى رومه الكبير ، وكان يسع خمسين ألفاً من المتفرجين بمشاهدة حفلات المصارعة



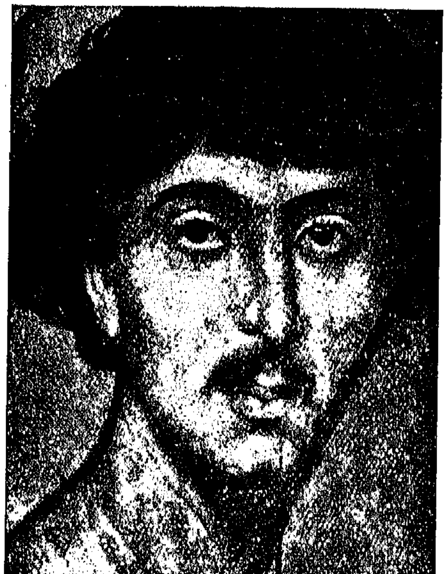
بهو في حمام روماني برومه (صورة تكوينية)

ظهور المسيحية :

اقترنت الحضارة الرومانية بظهور المسيحية ، وبعد أن قاوم الأباطرة هذا الدين ، تشيّعوا له ، فأدّى ذلك إلى انتصار المسيحية على الوثنية نهائياً ، وأصبح الدين الجديد دعامة من دعائم الحضارة الأوربية ، ومما لا شك فيه أن أثر المسيحية فى التاريخ أعظم شأناً من القانون الرومانى والآداب اليونانية واللاتينية .

الفنون :

ولع الرومان بالبناء ، ولكنّهم اتجهوا فيه وجهة تخالف وجهة المصريين القدماء واليونان ، فلم يعنوا ببناء المعابد والمقابر عنايتهم بتشييد القصور الفخمة ، والحمامات الجميلة ، والملاهى الفسيحة ، ودواوين الحكومة وما إلى ذلك من المبانى الخاصة والعامة ، التى حلّوْا جدرانها بالنقوش .

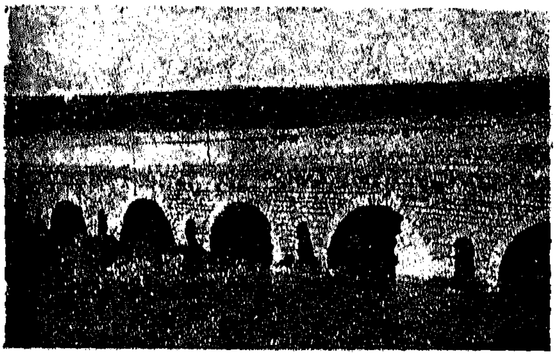


صورة مصرى مرسومة على الخشب

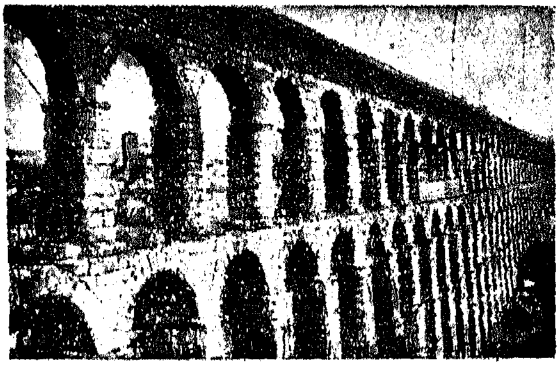
كذلك برع الرومان فى رسم صور الأشخاص بالألوان على ألواح من الخشب ، فازدحمت ألوارع المدن الرومانية الهامة بالمصورين ، الذين كانوا يقومون بعمل هذه الصور فى وقت قصير ، وقد عثر على بعضها فى مصر ، ولا يزال باقياً بمتاحفها إلى الآن فى حالة تدعو إلى الإعجاب .

الطرق والقناطر :

ومن مظاهر الحضارة الرومانية كذلك، العناية بإنشاء الطرق وتعبيدها، ولقد دعا الرومان إلى هذا، اتساع رُقْعة امبراطوريتهم ورغبتهم فى ربط أجزائها بعضها ببعض، ولم تعقهم الأنهار عن الوصول إلى غايتهم، فكانوا يقيمون فوقها القناطر، التى لا يزال بعضها قائماً إلى اليوم .



قنطرة رومانية فى أحد بلاد ايطاليا



قنطرة رومانية تجرى فوقها قناة

كذلك مدّ الرومان مجارى لنقل الماء إلى المدن البعيدة عن الينابيع والأنهار، وكانت هذه القنوات تسير تارة تحت الأرض، وطوراً فوق قناطر يشيدونها لهذا الغرض .

وصفوة القول أن الحضارة الرومانية اتجهت وجهة عمرانية عمليه، فى كل ناحية من نواحيها .

الفصل الرابع

علاقة الرومان بالبطالمة

تدخل رومه فى شؤون مصر :

ارتبطت مصر وروما بعلاقات الصداقة فى عهد بطلميوس الثانى ، واتصلت روما بمصر ، فى عهد بطلميوس الرابع ، وجددت هـذه العلاقات ، وكان ذلك فى أثناء الحرب البونيـة الثانية ، ثم أخذت تلك العلاقات تتطور ، وبدأ الرومان يتدخلون فى شئون مصر ، خصوصا وقـد توالى على عرشها ، فى العهـد الأخير من حكم البطالمة ، ملوك ضـعاف كانوا ينظرون إلى روما كحامية لهم ، وروما من جانبها تنظر إلى مصر كولاية لا بد من أن تسقط فى يدها ، ولكنها اكتفت فى هـذا العهد بالمركز الممتاز الذى كسبته لنفسها فى مصر ، إثر تدخلهـا المتوالى فى أخص شؤونها ؛ وسـاعد على تحقيق مأربها النهـائى وجود ملك من هؤلاء المـلوك الضعاف ، يسمى بطلميوس الحـادى عشر ، وهو أبو كليوبطرة المشهورة ، لجأ إلى رشوة زعماء الرومان لتحمى جيوشُهم عرشـه . وبعد موته آل مُلكه إلى ابنته الكبرى ،كليو بطرة ، التى أشركت معها فى الحكم أخاها الصغير ، وتزوجتـه ، وكان يقع دائماً بينهما خلاف من أجل الاستـئثار بالحكم ، كثيرا ما احتدم إلى درجة أدت إلى نشوب الحرب بينهما .



بطلميوس الحادى عشر

النزاع بين يوليوس قيصر وبمبي :

وصادف وقوع هـذا الخلاف اشتداد النزاع فى الدولة الرومانية بين زعيمين عظيمين هما : يوليوس قيصر و بمبي ، ولما تقابل الزعيمان المتنافسان فى ساحة القتال ، ببلاد اليونان ، كُتِبَ النصر فى النهاية ليوليوس قيصر ، فى موقعة فرساليا، سنة ٤٨ ق . م . ، وفرّ منافسه بمبي إلى مصر ، فتبعه قيصر إليها،ولكن بمبى لقى حتفه فى مصر غيله .



يوليوس قيصر

يوليوس قيصر وكليو بطرة :

لقيت كليو بطرة قيصر بالإسكندرية فاستعانت به لينصرها على أخيها ، وفعلا حقق رجاءها ، وبعد أن أقام قليلا بمصر عاد إلى روما ، عام ٤٦ ق . م ، تاركا فى مصر حامية رومانية لتأييد كليو بطرة .

مقتل قيصر :

وقامت فى روما حركة للتخلص من يوليوس قيصر وأطماعه السياسية ، دبّرها جماعة من أنصار النظام الجمهورى ، واغتال المتآمرون قيصر ، فى أوائل سنة ٤٤ ق.م.

أنطونيوس وكليو بطرة :

وظهر على أثر اغتيال قيصر ، زعيمان جديدان هما : أنطونيوس وأكتافيوس ، وثانيهما ابن أخت قيصر وابنه بالتبنى ، واختلف الرجلان على السلطة ، ثم اتفقا على أن تكون الأقطار الشرقية من نصيب أنطونيوس ، والغربية فى يد أكتافيوس ولكن ما لبث أن تنكر كل منهما لصاحبه ، وطلّق أنطونيوس زوجته ، وكانت أخت اكتافيوس ، خصمه ، ثم تزوج بكليو بطرة .



كليو بطرة آخرة البطالمة

موقعة أكتيوم البحرية ، سنة ٣١ ق.م :

وكانت هذه الملكة الشهيرة ترجو أن يمكنها الشقاق القائم فى الدولة الرومانية من الاحتفاظ باستقلال بلادها ، فآزرت أنطونيوس ، ووضعت تحت إمرته جيشها وأسطولها ، ولكن لم يتحقق رجاؤها ، إذ انتصر اكتافيوس على أنطونيوس وكليوبطرة ، فى موقعة اكتيوم البحرية ، على الساحل الغربى لبلاد اليونان ، سنة ٣١ ق. م. ، كما انتصر على كليوبطرة برًّا فى مصر نفسها .

نهاية أنطونيوس وكليوبطرة :

يئس أنطونيوس من أمره فانتحر، وفشلت كليوبطرة فى مفاوضتها مع أكتافيوس وتأكدت أنه يريد أن يأخذها أسيرة إلى روما ، مُكَبَّلَةً فى الأغلال ، ولهذا آثرت الموت على الحياة ، فانتحرت . وقد جاء فى الأساطير القديمة أنها وضعت ثعباناً على صدرها لدغها فماتت، ولكن هذا القول لا يزال فى حاجة إلى إثبات .



أنطونيوس



كليوبطرة وعلى صدرها ثعبان
(صورة خيالية)

وبموت أنطونيوس وكليوبطرة خلا الجو لأكتافيوس وأصبح سيد العالم الرومانى ومصر ، منذ سنة ٣٠ ق . م .

الفصل الخامس

مصر تحت حكم الرومان

٣٠ ق . م — ٦٤١ م .

استيلاء أكتافيوس على مصر :

بعد موت انطونيوس وكليوبطره دخل مصر أكتافيوس (اجسطوس) ، أول أباطرة روما ، بجيش جرار استولى على البلاد بأسرها ، عام ٣٠ ق.م. ، وحل محل ملوك مصر الأقدمين ، من فراعنة وبطالمة ، وتلقب بما كانوا يلقبون به من ألقاب التشريف .

مصر حقل روما :

وكان لمصر فى نظره مقام خاص ، إذ اعتبرها حقلا يُمَوِّنُ أهلَ روما بالغلال ، كما أدرك أن ثروتها وموقعها الجغرافى يمكِّنان مَن تقع فى يده من الزعماء أن يصبح قوة لا يستهان بها ، فوضعها تحت حكمه مباشرة ، وزاد فى الحرص عليها ، فحرّم على الأشراف والشيوخ الرومان زيارتها إلا بإذنه ، كأنها جزء من أملاكه الخاصة .

تأمين حدود مصر :

واهتم أجسطوس بتأمين حدود مصر ، وتوطيد النظام فيها ، وأنزل بها ثلاثة ألوية من الجند الرومانى ، زادوا على العشرين ألفاً ، واختار لهم ثلاثة مراكز رئيسية : بالقرب من الإسكندرية ، وفى الجهة التى نسميها الآن مصر القديمة ، وفى إقليم طيبة ، حيث الطرق بين وادى النيل والبحر الأحمر من جهة ، وبين وادى النيل والواحات من الجهة الأخرى ، وحيث نفوذ الكهنة المصريين قوى من قديم الزمان . هذا إلى مراكز ثانوية عديدة متفرقة .

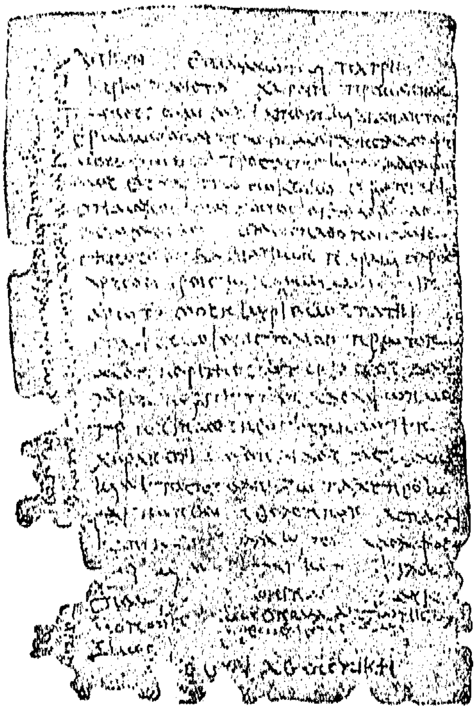
ولم تقتصر واجبات الجند على الأعمال الحربية وضبط الأمن ، بل استخدمتهم الحكومة فى جمع الضرائب ، وتطهير الترع ، وصيانة الجسور ، وما إلى ذلك .

إصلاح الإدارة :

وقسم أجسطوس مصر ثلاثة أقسام رئيسية : الدلتا ، وطيبة ، وما بينهما ، وتشمل سبع مديريات ، جعل على رأس كل مديرية منها مديراً ، وعلى رأس كل قسم من الأقسام الثلاثة حاكما ، ووضع على الكل والياً ينوب عنه ويمثله فى كل الشئون . وكان بجانب الوالى عمال للمالية والقضاء وغيرهما من فروع الحكم .

سياسة أجسطوس نحو اليونان واليهود :

وأمر أجسطوس بأن تَبْقَ للمدن اليونانية فى مصر بعض حقوقها ، ولكنه لم يشجع اليونان المتوطنين على الاعتقاد بأنهم سادة البلاد ، ولهذا ساعد اليهود القاطنين فى الإسكندرية وغيرهم على رفع رءوسهم والاعتداد بأنفسهم ، ولكنه لم يستطع ، إلا الاعتراف بما لليونان من مكانة ، يدل على ذلك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية السائدة فى العصر الرومانى .



خطاب باللغة اليونانية ، أرسله جندى مصرى الى أسرته فى مصر ، بعد وصوله إلى إيطاليا مع الجيش الرومانى

سياسة أجسطوس نحو المصريين :

واتبع أجسطوس إزاء المصريين نفس السياسة التى اتبعها البطالمة ، فترك لهم الحرية الدينية ، واهتم بالمعابد ، وما إلى ذلك ، ولكنه عنى ، كما عُنِىَ البطالمة ، بمراقبة الكهنة مراقبة دقيقة ، وعمل على تجريدهم من ثروتهم ونفوذهم .

وفى أثناء حكم أجسطوس ، فرّ إلى مصر يوسف النجار والسيدة مريم ومعهما السيد المسيح طفلا ، فآوتهم مصر فترة من الزمن .

مجمل أحوال مصر فى العصر الرومانى

توالى على مصر الولاة من قبل الأباطرة ، ولكن حقيقة الحكم الرومانى لم تتغير ، وكل ما هنالك أن من الولاة من كان أقدر من غيره أو أكثر استقامة أو نزاهة .

ومن الأباطرة من عُنِىَ بتنميــة موارد الثروة ، أو بتشـييد المبانى الحربيـة أو الدينية ، أو بدفع إغارات المتبربرين من سكان الصحارى عن وادى النيل ، فأعاد تراچان حفر الخليج بين النيــل والبحر الأحمر ، كما شيّد فيما يقال ، حصن بابليون ، ولا تزال بعض أبراجه قائمة بمصر القديمة .



حصن بابليون

كذلك أصلح دقلديانوس شئون الإدارة ، وآثر أهل الاسكندرية برضاه فأقاموا له نُصُبًا تذكاريا هو عمود السوارى المعروف .

الفتن :

ولكن الأمور كانت فى أغلب الأحيان لا تسير على هـذا المنوال ، فإن الفتن كانت مستمرة ، وبخاصة فى الإسكندرية ، بين اليهود واليونان ، كما أن المصريين كانوا يحاولون من وقت لآخر رفع نير الحكم الأجنبي عن أعناقهم ، وكان ذلك ينتهى عادة باضطراب الأمن ، وسفك الدماء وازدياد البؤس والشقاء.



عمود السوارى

دخول المسيحية وظهور الرهبنة فى مصر .

دخلت المسيحية مصر على يد القديس مرقص ، فى عهد الإمبراطور نيرون ، وذلك فى منتصف القرن الأول الميلادى ، وكان انتشارها أهم ما حدث فى العهد الرومانى ، وقد بدأ ذلك خلال القرن الثالث الميلادى ، وكان المصريون على استعداد لقبولها ، وخاصة بعد أن قوّض الحكمُ الأجنبي والاختلاطُ بالأجانب سلطانَ الديانة المصرية

القديمة، ووجد المصريون فى الدين الجديد عقيدة البعث، وهى من أهم معتقداتهم القديمة .

وقد غلبت على المسيحية المصرية روح التأمل والزهد ، فاعتصم الكثير من المصريين بكهوف الصحراء ، فراراً من ظلم الإنسان ومساوئ الدنيا ، وبدأت بذلك حياة الرهبانية المصرية وتشييد الأديرة .

الحكومة الرومانية والمسيحية :

وقد قاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية ، وخاصة فى أيام دقلديانوس الذى قُتِلَ بأمره عدد كبير من المسيحيين المصريين ، ولهذا سمى الأقباط عصره "عصر الشهداء" ، وجعلوا أوّل سنة من حكمه (٢٨٤ م.) مبدأ التقويم القبطى .

واستمر اضطهاد الأباطرة الرومانيين للمسيحيين إلى أن اتخذ الامبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسميا، وبمرور الزمن ضعف شأن الوثنية، وخاصه حين حتّم الامبراطور ثُيُودوسيُوس اعتناق المسيحية ، وحَرَّم عبادة الأوثان ، كما أسلفنا .

ولكن المسيحيين انقسموا فرقاً اشتد الخلاف بين أفرادها اشتداداً أدّى إلى قيام فتن دموية .

سوء حال مصر :

فلا عجب أن سارت أحوال مصر من سيء إلى أسوأ ، فزاد الفقر ، وتحايل الحكام على ابتزاز الأموال ، واختل الأمن ؛ ونفّر الخلاف الدينى المصريين من أباطرة الدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينيه، وكانت مصر تتبع تلك الدولة منذ انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين فى نهاية القرن الرابع الميلادى .

إغارة الفرس ، ٦١٧ م. :

كره المصريون حكم الرومان ، وانتهز الفرس ذلك فتوغلوا فى أملاك الدولة الرومانية ، وفتحوا الإسكندرية، سنة ٦١٧ م .

عودة الرومان :

ولكن لم يدم حكمهم طويلاً ، إذ قام الإمبراطور هرقل وأجلاهم عن ممتلكاته ، وغزا بلادهم ، ودخل قاعدة ملكهم فاضطر الفرس إلى الانسحاب من مصر ، وعاد إليها الرومان ، فى عام ٦٢٨ م .

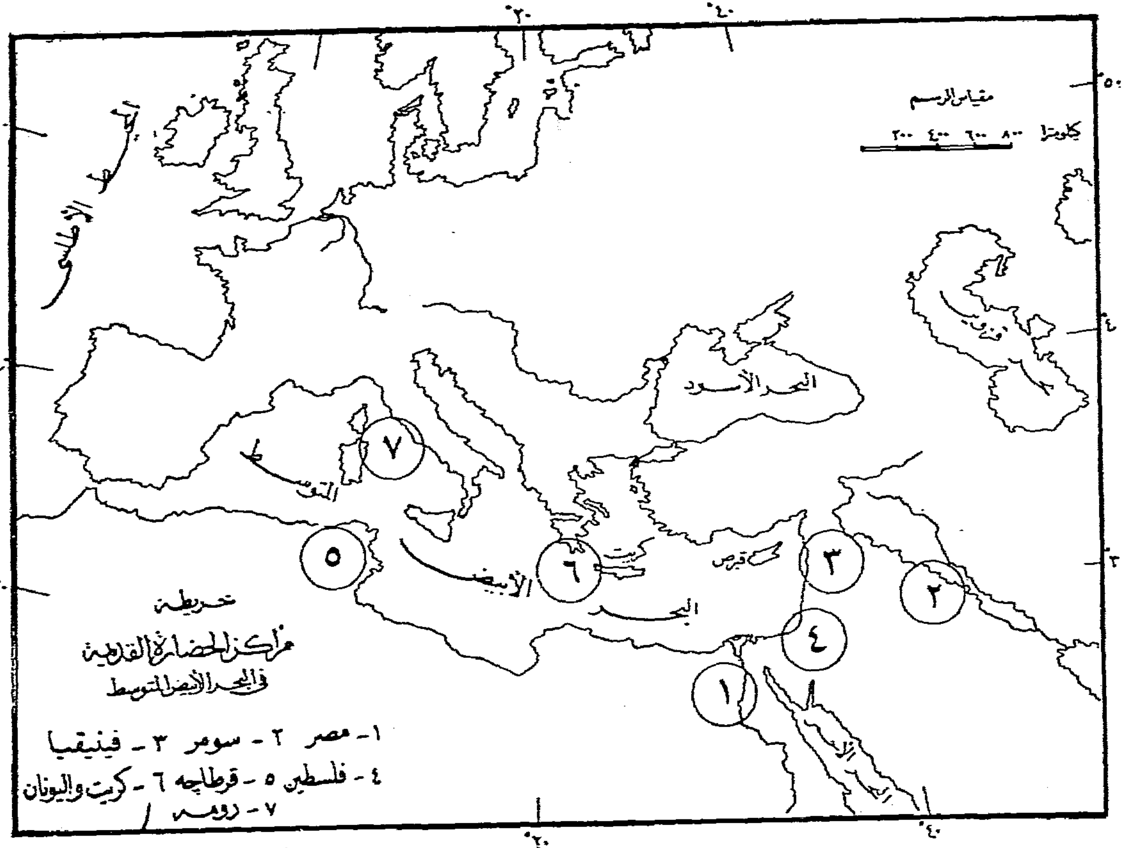
نهاية الحكم الرومانى فى مصر :

لم يتعظ الرومان بماضى سياستهم فى مصر ، فظلّ المصريون ، على سابق عهدهم يكرهون حكمهم .

ولم يسؤ المصريين توَغّلُ الجيوش العربية فى ولايات الدولة الرومانية الشرقية ، عند ما بدأت الفتوح الإسلامية ، وانتزع المسلمون من الرومان الشام وفلسطين ، وكذلك مصر ، التى فتحها عمرو بن العاص ، فى سنة ٦٤١ م .

وبذلك دخل تاريخ مصر والمصريين فى دور جديد .




خريطة
مراكز الحضارة القديمة
في البحر الأبيض المتوسط
١- مصر ٢- سومر ٣- فينيقيا
٤- فلسطين ٥- قرطاجه ٦- كريت واليونان
٧- رومه
البحر الأسود
قبرص
كريت
البحر
الأبيض
المتوسط
مقياس الرسم
كيلومترا ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠

مكتبة
لسان العرب

- الطب المصري القديم
- مصر في العصور القديمة
- تاريخ الفن المصري القديم
- تاريخ توت عنخ آمون
ويتبعه تاريخ عالم الفراعنة
- الأثر الجليل لقدماء وادي النيل
- الموارد والصناعات عند قدماء المصريين
- الطب والتحنيط في عهد الفراعنة
- الدليل العصري للمتحف المصري
- ديانة مصر القديمة
- النيل في عهد الفراعنة
- وادي الملوك
- الموتى الفرعوني
- التداوي بالأعشاب في مصر القديمة
- آلهة المصريين
- عندما حكمت مصر الشرق
- نهاية مدينة فر...

MADBOULI BOOKSHOP   مكتبة مدبولي
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421   ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١